الجهود الصوتية في كتب البلاغة العربية

من القرن الثالث حتى القرن السابع الهجري

إطروحة تقدم بها

حسن احمد مهاوش العزاوي

إلى مجلس كلية التربية ابن رشد - جامعة بغداد

وهي جزء من متطلبات نيل درجة دكتوراه فلسفة في اللغة العربية – أدب.

بإشراف

الأستاذ الدكتور أحمد شاكر غضيب

جمادى الثاني 1424 هـ آب /2003 م

n

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ ﴾

آل عمران:142

﴿وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْساً﴾

طه: 108

﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقاً وَعَدْلاً لا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾

الأنعام:115

صدق الله العظيم

(قرآن كريم)

الإهداء

أهدي هذا الجهد المتواضع إلى كل مسلم جاهد في سبيل الله ورسوله لتبقى " كلمة الله هي العليا "

كما اهديه إلى عائلتي الفاضلة زوجتي وأولادي.

الباحث

الشكر والتقدير :

أود أن اشكر المشرف على هذه الأطروحة الأستاذ الدكتور احمد شاكر غضيب على ملاحظاته وتوجيهاته السديدة القيمة والتي أغنت فصول هذه الدراسة , أتمنى له كل الموفقية والسعادة , وجزاه الله خير الجزاء .

كما أتقدم بالشكر والعرفان للأستاذ الدكتور نعمه رحيم العزاوي والاستاذ الدكتور (المتمرس) محمد حسين علي الصغير , على جهودهما القيمة واقتراحهما عليّ لتعديل بعض فصول هذه الدراسة , كما نوراني من آرائهما في التوجيه والنصح والإضافات المفيدة فلهما من الله الثواب ومني فائق الشكر والامتنان .

ولا يقونني أن اذكر موقف أستاذي الدكتور عبد السلام محمد رشيد , الذي اقترح عليَّ عنوان هذه الأطروحة ومتابعة خطواتها أولاً بأول , وفقه الله في مسعاه هذا .

كما اقف عاجزا" بالشكر والامتنان , أمام أساتذتي في قسم اللغة العربية , الذين تتلمذت على أيديهم في مرحلة الدكتوراه التحضيرية , ونهلت من علمهم النير واقتديت بأخلاقهم الرفيعة , وفقهم الله جمعيا" في أداء رسالتهم الشريفة لخدمة مهنتهم الناصعة .

أما زملائي في الدراسات العليا , فلا أنسى أثرهم المشرف الذي وقفوه معي في مجال تهيئة المصادر ومن أماكن كثيرة وجعلوها تحت تصرفي منذ بدء إعداد هذه الأطروحة إلى نهايتها , فالكلمات تعجز عن شكرهم لما بذلوه من جهد في توفير المصادر , فلهم الشكر والامتنان في مسعاهم هذا الخير .

واتقدم بشكر خاص لكل أمناء المكتبات وبدون استثناء لما أبدوه من مساعدة في توفير بعض المصادر والمراجع وتهيأتهم لي القسم الأخر منها , فلهم مني كل الامتنان والتقدير .

كما أتقدم بالشكر لصاحب مكتب استنساخ السعيدي الأخ يعرب الذي بذل جهوداً مضنية لطبعه هذه الأطروحة وفي الوقت نفسه اشكر مكتب محمد للطباعة والاستنساخ لقيامه بإبداء المساعدة لي .

كما اشكر كل من أبدى مساعدة مهما كان نوعها , من توفير مصدر أو مرجع أو إبداء ملاحظة علمية على جزئية من جزئيات هذه الأطروحة لتغتني بها فلهم الشكر والامتنان , وفقنا الله جميعا" لخدمة هذا العلم , وآخر دعوانا أن الحمد لله ربِّ العالمين .

الدراسات السابقة

جرت محاولات سابقة لدراسة الصوت من الخليل بن احمد الفراهيدي (175هـ) وسيبويه (180هـ) وابن جني(392هـ) تركزت على الجوانب اللغوية والنحوية واللهجات العربية وتبعتها دراسات فقهية وتفسير فيها لمحات صوتية وبلاغية , واكثر من تحدث عن الصوت البلاغي من القدماء ابن سنان الخفاجي (466 هـ) .

أما الدراسات الصوتية الحديثة , فقد ركزت على المستوى الصوتي واللهجات العربية واللسانيات وفقه اللغة وبعض الدراسات القرآنية , لا إنها اعتنت بالجوانب البلاغية من خلال النصوص القرآنية , مثل القراءات القرآنية والصورة السمعية في القرآن والمحاكاة الصوتية في القران والإيقاع الصوتي ودلالته في القران , وهناك دراسات أخرى , مثل جرس الألفاظ , والصوت والمعنى في الدرس اللغوي عند العرب في ضوء علم اللغة الحديث , واخر كتاب صوتي بحسب اعتقادي صدر سنة 2000 , هو الصوت اللغوي في القران الكريم للدكتور محمد حسين على الصغير , وقد حاولت هذه الدراسات الحديثة دراسة الصوت , في ضوء التطورات العلمية المعتمدة على الأجهزة الحديثة , مستندين بذلك على جهود العلماء العرب القدماء وتقسيماتهم للأصوات واظن أنّ هذه الدراسات قد تناولت الفن البلاغي بشكل موسع , لكنها لم تركز على الصوت البلاغي الذي ورد في كتب علماء البلاغة القدماء , ويرى الباحث أن الجهود الصوتية كانت منتشرة في كتبهم بحاجة إلى لملمتها وتوحيدها في دراسة مستقلة يبين فيها جمالية الصوت من خلال استخلاصه من صفحات هذه الكتب وإظهاره في حلية جديدة , وهذا ما سعينا من اجله لحفظ الجهد الصوتي البلاغي لعلمائنا العرب , وهذه الدراسة دراسة جديدة جديرة بالعناية ، لأنها خطوة في مسيرة أسرار البلاغة العربية , ولبنة في بناء صرح النظرية البلاغية الصوتية على صعيد جديد ، أرجو أن أكون قد قدمت بذلك جهدا" صوتيا" لتراثنا البلاغي ينتفع به الناس , ولا ادعي لرسالتي الكمال والاستيعاب الشامل , الكمال لله وحده .

الرموز المستخدمة في البحث ودلالاتها

ت	الرمز	دلالته.
1-	تح	تحقيق .
2-	تر	ترجمة .
3-	(...)	ما بين القوسين كلام تركه الباحث .
4-	د . ت	دون تأريخ.
5-	د.ط	دون طبقة.
6-	*	مصطلح أو كلمة بحاجة إلى تعريف أو توضيح .
7-	(هـ)	توفي السنة الهجرية
8-	(( ))	نقل نص .
9-	( )	توضيح كلمة أو مصطلح .
10	نفسه	المصدر نفسه

إقرار لجنة المناقشة

نشهد نحن أعضاء لجنة المناقشة إننا قد اطلعنا على الأطروحة المقدمة من قبل الطالب حسن احمد مهاوش العزاوي الموسوعة بـ ((الجهود الصوتية في كتب البلاغة العربية , من القرن الثالث حتى القرن السابع الهجري)) . وقد ناقشنا الطالب في محتوياتها وفيما له علاقة بها ونعتقد إنها جديرة بالقبول لنيل درجة دكتوراه فلسفة في اللغة العربية – أدب بتقدير ( )

الإمضاء
الإسم
عضوا
التاريخ / / 2003

الإمضاء
الإسم
رئيس اللجنة
التاريخ / /2003م

الإمضاء
الإسم
عضواً
التاريخ / / 2003

الإمضاء
الإسم
عضواً
التاريخ / /2003

الإمضاء
الإسم
عضواً
التاريخ / / 2003

الإمضاء
الإسم
المشرف عضواً
التاريخ / /2003

صدقها مجلس كلية التربية -ابن رشد - جامعة بغداد

الأمضاء :

أ.د.عبد الأميرعبد حسين دكسن

عميد كلية التربية / ابن رشد

جامعة بغداد

التاريخ / /2003

اشهد أن إعداد هذه الأطروحة جرى تحت إشرافي في كلية التربية ابن رشد ـ جامعة بغداد وهي جزء من متطلبات نيل درجة دكتوراه فلسفة في اللغة العربية – أدب .

المشرف

أ.د.أ احمد شاكر غضيب

الأمضاء

/ / 2003 .

بناء" على التوصيات المتوافرة ارشح هذه الأطروحة للمناقشة

المشرف على الدراسات العليا

الإمضاء

التاريخ / /2003

رئيس قسم اللغة العربية

أ.د. عبد الرحمن مطلك الجبوري

الإمضاء

التاريخ / /2003

المحتويات

ت	الموضوع	رقم الصفحة
1-	المقدمة	1-5
2-	مدخل الدراسة , الصوت واثره في الدرس البلاغي	6-23
3-	الباب الأول :- أقسام الأصوات اللغوية الفصل الأول : الأصوات اللغوية في كتب البلاغة العربية	24-67
	المبحث الأول :- دراسة الصوت اللغوي . المبحث الثاني :- أصوات الحروف . المبحث الثالث :- لفظ المفردة بين الفصاحة والبلاغة صوتيا". المبحث الرابع:- التركيب الجملي واثر الأصوات فيه .	24-32 33-43 44-50 51-59
4-	الفصل الثاني : الجهود الصوتية في اللفظ والمعنى .	68-98
	المبحث الأول: نعت الألفاظ صوتيا" . المبحث الثاني : جزالة اللفظ الحوشي والوحش من الألفاظ البعد الصوتي في طوال اللفظة وقصرها . المبحث الثالث : موسيقى الألفاظ والإيقاع على المستوى الصوتي والتنغيم الصوتي .	60-71 72-82 83-90
5-	الباب الثاني:- التناسق الصوتي : الفصل الأول: التلاؤم الصوتي في كتب البلاغة العربية .	99-139
	المبحث الأول: التلاؤم الصوتي وجمالية الصوت. المبحث الثاني : التكرار والفاصلة. المبحث الثالث: الفضاء الصوتي في الشعر , والقافية الصوتية .	91-107 108-120 121-131

ت	الموضوع	رقم الصفحة
6-	الفصل الثاني :المحسنات الصوتية في كتب البلاغة العربية .	140-180
	المبحث الأول: التوازن الصوتي واثره في البلاغة العربية .	132-146
	المبحث الثاني : المقابلات الصوتية .	147-157
	المبحث الثالث : الجناس الصوتي .	158-172
7-	الفصل الثالث :- دلالة الألفاظ في كتب البلاغة العربية .	181-218
	المبحث الأول : الألفاظ الدالة على الأصوات .	173-181
	المبحث الثاني : الدلالة الصوتية .	182-199
	المبحث الثالث : الدلالة النفسية .	200-206
	المبحث الرابع: الدلالة الإيحائية .	207-210
8-	الخاتمة والنتائج .	219-221
9-	المصادر والمراجع	222-233
10-	الاطاريح والرسائل الجامعية	234-235
11-	ملخص الأطروحة باللغة الإنكليزية	**1-2**

n

المقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم خاتم النبيين وعلى اله واصحابه أجمعين , أما بعد :

فتقوم في نفس الإنسان والحيوان حاجات أو قناعات أو أحوال يعبر عنها بأصوات لها آلية خاصة , خلقها الله تبارك وتعالى , لأداء هذه الوظيفة , وظيفة أخرج الأصوات المعبرة عن حاجات أو حالات , وقد جعل الله الإنسان القدرة على تقطيع هذه الأصوات لتكون حروفا" وكلمات وعبارات تفرح النفوس وتحزنها .

وان أصوات لغتنا العربية ومن خلال تاريخها الطويل ظاهرة تثير الإعجاب والدهشة إذا ما قورنت بما يحدث لأصوات اللغات العالمية الأخرى ...

فمن السمات الأساسية التي اتسمت بها اللغة العربية واحتفاظها بأنسابها اللغوية وبأصواتها فلم يصيبها من التغيير ما أصاب سائر اللغات الأخرى والسبب في ذلك يعود إلى سعة مدرجها الصوتي .

فقد اعتمد العربي ومنذ وقت مبكر على حاسة السمع وحده في تمييز الأصوات ، ولجأ إلى ربط الألفاظ فيما اتصل منها في كلامه ربطا" وثيقا" أدى إلى ظهور تلك الأصوات المعبرة , وبعد نزول القران الكريم , بدأ العلماء يتناولون بالدرس أسلوب القران ويتعرضون لنواحي الإعجاز البلاغي فيه , فأخذت تلك الدراسات تتطور وتنتج النقد الأدبي والبلاغة الشيء الكثير ,' والمتتبع للدراسات البلاغية منذ أوائل القرن الثالث الهجري وما بعده , يرى أنها قد تطورت ، أخذت الفنون الاصطلاحات الصوتية والبلاغية تظهر, فكانت دراسة أسلوب القران يعتمد على البلاغة الصوتية , وكانت البلاغة تعتمد على

الشاهد القرآني لتستعين به في توضيح الاصطلاحات وتثبيتها في الذهن إلى جانب الشواهد الشعرية والأدبية الأخرى .

وربما سائل يسأل لماذا القرن الثالث الهجري نقول ولا نعدو الحقيقة إن هذا القرن قد تميز بكونه من اخصب القرون في تأريخ البلاغة والنقد .

الأدبي بل من العلوم العربية الأخرى , فقد لمع فيه رجال أفذاذ يعدون بحق من مفاخر الأمة العربية في عهودها العلمية المزدهرة , اذا انتجبوا بحوثا" وكتبا" فريدة في أبوابها وقد بقيت مصدر إشعاع لكل الدراسين والمتخصصين في علوم العربية , وقد قطعت البلاغة والنقد في هذا القرن , خطوة واسعة نحو التجديد في البحث الموضوعي في الدراسات البلاغية والصوتية .

وبلغت حركة التدوين والتآليف ذروتها وظهرت كتب في التفسير والبلاغة والادب والتاريخ , تحمل تراثا" ضخما" حافلا" بكل طريق , شكلت فيه البلاغة العربية , ركيزة اساسية من ركائز اللغة العرية , فضلا" عن العلوم الاخرى .

ولهذه الأسباب وغيرها أخترت ان اختار عنوان أطروحتي هذه مطبقا" المنهج الموضوعي التحليلي ومستفيدا" من بقية المناهج الأخرى .

أما الكتب التي اعتمدت منها كتب لغوية فيها لمحات بلاغية صوتية , مثل كتاب العين وكتاب سيبويه وكتاب الخصائص لأبن جني , والكتب الأخرى البلاغية منها كتاب البيان والتبيين للجاحظ (255هـ) وكتاب البديع لأبن المعتز (296هـ) وكتاب نقد الشعر لقدامه بن جعفر (337هـ) وكتاب الصناعتين ,لأبي هلال العسكري (395هـ) أي في نهاية القرن الرابع , وفي هذا الكتاب ينتقد العسكري ما في كتب الجاحظ من نقص وعدم الترتيب , وما عمله أبو هلال في القرن الرابع , عمل مثله في القرن الخامس ابن رشيق القيرواني (456هـ) في كتابه (العمدة) مستفيداً من جهود الذين سبقوه ، ثم يأتي عالم بلاغي في القرن نفسه هو ابن سنان الخفاجي (466هـ) فألف كتابه (سر الفصاحة) الذي يوضح فيه حقيقة معرفة الفصاحة تفيد في ناحيتي , وفي الثاني أنها كانت في مقدورهم ومن جنس فصاحتهم ، وتحقيقا" لها تبين الفائدتين , بحث ابن سنان بحثه الشامل في أصوات اللغة في فصاحة المفرد المركب وفي نعوت الكلام البليغ .

أما عبد القاهر الجرجاني (471هـ) الذي عاصر ابن سنان لكنه اختلف عنه في خصائص نظم الكلام واسرار بلاغته ويضع في كلتا الناحيتين نظرية جامعة يعتمدهما ويشرحهما ويطبقها ويجيب على ما قد يوجه اليها من اعتراضات في كتابة (دلائل الاعجاز) ويشرحها (واسرار البلاغة) , وهذان كتابان هما الاساس الذي قامت عليه المناهج البلاغية في عهودها المتأخرة . واذا عبرنا القرن الخامس يصادفنا في اواخر القرن السادس وبداية القرن السابع الهجري , عالمان بلاغيان جليلان لهما جهود كبيرة في الدراسات البلاغية , هما السكاكي (626هـ) ، في كتابه المعروف (مفتاح العلوم) , معاصرة , ضياء الدين أبن الاثير (637 هـ) وكتابه القيم ، (المثل السائر في ادب الكاتب والشاعر) وهو كتاب جامع المسائل هذا العلم ، حافل بالطريف من التحليل الفني للنماذج الأدبية والبلاغية .

وبعد انتهاء القرن السابع , اتجهت الدراسات البلاغية ، إلى التلخيصات ، والشروحات على كثرتها ، ولم تقدم للدراسات البلاغية ، اية فائدة ايجابية ، بل وقفت حيث انتهى السكاكي ، يبدو أن اكثر اولئك الشراح والمخلصين ، كانوا من طائفة المعلمين , فوقف نشاطهم عند التدريس ، وكان اسلوبهم هو أسلوب التقرير , الذي لايعدوا , ذكر الكلمة ، او العبادة من الاصل ، ثم اتباعها بالشروح وتبين المراد منها ، ولذلك ولا تعد هذه الكتب الكثيرة مؤلفات بالمعنى الصحيح للتأليف ، الذي نجد فيه الفكرة الخاصة او المنهج المختلف عن مناهج الغيرة ، وهذا بدل اقوى دللته على وتحجرها وفقداتها القدرة على التجديد والابتكار .

رافقت الباحث بعض المشاكل منها شحة المصادر الحديثة وقلتها بسبب الحصار الظالم على قدرتنا ، وهناك مشاكل أخرى استطعنا بفضل الله تجاوزها ، واظهار هذه الدراسة العلمية بشكل اللائق .

وقد اقتضاني هذا البحث ان نقسم موضوعاته على خمسة فصول موزعة على بابين ومدخل الدراسة ,، الذي تكفل ، بدراسة الصوت واثره في الدرس البلاغيون ، فضلاً عن الدراسات القرانية وجهود العلماء العرب الصوتية التي ذكرها البلاغة في كتبهم .

أما الباب الأول :- فكان نصيبه , فصليين , الفصل الأول بعنوان ، الأصوات اللغوية في كتب البلاغة العربة ، ألحقت به ، أربعة مباحث ، بعالج الأول منها دراسة الصوت

اللغوي , وجهاز النطق وعيوبه , وفي المبحث الثاني سلط الضوء على دراسة أنواع الحروف واصواتها وعلاقة هذه الحروف فيما بينها ، وقد عمد المبحث الثالث إلى تحديد دراسة اللفظة المفردة صوتيا ، فظلاً عن دراسة الفصاحة والبلاغة ، مستندين على جهود علماء البلاغة بهذا الخصوص .

اما البحث الرابع , فاشتمل على أساليب التركيب واثر الاصوات فيه ، وما بذله علماء البلاغة من جهود محكمة صاغت هذه الأساليب وانتضمتها في سياق الكلام .

أما الفصل الثاني ، فقد القى بظلاله على الجهود الصوتية في اللفظ والمعنى , ونعت هذه الالفاظ صوتيا" ، واظهار الميزة الجمالية لهذه الألفاظ .

وميزت الجهد العربي البلاغي في صياغة رؤية جمالية امتازت بالعمق والابتكار ومن خلال منظور عربي أصيل وقفنا عند ظاهرة اللفظ والمعنى وما بذله علماء البلاغة من جهد وتحليل ونقاش اغنت هذه المسألة كثيراً .

وفي المبحث الثاني ، مررنا بجزالة اللفظ ومعرفة الحوشي والوحشي لهذه الألفاظ , وفرقنا بين البعد الصوتي في طول الفظ وقصرها .

وفي المبحث الثالث انتهينا عند موسيقى الألفاظ في إيقاعها الصوتي ونغماتها الجميلة ، وما بذله علماء البلاغة من جهود .

أما الباب الثاني ، ففيه ثلاثة فصول ، الفصل الأول بعنوان ، التلاؤم الصوتي في كتب البلاغة ، في المبحث الاول ودرس التلاؤم الصوتي ، وما يسببه هذا التلاؤم من انسجام بين الاصوات في اظهار جمالية الصوت ، اما المبحث الثاني فأختصر على التكرار الصوتي والفاصلة الصوتية ، وما ذكره علماء البلاغة في مباحثهم لأنه صورة من صور التناسق الجمالي والانسجام الصوتي .

وركز الباحث في المبحث الثالث على ما بذله العلماء العرب من جهود حثيثة في القضاء الصوتي في الشعر والقافية الصوتية في هذا الفن الراقي الذي شغل قديماً وحديثاً.

وفي الفصل الثاني , كانت لنا وقفة تأمل عند المحسنات الصوتية البديعية التي عني بها علماء البلاغة منذ وقت مبكر ، في المبحث الاول منها ، درس التوازن الصوتي واثره في البلاغة العربية ، وفي المبحث الثاني ، درست المقابلات الصوتية من طباق وتضاد ،

والمبحث الثالث ، اشتمل على التجانس الصوتي وبيان جمالية هذا التجانس ، في المخالفة والمماثلة ، فضلاً عن الجهود الصوتية في المحسنات اللفظية .

وكان الفصل الثالث ، عنوانه ، دلالة الالفاظ ، ركز الباحث في المبحث الاول ، على الالفاظ التي تدل على الاصوات ، مركزاً على دلالة اللفظية من وجهة نظر بلاغية صوتية وقيمتها اللفظية ، وفي المبحث الثاني الذي هو قريب من الاول ، لكنه يختلف في الجرس والنغمة والصدى والايقاع وفي دلالته الصوتية .

أما المبحث الثالث ، فقد اشتمل على الدلالة النفسية ، التي تثير في النفس البشرية البهيجة والراحة النفسية من جهة ، وتثير فيها الرعب والخوف من جهة اخرى ، وهذه الدلالة شغلت بال علماء البلاغة وغيرهم ، ولما لها من تأثير وشعور نفسي داخلي .

أما المبحث الاخير فهو ، الدلالة الايحائية ، والتي توحي من خلال مدلولها لسامع ، باصوات ايحائية مؤثرة في النفس ، سواء اكانت من قرب ام من بعد ، فهي المقياس الفني لتقدير قيمة اللفظ ، بقدر ما ينتجه ذلك اللفظ من إيحاءات خاصة به .

ثم انهى الباحث دراسته بخاتمة تخص ما جاء في ثناياها من افكار ونتائج وبعدها ، وملخص الأطروحة باللغة الإنكليزية .

وبعد يرى الباحث ان هذه الجهود الصوتية ، التي بذلها أسلافنا ، جديرة بالبحث والتنقيب لأستخلاص ما حوت من اصول تصلح ان تدرس البلاغة على اساسها ، فهذا البحث اولى واجدر حتى لا تنفد صلتنا بالماضي ويندثر تراثنا البلاغي الاصيل ، وأخر دعوانا الحمد لله رب العالمين **(رَبَّنَا لا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْراً كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلا تُحَمِّلْنَا مَا لا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلانَا فَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ)**

مدخل الدراسة

الصوت وأثره في الدرس البلاغي

ملامح نشأة الصوت :-

نود أن نشير من خلال هذا المدخل أنه أتجه فريق من دراسي اللغة الى التفكير الصوتي المحض واكثروا في الكلام على أصل نشأة الصوت ، فكانت لهم بذلك آراء منها رأي القائلين بمحاكاة الأصوات الطبيعة وواقع اللغات ، يبرهن على ان كثيراً من اللغات الإنسانية قد أنحدر من تلك الأصوات ، وذكر بعضهم على ان اللغة هي الهام من الله سبحانه واما ان تكون من الإنسان ، وذهب آخرون أن سيدنا آدم (عليه السلام) هو أبو البشرية مستندين على قول الله تعالى : ﴿ **وعلم آدم الأسماء كلها** ﴾[1] وهذا الرأي يعد أنضج الآراء على نشأة اللغة التي هي أصوات يتفاهم بها الإنسان مع أخيه الإنسان وما حوله . تاركين بذلك النظريات التي تحدثت عن نشأة اللغة معتمدين على نص الآية الكريمة والرأي القائل بأن اللغة موحاة إلى آدم ، وآدم هو الواضع الأول للغات جميعاً ، ووضع أسماء جميع المخلوقات من إنسان وحيوان وجماد ، أو وضع أسماء ما كان وما يكون إلى يوم القيامة ، أو وضع أسماء النجوم أو أسماء الملائكة .

ثم شاع هذا الرأي عند العرب فقال به من الفقهاء والمحدثين عبد الله بن عباس ومجاهد وقتادة والربيع بن خثيم[2] ، وأستند القائلون بهذا الى قوله تعالى : ﴿ **وعلم آدم الاسماء كلها** ﴾ قال ابن عباس في تفسير هذه الآية التي يتعارفها الناس من دابة وسهل وجبل وحمار واشباه ذلك من الامم [3] وقال به من المتكلمين الاشعري واصحابه ، مستدلين إلى ان الواضع للغات كلها هو الله تعالى بقوله عزوجل : ﴿ **وعلم أدم الاسماء كلها** ﴾ وقال به من الاصولين ناس كثيرون ، وتناول اللغويون هذه النظرية فمال اليها فريق منهم ، وكان أبو علي يقول : هي من عند الله محتجاً بالاية الكريمة ، وقد أيده في هذا القول ابن فارس (395هـ) أيضاً بدلالة قوله : " أن لغة العرب توقيف[4] ودليل ذلك قوله تعالى : ﴿ **وعلم أدم الاسماء كلها** ﴾ كان ابن جني يميل الى هذا الرأي .

وتوالت اجتهادات العلماء عن نشأة اللغة ، فمنهم من ذهب إلى أنه آدم وغيره ، وهم المغزلة ، ويسمى مذهبهم مذهب الاصطلاح ، ومنهم من ذهب إلى أن الواضع جماعة من الحكماء

---

[1] البقرة : 31 .

[2] ينظر/ البحر المحيط : 145/1 ، ينظر تفسير الطبري 170/1 ، ينظر : روح المعاني للالوسي : 145/1 ، المزهر 20/1:

[3] ينظر/ منتهى الوصول إلى علم الأصول ، لبن الحاجب : 20 ، روح المعاني : 188/1 .

[4] الصاحبي ، لابن فارس : 5 ، ينظر: الخصائص : 45/1 ، أبن جني / عالم العربية : 138 / الخليل بن احمد الفراهيدي : 83 ، 84 الفراهيدي عبقري من البصرة : 52 .

أستعانوا على وضع اللغة بالإشارة الى المسميات وتكرارها ... وقالوا : أنسان ، أنسان ، أنسان ، فأي وقت سمع هذا هذا اللفظ علم أن المراد به هذا الضرب من المخلوق . [1]

ومن قال ان اللغة ظاهرة اجتماعية نشأت أول أمرها بمحاكاة الانسان لاصوات الطبيعة ذهب الى ان المناسبة بين اللفظ والمعنى ، لأن اللفظ أنما هو تعبير طبيعي لما سمعه الانسان من أصوات الادميين والحيوانات والاشياء وهذا ما دفع ابن جني (392هـ) الى القول : " وذهب بعضهم الى ان اصل اللغات أنما هو من الاصوات المسموعات ، كدوي الريح ، وحفين الرعد ، وخرير الماء ، وشحيح الحمار ونعيق الغراب ، وصهيل الفرس ، ونزيب الظبي ، ثم ولدت اللغات عن ذلك فيما بعد"[2] ويرى الباحث ان كل اجتهادات العلماء في النشأة الصوتية للغة لم تعتمد على دليل قاطع وانما كانت تحليلات وتكهنات متشتته ونقل اراء بعض العلماء في هذا الشأن .

ولاحظ العلماء ان السن الأمم البدائية تشتمل على مفردات كثيرة تشبه اصواتها اصوات ما تدل عليه .[3] ولهذا امتاز الانسان بنوع معين من اللغة لا يسايره فيه كائن حي آخر ، فأختلاف التتابع الصوتي وتنوعه هو المحدث لكلام ذات الدلالات المختلفة ، وهي تخضع لما يمنحه الإنسان للأصوات من ارتباكات سواء داخل اللفظ أو في داخل العبارة .

وسارت الحياة مدة طويلة بهذا الشكل ، " فأذا كان مطلوباً تحديد قيمة حرف معين مكتوب فمن الضروري ان يعرف كيف كان الصوت الذي يمثله بنطق في عصر معين وقيمته الحالية ، كما نجد ذلك في العربية بين نطق (الضاد) أو (الطاء) القديم ونطقها الحديث " [4] وهذا يعد تطوراً في الأصوات اللغوية .

إذ بدأ الإنسان يفكر في وسيلة لتسجيل موجودات أخرى ، لا صور لها في الطبيعة ، فهو يرسم فكرة الحرب والسلام من خلال رسوم لوازم الحرب ولزوم السلام ، فتعامل مع الكتابة بصورة اجمالية ومباشرة ، فقام يرسم الموجودات التي تحيط به ، دون أن يعرف حروف هذا الرسم ، لم يكن يعرف معنى الأصوات ، فوضع رمزاً لها من معارف البشرية ، على الرغم من ارتباط الاسم بالمسمى ، أو مقرر في كل إنسان أو حرف لغوي ، الى ان انتهى الى استخدام الرمز للصوت المفرد منفصلاً عما عداه من الأصوات ، ثم استطاعوا على استعمال الصور للدلالة على الحرف التي في صور اسمائها ، ثم اختصروا تلك الصور مع مرور الايام ، حتى صارت علامات لا تدل

---

(1) ينظر / الخصائص : 42/1 .

(2) نفسه : 45/1 .

(3) ينظر / الصوت اللغوي في القرآن الكريم : 70 .

(4) في علم اللغة العام : 53 ، ينظر : النظرية اللغوية الحديثة : 68 / الوجيز في فقه اللغة : 61 .

الا على اصوات الحروف ، أي ان العلاقة الصورية قد حملت عدة مدلولات ذات اصوات مختلفة . [1] لذا أن ادراك العلاقة الذهنية بين الصوت وما يشير اليه " كان البداية الاولى في تكوين التفكير الانساني ، ويعني ذلك بالضرورة أن الكلام الانساني قد مر في نشأته بطور أولي ، كان فيه عبارة عن محاكاة لأصوات الحيوانات وظواهر الطبيعة ، لأن تلك المحاكاة كانت بمثابة قرنية تساعد الانسان القديم في الادراك الذهني للعلاقة بين الصوت وما يشير اليه " [2] وبهذا يعني ان الأصوات آخذت تفهم بمرور الزمن ، إذ آخذ الانسان البدائي يميز بين اصوات الحيوانات من أصوات الطبيعة ، وأن الانسان الاول قد نطق في نطقه البدائي من ثنائيات صوتية ردد فيها الأصوات الطبيعية في حروف اصبحت مع مرور العصور جذوراً مشتركة بين المجموعات البشرية ، ولاشك أن الأصوات التي عبر بها الإنسان عما استجد في حياته قد تألفت تأليفاً يميزها من التأليف الاول ، ولولا ذلك لا لتبست عليه المعاني وتعذر التفريق بينها وفقدت اللغة قيمتها في التعبير عن الاشياء بشكل ميسر .

فقد تطورت الاصوات اللغوية تحكمه عوامل عدة ترتبط ارتباطاً وثيقاً بحياة الانسان والحضارة الانسانية ، فالاختلاف الخلقي في أعضاء النطق بين الاجيال المتباعدة وأخطاء السمع وتعامل الاصوات في الالفاظ المستحدثة أو فيما تجاوره من الفاظ التأليف وأختلاف العوامل النفسية والبيئية ، كل ذلك يؤثر بفعالية ذاتية في الاصوات اللغوية من غير ان يكون اهل تلك اللغة قاصدين تغير اصواتها . [3]

واذا انتقلنا من المرحلة البدائية لتكوين الاصوات الى مرحلة اكثر تطوراً ورقياً من سابقتها وهو عصر ما قبل الاسلام ، فأن المجتمعات البشرية في هذا العصر ، قد تحولت من ساذجة الى متطورة رافق هذا التطور في الاصوات اللغوية وما رافقه من تحول بالعلامات الاجتماعية والمناخ القومي العام ، مما يتطلع على اثره على الظاهرة الاجتماعية ومن ابرزها الاصوات اللغوية ، لأنها أكبر ظواهره التفاهمية والتخاطبية ، فتحولت تدريجياً الى لغة صوتية متطورة في كثير من ابعادها المرتبطة بمجتمعها . [4] وهذا يعني ان العربية لغة قديمة عريقة تمتد جذورها بعيداً في اعماق الزمن.[5]

---

(1) النظرية اللغوية العربية الحديثة : 68 ، 69 .

(2) اصوات العربية بين التحول والثبات : 10 .

(3) ينظر / التفكير اللساني في الحضارة العربية : 54 .

(4) الصوت اللغوي في القرآن الكريم : 24 ، ينظر : البلاغة تطور وتاريخ : 13 .

(5) النقد اللغوي عند العرب : 212 ، ينظر : الوساطة بين المتنبي وخصومه : 19 .

إذ أن الشعراء في العصر ما قبل الاسلام كانوا يعتمدون على الذوق الفطري عند اختيار الالفاظ والمعاني والصور وكانوا يسوقون احياناً ملاحظات في بلاغتنا العربية ، وقد صور لنا ذلك القرآن الكريم الذي جاء بقوله تعالى : ﴿**الرَّحْمَنُ *عَلَّمَ الْقُرْآنَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ *عَلَّمَهُ الْبَيَانَ**﴾[1] فقد كان العربي القديم قد عبر عن شؤونه بشكلين : الاول انشادي نثراً وشعراً ، الثاني المشافهة برسم المنشد بعض خوالجه النفسية عن الوجود ، وبذا يضيف الانسان الى الطبيعة وكأنه يشعر بقصوره فيزيد على نقصه ويبدع فيه المنشد عن بعض وجوه عيشه ويمضي مهتزاً متدفقاً ، فتهب في داخله ومجرى دمه ذكريات ليفضي بها كي يرتاح فلا يجد سوى حركة بعيدة نغماً ايقاعياً وهاجس نفسه لحناً داخلياً فيترنم به . [2]

وساعة وصول الجاهلي إلى مرحلة التجربة الواقعية ملامساً افق الاستيطان والاستقرار تتجلى الى حد ما عن الانشادية الى ما يشبه التركيز الذهني ، لذلك ان قد تدرج من حالة اللامعنى الى ان يكون ذا معنى ، ومن وضع لا واقع إلى عاقل يربط بين ذهنه والاشياء ، فالحرف عنده كائن حي أعلن عن ولادة العقل والتدرج في سبيل الحضارة ومراقبها متجاوزاً الحركة الطفيفة المجردة لهذا الحرف الذي سكن قرية اسمها الكلمة .[3] فهذا كله يعتمد على الذوق السليم وفاعلية الصوت واثره في التركيب اللغوي فالتغني والحداء ايقاع والباحثون في اولية الشعر يربطون بين نشأته وبين الترديد الايقاعي وبين استجابة الابل في السير على إيقاعه ، فكان الشاعر في رحلته ينظم الشعر وهو على ناقته متخيراً افضل الأصوات والألفاظ .

وبعد ان اتضحت ملامح الصوت واصبح فيما بعد لغة التفاهم بين الناس والقبائل كانت هناك فروقات لهجية بين القبائل ، وللعرب لهجات كثيرة منها الرديء المنكره الذي تعزف عنه النفس وينفر منه الطبع ، ومنها الفصيح المقبول الذي يحسن وقوعه في السمع ويختلف نطقه على اللسان ، لقد كان الكلام (الصوت) هو أعز ما يملك الإنسان في التعامل مع غيره والتفاهم مع بني جنسه وحتى في مناجاة الهته في عباداته ، وعندما ، كثرت الشعوب والقبائل ، فقد اختلفت اللهجات واللغات ، ونشأت الاشارات والرموز وسيلة أخرى للتفاهم ، والإنسان على قمة المخلوقات جميعاً يستعمل الكلام في أوسع مجالاته في نقل افكاره وارائه في كل الظروف والمناسبات والاوقات ، لقد احتاج الانسان الاول الكلام للتعبير عن نفسه ، ولكن الكلمات لم تسعفه فقد كان ذكاؤه من مقدرته الكلامية .[4] فكانت بين القبائل العربية فوارق لهجية واضحة المعالم ، وهو أنّ اللهجات العربية صدرت عما يشبه في وقتنا الحاضر المجاميع العلمية ،

---

(1) الرحمن : 1-4 .

(2) مجلة الضاد : جمهورية العراق – الجزء الثالث ، تموز /1989 : 451 .

(3) ينظر / نفسه : 464 .

(4) ينظر العمدة : 313/1 / مقالات في الشعر الجاهلي ، 75 / لغة الهمس : 77 .

فكانت القبائل العربية منتشرة على الجزيرة العربية الواسعة المترامية الاطراف وكان من العسير الاتصال بقبائل البدو الراحل في قلب الجزيرة العربية ، وهناك من رأى ان الفصحى قد تطورت من لهجات البدو في نجد واليمامه ومنها قد تغيرت كثيراً عن اصلها بتأثير الشعراء.[1]

إنّ اللهجات البدوية القديمة في الجزيرة العربية لا تستوعب الحياة اللغوية قبل ظهور الاسلام ، فالشعر العربي الجاهلي وصل الينا بلغة موحدة او تكاد تكون موحدة ، فهو يمثل وحدة الامة العربية بجميع افكارها ، فاذا كان ثمة اختلاف بين شاعر وآخر في اطار المستوى اللغوي فهو اختلاف في اطار اللغة الواحدة ، وهو اختلاف فردي في أطار المستوى اللغوي الواحد ، لقد شارك في نظم هذا الشعر شعراء ينتمون الى قبائل شمالية مختلفة ، كما نظمه شعراء ينتمون الى قبائل من أصل جنوبي كانت قد هاجرت الى الشمال وتعربت بعربية الشمال قبل الاسلام ، ومن اشهر هؤلاء الشاعر امرئ القيس

تســـمع للمـــاء كصـــوت المســـحل بـــين وريـــدها وبـــين الجفـــل [2]

وان قبيلة كندة ذات الاصل الجنوبي ، وكانت هذه اللغة وبأصواتها المشتركة وسيلة للتعبير الادبي عند هؤلاء جميعاً تجاوزت اللهجة القبلية المحلية لتصبح بذلك المستوى اللغوي الذي تلفض حوله القبائل المختلفة .

وفي كثير من الاحيان تمثل الكتابة العربية أصوات اللهجات : كما انها اليوم لا تستطيع ان تصور الخصائص الصوتية للهجات الحديثة ، وهكذا كان النساخ يدونون نطق اللهجات بحروف حدوث قيمتها الصوتية وفق القيم الصوتية للاصوات الفصحى . [3]

وقد اتفق الباحثون على ان لغة قريش العربية هي افصح اللهجات وافضلها واصفاها ، وكانت العرب تحضر المراسم في كل عام وتحج البيت في الجاهلية ، وقريش تسمع لغات العرب فخلت لغتهم عن منبع اللغات ومستبشع الألفاظ ، وأن لغة قريش كانت افصح اللغات العربية ولعل وجود سوق عكاظ بينها كان من أهم العوامل التي ساعدت على الارتقاء بمستوى اللغة وفصاحتها ، ولما كان لقريش نفوذ ديني مرموق ومكانة مقدسة لقيامهم بخدمة البيت الحرام وضيافتهم لكل العرب ، ولنفوذهم التجاري والسياسي بين القبائل والامم ، فلقد طغت لهجتهم على غيرها واحتلت المكانة اللائقة بها واصبحت لهجتهم هي لغة العرب جميعاً فكأنها اكثر تقدماً ونقاوة من سابقتها ،

---

(1) ينظر كتاب الصناعتين : 181 / الدراسات الصوتية واللهجية عند ابن جني : 78 .

(2) اسرار البلاغة : 23 ، المدخل الى علم اللغة ، محمود فهمي حجازي : 244 .

(3) ينظر / المزهر : 175/2 ، ينظر : اللهجات العربية الغربية القديمة ، CHAIM RABIN ترجمة عبد الرحمن ايوب:41.

فنزل القرآن الكريم بها فحفظها وجعلها لغة العرب جميعاً على مر الزمن والعصور [1] ، قال تعالى : ﴿**إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ**﴾ [2]

وتشير المصادر : إلى لهجات الجنوب قبيل ظهور الإسلام كانت شديدة القرب من لهجات الشمال ، فرجال قريش في رحلة الشتاء لم يكونوا في حاجة الى مترجمين للتفاهم مع اخوانهم من عرب الجنوب ، وحين قدم وفد اليمن الى الرسول (صلى الله عليه وسلم) خاطبهم بلهجتهم .[3] وهذا يعني ان اصوات لغة اهل اليمن لم تكن غريبة وغير مفهومة عند الرسول صلى الله عليه وسلم ، وان ملامح المصطلح الصوتي أخذت تتضح كلما تقدمنا خطوة زمنية الى الامام لتصبح نظاماً يقتدى به في تنظيم الحياة اليومية للانسان بعدما كانت اشارات ورموز في بدايتها.

وأذ ما انتقلنا الى العصر الاسلامي رأينا تطور الدراسات الصوتية والبلاغية بشكل مذهل وخاصة بعد نزول القرآن الكريم ، بعدما اصبح للصوت ميزة جمالية وذوق بلاغي يفتخر به العربي بين الامم بعد ظهور الاسلام وبفضل ما نهج القرآن ورسوله الكريم من طرق الفصامة والبلاغة ، أما القرآن فكانت آياته تتلى في أناء الليل واطراف النهار بأصواتها المترامية ، وأما الرسول (صلى الله عليه وسلم) فكان حديثه يديع على كل لسان ، ثم لم يسمع الناس بكلام قط أعم ولا أقصد لفظاً ولا أعدل وزناً ولا أجمل مذهباً ولا أكرم مطلباً ولا أحسن موقفاً ولا أسهل مخرجاً ولا أفصح معنى ولا أبين في فحوى من كلام الرسول صلى الله عليه وسلم [4] ولما سمع ابن المقفع قوه تعالى : ﴿**وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْداً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ**﴾[5] وكان ابن المقفع قد اعد نفسه لمعارضة القرآن ، قال هذا والله مالا يستطيع البشر ان يأتي بمثله لما في الآية الكريمة من بديع اللفظ والبلاغة والايجاز وحسن النظم ما هو خارج عن طرق البشر مع ان الفاظ الاية سهلة النطق عذبة الجرس ، لها رنين موسيقي يستولي على كل احساس ، ومن الروعة والمهابة في حال اخرى ، ولهذا اسلم جبير بن مطعم لما سمع قراءة النبي صلى الله عليه وسلم حتى انتهى الى قوله تعالى : ﴿**إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ**﴾[6] ، قال خشيت ان يدركني العذاب ، وفي لفظ آخر ، كان قلبي يطير فأسلم ، وهذا سببه فاعلية

---

(1) لغة الهمس : 61 ، ينظر : المحتسب : 343/1 .

(2) يوسف : 2 ، ينظر سر صناعة الاعراب : 318/1 .

(3) ينظر / الوجيز في فقه اللغة : 134 ، ينظر : أبن جني عالم العربية : 125 .

(4) البيان والنبيين :17/4 ، ينظر : البلاغة تطور وتاريخ : 13 / ثلاث وسائل في اعجاز القرآن : 33 .

(5) هود : 44 ، ينظر ، القرآن الكريم المعجزة الخالدة ، بحث للدكتور أحمد عبد الرحيم الزقة :195 .

(6) الطور : 7 .

الصوت وأثره البليغ في نفس المتلقي ، وهناك شواهد كثيرة منها أن عمر لما سمع سورة طه أسلم . [1] وكذلك حذرت قريش من الاستماع إلى النبي صلى الله عليه وسلم وهو يقرأ القرآن ، ووضع الطفيل بن عمرو الدوسي ، كرسفاً في أذنيه حين غدا الى المسجد خلة ان يبلغه شيء من كتاب الله ، وبكته قال في نفسه : (وأنكل امي ، والله اني لرجل لبيب شاعر ما يخطى علي الحسن من القبيح ، فيما يمنعني ان اسمع من هذا الرجل ما يقول ؟ فأن كان الذي يأتي به حسناً قيلته وأن كان قبيحاً تركته) [2] فسمع صوت القرآن وأسلم ودعا اهله وعشيرته الى الاسلام .

وان اللغة العربية ما كانت تطمع في ان يتعدى سلطانها جزيرتها فتضرب الذلة على لغات نمت في احضان الحضارة وترعرعت بين سمع المدينة وتستأثر دونها بالمكان الاسمى مما لك ما كان العربي يحلم ان يحيا بها فضلاً ان تكون السيد المتصرف فيها ولكن القرآن انتزعها من احضان الصحراء واتاح لها ملكاً فسيح الارجاء تأخذ منه لالفاظها ومعانيها واغراضها واسلوبها ما لم تمكنها منه حياتها البدوية ، فبعد ان كانت ثروتها في حدود بيئتها اصبحت غنية في كل فنون الحياة ، فأقبل الناس عليها ، وأنصرفوا اليها مدفوعين بالحاجة الى التفاهم مع اوليائهم من العرب . [3]

وهذا لم يكن الا لعذوبة اصوات حروفها وسهولة النطق بها ، فالمتكلم يلاحظ مواقع بعض الكلم من بعض ويستعين بشرحها ، والبليغ يدرس الاساليب العربية وينظر في معاني المفردات اللغوية حتى يأتي له الذوق الخالص ، وقد ذاق المسلمون الاولون حلاوة صوت القرآن ، تلك الحلاوة التي لم يجدوا لها شبيهاً فيما يقع اللسان من مذاقات الشراب والطعام ، وفيما تجد الاذن من نغمات الاصوات والالحان ، وما شآن هذا الكلام الذي لا يمله اللسان ولا تسأمه الاذن ولا يضيق به الصدر ، أنه كلام مما جرف به السنة العرب بحروفه وكلماته ، حتى أذا تلقاه الرسول (صلى الله عليه وسلم) قرأناً يوحى اليه ، وجد الناس لكلماته شأناً غيرما عرفوا من كلام وما سمعوه من صوت منظوم ومنثور ، وماذا في هذا الصوت القرآني من جديد لم يعرفه العرب ولم ينطقوا به من قبل ، أن كلمات القرآن كلمة كلمة كانت معروفة للعرب ، جارية اصواتها على السنتهم في شعرهم ونثرهم .[4]

---

(1) البرهان في علوم القرآن : 106/2 .

(2) السيرة النبوية : 383/1 ، ينظر مجلة الضاد : 10 .

(3) ملامح من تاريخ اللغة العربية : 74 .

(4) اعجاز القرآن الكريم : عبد الكريم الخطيب ، ينظر مجلة الضاد بحث للدكتور احمد مطلوب سنة 1989 : 11 .

ومن هنا يتضح ان الصوت اصبح ملازماً للبحث البلاغي في الحكم على النصوص الادبية وهذا يمثل جهداً صوتياً قي البلاغة العربية التي عنيت بالصوت بعد ان كانت في اول امرها ملاحظات جزئية ثم تحولت الى مصطلحات في كتب البلاغة العربية التي شكلت فيما بعد البحث البلاغي .

يقول عبد القاهر الجرجاني (471هـ) في تعقيبه على الاعجاز القرآني : " حين سمعوا القرآن ، سمعوا كلاماً لم يسمعوا قط مثله وأنهم ورازوا انفسهم فأحسوا بالعجز من ان يأتوا بما يوازيه او يدانيه او يقع قريباً منه حتى خرست الالسن عن ان تدعي وتقول " [1] وهذا هو السبب الذي وضع عبد القاهر الجرجاني ان يسمي كتابه (دلائل الاعجاز) وقد وردت في القرآن أيات كثيرة تتحدث عن اهمية الصوت وتمايز فيما بينه في سياق هذه الايات ، فجاء في قوله تعالى : ﴿**ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ**﴾ [2] فعقب ابن الاثير (639هـ) على الآية الكريمة بقوله : " فنسيه القول الى السماء والارض من باب التوسع لأنها جماد والنطق انما هو للانسان لا للجهاد" [3] وقال تعالى : ﴿**وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ**﴾ [4] يقول الزمخشري (538هـ) وهو مفسر وعالم بلاغي كبير : " وأغضض من صوتك" وانقص منه واقصر ، (انكر الاصوات) أوحشها من قولك شيء نكر ، اذا انكرته النفوس واستوحشت منه ونفرت ، والحمار مثل في الذم البليغ والشتيمة وكذلك نهاقه ، ومن العرب من لا يركب الحمار استنكافاً وأن بلغت منه الرحلة ، فتشبيه الرافعين اصواتهم نهاقاً مبالغة شديدة في الذم والتهجين وافراط في التثبيط عن رفع الصوت والترغيب عنه وتنبيه على انه من كراهة الله بمكان فان قلت : لم وحد صوت الحمير ولم بجميع ؟ قلت وهذا كلام الزمخشري : " ليس المراد ان يذكر صوت كل واحد من آحاد هذا الجنس حتى يجمع ، وأنما المراد أن كل جنس من الحيوان الناطق له صوت وانكر اصوات هذه الاجناس صوت هذا الجنس فوجب توحيده" [5] فأن الله سبحانه وتعالى قبح صوت هذا الحيوان وميزه عن بقية الاصوات ، وقال تعالى : ﴿**يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لا عِوَجَ لَهُ وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْساً** ﴾ [6]

---

(1) دلائل الاعجاز : 39 ، ينظر : ثلاث رسائل في اعجاز القرآن : 124 .

(2) فصلت : 11 .

(3) المثل السائر : 81/2 ، ينظر : تأويل مشكل القرآن : 78 ، 83 .

(4) لقمان : 19 .

(5) الكشاف : 234/3 .

(6) طه : 108 .

والصوت الذي ورد في هذه الآية الكريمة يختلف تماماً عن الصوت في الآية السابقة لانخفاضه وعدم ارتفاعه ، (وخشعت الاصوات للرحمن) أي خضعت الاصوات بالسكون والهدوء لعظمة الرحمن ، (فلا تسمع الا همساً) وهو صوت الاقدام ، أي لا تسمع من صوت اقدامهم الا صوتاً خفيفاً كما يسمع من وطيء الابل وقيل الهمس اخفاء الكلام.[1]

كان الصوت اكثر خصوبة في العصر الاسلامي وذلك بفضل القرآن الكريم فأقبل عليه الناس يتلقفونه من السنة المسلمين وهم يستمعون الى هذا الصوت الجميل الذي لم يعتادوا ان سمعوا صوتاً مثله من قبل ، فأزداد اقبال الناس الى استماع القراءات القرآنية التي اعتمدت على الصوت ومخارج الحروف اعتماداً كبيراً ، وهذه القراءات تعد مصدراً غزيراً من مصادر اللهجات العربية القديمة ، لما تضمنته من مادة بينت الفروق اللهجية التي كانت تشيع في تلك المرحلة من تاريخ اللغة العربية ، وأحتوت القراءات القرآنية طائفة من الفروق الصوتية والصرفية والنحوية والبلاغية والدلالية ، إلا ان أغزر مجال مثل الواقع اللهجي فيها هو مجال الصوت ، وقد تنبه عدد من الباحثين الى اهمية القراءات القرآنية .

قال تعالى : ﴿**اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ** ﴾[2] .

هذه الآية الكريمة هي أول صوت سماوي سمعه الرسول صلى الله عليه وسلم ، وأول قرآن نزل عليه .[3] وعن ابي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " ان الله تعالى قرأ طه ويس قبل ان يخلق آدم عليه السلام بالفي عام ، فلما سمعت الملائكة القرآن قالوا طوبى لأمة نزل هذا عليها ، وطوبى لاجواف تحمل هذا ، وطوبى لألسن تتكلم بهذا "[4] وان هذا الحديث النبوي الشريف يدحض كل النظريات التي تقول بأن نشأة الاصوات ظاهرة اجتماعية ومحاكاة للطبيعة ، وأعطى الكثير منهم تحليلات وتكهنات واجتهادات فردية لا تستند إلى مصدر ولا على رأي موحد لنشأة الاصوات اللغوية ولأهمية الصوت ، قال النبي محمد صلى الله عليه وسلم (زينوا القرآن بأصواتكم) [5] فهذا النغم الموسيقي الذي يشع من تلاوة القرآن بنغم مصفى من الشوائب التي

---

(1) مجمع البيان في تفسير القرآن للطبرسي : 144/6 .

(2) الفلق : 1،2،3،4،5 .

(3) ينظر / ثلاث رسائل في اعجاز القرآن : 114 ، ينظر / صحيح مسلم بشرح النووي : 168/4 .

(4) مجمع البيان في تفسير القرآن : 81/4 ، الجزء السابع بحسب ترتيب المؤلف .

(5) سنن النسائي ، شرح السيوطي : 2/ 178 – 179 .

تصحب بعض الالحان التي تثير الغرائز ، أو تهيج المنازلة ، وأنما هو الجلال المهيب والروعة الاخذة لهذا الصوت الالهي .

فالاسلوب القرآني هو القاعدة الواسعة التي يجري فيها الصوت القرآني المعجز ، وبعبارة أوضح أننا نسمع صوت القرآن من أي موضع فيه ، أوله أوسطه أو أثناء ذلك أو آخره ، فتقول ما هذا الصوت الذي يرتجف له الجسم ، وتذرف العيون الدموع عند سماعه ، كيف يجري هذا الصوت في كل القرآن ، وما الاسلوب الذي يجري فيه هذا الصوت ؟ إن تزين قراءة القرآن الكريم وتحسين الصوت بها والتطريب عند القراءة أوقع في النفوس واذعن الى الاستماع والاصغاء ، وقد أختلف العلماء في قراءته بالألحان ، منذ القدم الى يومنا هذا بين رافض ومؤيد.

عن ابن عباس رضي الله عنه قال : (كان النبي صلى الله عليه وسلم يرفع صلاته في القرآن ، وكان المشركون اذا سمعوا صوته سبوا القرآن ومن جاء به ، فكان النبي صلى الله عليه وسلم يخفض صوته بالقرآن ، ما كان يسمعه اصحابه ، فأنزل الله عزوجل : ﴿**قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيّاً مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى وَلا تَجْهَرْ بِصَلاتِكَ وَلا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً**﴾ [1] ، ومن هنا يتضح أثر الصوت القرآني في نفوس المشركين عند سماعهم لقراءة القرآن .

وقد أجاز آخرون رفع الصوت في قراءة القرآن والجهر والتطريب به ، لأنه أوقع في النفوس واوسع في القلوب مستندين بذلك إلى قول الرسول صلى الله عليه وسلم : " ما أذن الله لشيء ما أذن لنبي حسن الصوت يتغنى بالقرآن بجهريه " [2] والتغني على وجهين رئيسين الاستغناء به ، هو من الاستغناء ضد الافتقار لا من الغناء ، يقال : تغنيت وتغانيت بمعنى استغنيت .[3] وفي الحديث شبه الرسول صلى الله عليه وسلم ، حسن الصوت وحلاوة نغمه بصوت المزمار ، واصل المزمار الغناء ، قال العلماء : المراد بالمزمار الصوت الحسن واصله آله اطلق اسمه على الصوت للمشابهة . [4]

وعن عائشة رضي الله عنها قالت : " استبطأني الرسول صلى الله عليه وسلم ، ذات ليلة فقال : ما حسبك ؟ قلت : إن في المسجد لاحسن من سمعت صوتاً بالقرآن ، فأخذ رداءه وخرج يسمعه ، فإذا هو سالم مولي ابي حذيفة فقال : الحمد لله الذي جعل في أمتي مثلك " .[5]

---

(1) الاسراء : 110 .

(2) صحيح مسلم ، بشرح النووي : 78/6 .

(3) ينظر / المفردات في غريب القرآن : 366 ، ينظر : اللسان مادة (غنا) 1024/3 .

(4) صحيح مسلم : 168/4 .

(5) سنن النسائي : 180/2 ، أخرجه احمد : 165/6 ، وابو نعيم في الحلية ، 371/1 .

ولقد روى حذيفة بن اليمان ان النبي صلى الله عليه وسلم قال : " اقرأوا القرآن بلحون العرب ، واصواتها ، واياكم ولحون أهل الفسق ، ولحون أهل الكتاب ، وسيجيء بعدي قوم يرجعون القرآن ترجيع الغناء والنواح ، لا يجاوز حناجرهم مفتونة قلوبهم ، وقلوب الذين يعجبهم شأنهم " [1] ، يقول ابن رشيق (456هـ) : " ويقال للرجل والمرأة في القراءة والغناء أنه كندي الحلق ، حسن الصوت طويل النفسي مصيب اللحن " [2] فيتضح لنا من خلال النص الذي اورده ابن رشيق الميزة الجمالية للصوت في القراءة والغناء .

فان احسن الناس صوتاً اذا قرأ رأيته يخشى الله تعالى ، وأن قراءة القرآن لا تجوز الا بأخراج الحروف من مخارجها والمد في موضعه ، والوصل في موضعه من حيث يقتضيه المعنى والوقوف حيث توجيه المعنى ، قال تعالى : ﴿**لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ**﴾ [3] وهذا النص الكريم يدل على ان تلاوة القرآن بتوجيه من الله ، ولننتقل بعد ذلك الى حديث ابي موسى الاشعري وثناه النبي (صلى الله عليه وسلم) وقد روى بعبارات مختلفة منها هذه العبارة التي قالها بعد ان عبر النبي (صلى الله عليه وسلم) باستحسانه بقراءته فقال للنبي صلى الله عليه وسلم : " لو أعلم أنك تستمع لقراءتي لحبرته لك تجبيراً " [4] وقد رويت عبارة ابي موسى الاشعري بنص آخر يوضح الرواية الاولى ولا يخالفه ، انه قال لرسول صلى الله عليه وسلم : أني لو علمت أنك تستمع لقراءتي لحسنت صوتي بالقرآن وزينته ورتلته " [5] فهذه الرواية تدل على أن التحبير والتحسين كان في الصوت لا في القرآن الكريم . ولقد وضع العلماء المقاييس والضوابط التي تميز الترتيل المطلوب في تلاوة القرآن الكريم ، ولم يتركوا الامر فرطاً بل وصنعوا ميزاناً يميز الترتيل المطلوب عن القراءات البعيدة عن الترتيل وهو علم التجويد وعلم القراءات رهناً وتتجلى اهمية الصوت في قراءة القرآن لما فيه من عذوبة ونطق جميل ويستحسن الصوت في القراءات وتبدأ معها الحاجة الى البحث البلاغي الذي ظهر ملازماً للمصطلح الصوتي عند العرب وخاصة في العصر الاسلامي الذي شهد تطوراً واسعاً في الدراسات الصوتية والبلاغية.

ومن خلال ما تقدم فان المصطلح الصوتي البلاغي لم يتضح بعد على الرغم من الجهود الصوتية التي بذلها علماء التفسير والتجويد ، ماعدا أهل القراءات فان لهم بعض الملاحظات في

---

(1) القرطبي : 15/1 ، ينظر : زاد المعاد : 491/1 .

(2) العمدة : 119/1 ، ينظر : المؤتمر الاول الاعجاز القرآني : 98 ، 104 .

(3) القيامة : 16 .

(4) صحيح مسلم : 89/6 ، سنن ابي داود النسائي : 180/2 .

(5) المصدر نفسه : 180/2 .

دراسة الاصوات العربية واصنافها واحكامها من حيث الادغام والإظهار والإخفاء والوقوف والابتداء والمد اللفظي واحكام الهمزة والتسهيل والإشمام وترقيق الاصوات وتغليظها ، وهذا كله يعتمد على الصفة الجمالية للصوت وفي بعض الاحيان على الذوق البلاغي ، الا ان البحث البلاغي كان بحاجة الى دراسة اعمق واشمل ، فشعر العلماء العرب الى عناية بهذا الفن الجميل ، لأن البلاغة جاءت لخدمة القرآن الكريم وركن من اركان الاعجاز القرآني ، ولا ننسى أن الصوت كان ملازماً للاساليب البلاغية ، والالفاظ ما هي الا اصوات تحكم من خلالها على جمالية النص الادبي .

وفي القرن الثاني الهجري نشطت حركة التأليف ، فألف واصل بن العطاء (131هـ) كتاباً في معاني القرآن والفراهيدي (175) الف اول معجم عربي (العين) والذي سنذكره في الفقرة اللاحقة وكذلك تلميذه سيبويه (180هـ) هو الآخر الف كتاباً في النحو سمي فيما بعد (الكتاب) وابن عمر الروسي (125هـ) الف كتاباً في غريب القرآن والفراء (207هـ) الف كتاب معاني القرآن ومعاصره ابي عبيده (210هـ) الف أول كتاب في مجاز القرآن لكن كل هؤلاء العلماء لم يفصلوا القول في المصطلح الصوتي على الرغم من الجهود الكبيرة التي بذلوها في التأليف ، الا أن أول اشارة ذكرت للمصطلح الصوتي عند الجاحظ (255هـ) عندما وصف الصوت بقوله : " هو الة اللفظ والجوهر الذي يقوم به التقطيع " [1] وجرت محاولات من قدامة بن جعفر (337هـ) عندما وقف عند التصريع في كتابه (نقد الشعر) وأتى بلفظتين مسجوعتين في تعريف واحد ، لكنه لم يقف عند المصطلح الصوتي من خلال الامثلة والنصوص التي أوردها ، ألا أن جاء العالم البلاغي ابن سنان (466هـ) مؤلف كتاب (سرّ الفصاحة) وجعل الفصل الأول منه في الأصوات [2] ، وتكلم على الصوت بشكل مفصل ودقيق ذاكراً أصناف الحروف واضعاً شروطاً للفصاحة مستشهداً بالايات القرآنية ومطبقاً بعض الامثلة على النصوص الشعرية ذاكراً النلاؤم والتنافر في بعض النصوص ، ويعد هذا أول جهد صوتي بلاغي موثق وفق عنده ابن سنان وسيأتي ذكره من خلال فصول هذه الأطروحة ان شاء الله .

المنهج الصوتي عند العلماء العرب :

ان الذين سبقوا الخليل وسيبويه نبهوا على أهمية الأصوات ووضعوا ملاحظات أعانت الخليل بن احمد الفراهيدي (175هـ) ، فكانت نواة علم الاصوات الذي شيد صرحه وثبت دعائمه وبناه بما

---

(1) البيان والتبيين : 279/1 ، ينظر : نقد الشعر : 40 .

(2) سر الفصاحة : 5 .

ورثه عن اسلافه ، وما اضافه بفضل ذكائه وفطنته ، كل ذلك جعل القدماء والمحدثين يعدونه ابرز من عني بدراسة الصوتيات بل الواضع الأول لاصولها ، ويعد الخليل بن احمد أول من ذاق الأصوات العربية ورتبها على وفق مخارجها وذكر أصنافها ، وقد اهتدى بعلمه هذا اغلب العلماء من بعده ، وخطا الخليل الخطوة الأولى بدراسة الاصوات اللغوية ، وبدأ هذه الخطوة باعادة ترتيب الحروف ، فقد كانت مرتبة على النحو الذي كان معروفاً من اللغات السامية ، وكانت حروف الهجاء العربية مرتبة في كلمات ليس لها معنى معروف وهي : أبجد ، هوز ، حطي ، كلمن ،سعفص ، قرشت ، ثخذ ، ضظلع ، ثم تغير هذا الترتيب على اساس التشابه في الصورة ، فبدئت ، بالثلاثيات وهي : ب ، ت ، ث ، ج ، ح ، خ ، ثم بالثنائيات وهي : د ذ ، رز ، س ش ، ص ض ، ط ظ ، ع غ ، ف ق ، ، ثم بالمفردات التي لأشباه لها ، وتركت الهمزة حيث كانت في الترتيب القديم متصدرة الحروف لتبعد عن الألف التي هي مد ابدا ، ساكنة ابدا ، والتي لا تكون في الابتداء لسكونها ، واذ فكر الخليل بترتيب جديد يقوم على اساس علمي فقد اهتدى الى ترتيب حروف اللهجاء على حالها من ارتكازات في جهاز النطق هي أولى المدارج [1] ، واهم ما توصل اليه الخليل في علم الاصوات حصره للمعجم العربي بابعاد صوتية ، فضلاً عن وصف الاصوات منفردة ومجتمعة ومنظمة والى سواها ، ومن أحسن ما عرض له العربي في دراسة الاصوات ما نجده عند الخليل ، من وصف الجهاز الصوتي ، وهو الحلق والفم الى الشفتين ، وتقسيمه اياه الى مناطق ومدارج يختص كل منها بحرف او مجموعة حروف وما اشار اليه من ذوق الحروف لبيان حقيقة المخرج . [2] أن الخليل كان ينظر الى اللغة على انها ظاهرة اجتماعية ، فلابد ان تخضع لها الظواهر الاجتماعية الاخرى ولابد ان تدرس دراسة علمية طبيعية قائمة على الاستقرار والتجربة .

وقد افاد الخليل من استخراج الصفات ووضع تلك الأسماء اشياء اخرى تتصل بالبناء العام للكلمة العربية حين تتألف الحروف بعضها مع البعض ، وزاد هذه الدراسة أهمية معرفته بالنغم واصول الموسيقى ، وقد هدته هذه المعرفة الى ان اللغة أصوات موسيقية وان الموسيقى مظهر من مظاهر المزاج عند كل امة ولابد ان تختلف اللغات بحسب ما للامم المختلفة من امزجة خاصة ، ولاحظ ان ما قد يتلاءم مع انه لا يتلاءم مع امة اخرى ، وكان له من دقة الملاحظة ان أدرك ان الاذن العربية قد تستسيغ اصواتاً معينة لا يستبقها غيرها وان اللسان العربي ينطق بتركيب خاص

---

[1] العين : 47/1 ، ينظر : الفراهيدي عبقري من البصرة : 36 ، الاصوات اللغوية : 65 ، الصوت اللغوي في القرآن الكريم : 41 ، ابحاث ونصوص في فقه اللغة : الدكتور رشيد العبيدي : 190 .

[2] مجلة الضاد ، 92 ، 93 ، ينظر : أصوات العربية بين التحول والثابت : 15 ، النظرية اللغوية الحديثة : 43، 44.

لا ينطلق به لسان غيره ، وان العرب قد يأبون تاليفاً خاصاً لايأباه غيرهم كصوت (الضاد) الذي هو صوت عربي خالص امتازت به العربية حتى اضيفت اليه وسميت لغة (الضاد) وكصوت (الظاء) الذي يرى الخليل انه حرف عربي خص به اللسان العربي لا يشاركه فيه احد من سائر الامم . [1]

وما ذكره الخليل أن (العين) لا تأتلف مع (الحاء) في كلمة واحدة ومرجع الصعوبة في ائتلافها كما نص عليه هو تقارب مخرجها وتلاصقها ، فلولا بحه في (الحاء) لاشتبهت (بالعين) لقرب مخرج (الحاء) من (العين) اللهم الا اذا كانت (العين) في كلمة و (الحاء) في كلمة اخرى.[2] ولاحظ الخليل ان بعض الحروف اشد من بعض واقوى منه جرساً ، وأذا اجتمع في كلمة حرفان ، احدهما قوي الجرس والاخر ضعيف وتجاورا قدموا الاقوى منهما كما فعلوا في (وتد) و (ورل) ولم تستعمل عندهم كلمة فيها (الدال) مقدمة على (التاء) أو (اللام) مقدمة على (الراء) وقد أيد أبن دريد هذا بقوله : " ليس في كلامهم لر " [3] وقد قبلت (اللام راء) في قوله تعالى : ﴿**كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ** ﴾[4] وقلبت اللام الى جنس الحرف الذي يليها اذا كان هذا الحرف احد الحروف التي سماها اهل التجويد الحروف الشمسية. ولو تركنا الخليل ذاته الى من تأثر بمدرسته لوجدنا جهوداً صوتية متناثرة تستند في أغلبها الى مبتكرات الخليل توافقه حينا ، وتخالفه حيناً أخر ، فأعضاء النطق مثلاً عند الخليل وسيبويه (180هـ) واحد والحروف في مدارجها ويعني فقد تتبع الخليل كلام العرب في مظانه ، فكان يخرج الى المريد يسمع من الاعاريب الوافدين اليه وكان يتنقل في البوادي العربية خلال الحج ، وكان الكسائي قد سأله ، وقد بهره علمه الجم واطلاعه الواسع ، عن المصادر التي استقى منها علمه ، فاجابه الخليل ، بأنها بوادي نجد والحجاز وتهامة . [5] وبحق تعد جهود الخليل الركيزة الاولى في وضع الدراسات الصوتية العربية في موضعها الصحيح وكل من جاء بعده من عرب واجانب اشادوا بهذه الجهود المثمرة ، ولما اجتمع له هذا المقدار الضخم من الروايات والمسموعات ، أخذ يطيل النظر فيها ويعرف خصائصها ، وكان الخليل يعلم ان اتصال العرب بالاجانب في الامصار المفتوحة في التعامل التجاري معهم كان قد دخل على لغتهم كثيراً من الكلمات الاجنبية التي أخذ العرب يستعملونها ويخضعونها لطبيعتهم اللغوية واساليبهم في

---

(1) ينظر / الصاحبي : 27 / اللسان ، مادة (حرف الظاء) .

(2) ينظر / المزهر : 116/1 .

(3) الجمهرة : 12/1 .

(4) المطففين : 14 .

(5) نزهة الألباء : 83 ، ينظر : نشأة دراسة حروف المعاني : 23 .

التأليف حتى الاستعمال بها وغير شيئاً من ملامحها .[1] وان الخليل استطاع ان يحصر الاصوات العربية وان يميز بين ما هو عربي خالص وما هو مشترك بين العرب وغيرهم ، وأن يقف على ما كان يالفه العرب وما لم يالفوه من أمثلة بين الحروف ومن عادات صوتية تعودها العرب ، فاستطاع وهو يصرف النظر في اللغة ان يستبعد منها الكلمات التي تتألف من أصوات لا تنطق بالسنتهم ولا يألفها حسهم ، كما اذا اجتمع فيها (خاء) و (غين) أو (خاء) و (هاء) أو (قاف) و (كاف) أو (قاف) و (جيم) الى غير ذلك من مما كان الخليل انه ليس من طبقة لغتهم .[2] لقد اتبع الخليل منهجاً قي ترتيب الاصوات لم يكن العربي يعرفه من قبل .

لقد اشاد (جان كانتينو) المستشرق الفرنسي بجهود العرب في معرفة اعضاء الصوت ، وقال : "وكان العرب يعرفون اكثر هذه الاعضاء ويطلقون عليها اسماء ذات دقة كافية.[3] ومنهجية الخليل معروفة لكل دارس ، فأذا اضفنا كل هذه المعارف الى ما تقدم ذكره منها ، فأن ناقلة القول أن علماء العرب عرفوا معظم اجهزة النطق وأن كان الرعيل الاول قد اشاروا الى ذلك في كتبهم .

بها الاصوات تبعاً للخليل ، تبدأ بأقصى الحلق وانتهى بالشفتين فهي عند سيبويه ، كما هي عند الخليل ، ولكن ترتيب الحروف في كتاب سيبويه تخالف ترتيب الخليل ، فحينما وضع الخليل الابجدية الصوتية في المعجم العربي مبتكراً لها خالفة سيبويه في ترتيب الاصوات إذ بدأ بالهمزة و (الالف) و (الهاء) وقدم (الغين) على (الخاء) وأخر (القاف) عند (الكاف) وهكذا [4] ، وممن جاء بعده من العلماء الذين اكتفوا بترديد كلامه وفي نفس الالفاظ والحروف دون ان يزيدوا عليه مما يستحق الذكر ودون شرح واضح لتلك الاراء ، بل حتى أولئك المشهودين من شراح كتاب سيبويه امثال السيرافي والرماني كانوا يصفون في شرحهم للاصوات اللغوية بذكر الفاظ سيبويه وعباراته ومصطلحاته كما هي ويبدو ان العلماء الذين جاءوا بعد سيبويه كانوا يعتزون بكل ما ورد عنه الى حد يكاد يبلغ القداسة. [5]

وذكر سيبويه الحروف التي تدخل في تحسين الصوت والتمكين من التطريب ، وهي (الالف) و (الواو) و (الياء) اما اذا ترنموا ، فأنهم يلحقون (الالف) و (الواو) و (الياء) لأنهم ارادوا حد

---

(1) ينظر / الخليل بن احمد الفراهيدي : 159 ، 160 .

(2) نفسه :

(3) في البحث الصوتي عند العرب : 21 ، ينظر : مقدمة كتاب العين : 58/1 .

(4) ينظر / الكتاب : 405/2 .

(5) ينظر / الاصوات اللغوية : 76 ، ينظر : الصوت اللغوي في القرآن الكريم : 59 .

الصوت.[1] ثم يدخل طرف ثالث ويسير في الاتجاه نفسه وان جهوده لا تقل أهمية عن جهود الذين سبقوه في مجال الدراسات الصوتية ، لقد اتبع ابن جني (392هـ) الحروف من مخارجها ورتبها ونظمها على مقاطع مستفيداً بما ابتكره الخليل ، الا انه كان مخالفاً له في الترتيب وموافقاً سيبويه تلميذاً الخليل في الاغلب الا في مقام تقديم (الهاء) على (الالف) وذهب ابن جني مذهباً صوتياً فريداً ، فهو يربط بين الصوت والفعل تارة وبين الصوت والاسم تارة أخرى ويبحث علاقة كل منهما بالاخر علاقة حسية ومادية فجرس الالفاظ ووقعها فيما يحدثه من اصوات واصداء سمعية قد تكون متجانسة نوعما . يقول ابن جني : " فان كثير من هذه اللغة وجدته مضاهياً باجراس حروف اصوات الافعال التي عبر بها عنها ، الا تراهم قالوا : قصم في اليابس وخضم في الرطب ، وذلك لقوة القاف وضعف الخاء ، فجعلوا الصوت الاقوى للفعل الاقوى والصوت الاضعف للفعل الاضعف . [2]

ونجده يلائم بين الصوت اللغوي وعلاقته بصوت الطائر في الاستطالة والقطع ، (فالراء) مردوه مكرر مستطيلة ، وصوت الجندب مستطيل فجعلت له (صرّ) مشدده وصوت الباز مثلاً منقطع فقطعت (الراء) فكانت (صرصر) وذلك مارآه ، وهو بهذا مذهب من يجد مناسبة ما بين الصوت والمعنى ولا سيما عند البلاغيين في التماس علاقة اللفظ بالمعنى أو في الدلالة الحسية للفظ بالمعنى بأسم صوته .[3]

ويمكن ان تلاحظ على مجموعة التغيرات التي طرأت على دراسة الاصوات عند سيبويه وابن جني ان جملة من الاصوات قد تقدمت في مدارجها ، وجملة اخرى قد تأخرت فقد أدخل ابن جني (الياء) في جملة الاصوات الشجرية وقد وافقه على هذا اكثر الدراسات الصوتية المعاصرة ثم قدم اصوات الذلاقة (ر ، ل ، ن) على النطقية والاسلية واللثوية وجعل (الواو) وحدها من أصوات الشفة وهو وضع صحيح في منظور الدراسات الصوتية الحديثة ، على الرغم من أن الدراسات الصوتية اللغوية العربية على انها تنقصها الدقة وتتصف بالاضطراب لأنها دراسات تعتمد الذوق لغرض الاحكام واستخراج الخصائص .[4] لقد تميز البحث في الاصوات العربية ، بأنه اعتمد على الخبرة الذاتية للباحث وعلى التجربة والملاحظات وفي الوقت ذاته كان بحثاً معتمداً على اساس منطقي نلحظ استقرار البحث الصوتي بعد الخليل وسيبويه وغيرها عند ابن جني الذي اتصفت

---

(1) الكتاب : 204/4 .

(2) ينظر / الخصائص : 65/1 ، 369/2 .

(3) نفسه : 165/1 ، ينظر : الصوت اللغوي في القرآن الكريم : 71 .

(4) ابحاث ونصوص في فقه اللغة : 179 ، ينظر : دراسة الصوت اللغوي أحمد مختار : 296 .

دراسته الصوتية بالدقة وقوة الملاحظة ، كما اتصافها بصحة الحكم اللغوي والتوجيه المنطقي ، لقد تداخلت الابحاث الصوتية العربية بمباحث لغوية اخرى ، ومن ذلك امتزاج الصوت بوظيفته وبما تحمله هذه الوظيفة من خصائص فعّالة في البحث البلاغي ، وكان ترابط الصوت والدلالة للوصول الى المعنى والانتهاء الى محصلة دلالية بليغة أو غير بليغة بما يمكن ان يؤديه الصوت من وظيفة وما يمكن ان يوصي به من معنى .

وقد اشاد كل من سيبويه وابن جني عن مخرج النون الخفيفة التي مخرجها من الخياشيم وسنذكر ذلك في الفصل الاول عندما نتحدث عن اقسام الحروف .

ان العوامل التي تدخل في التبدلات الصوتية كثيرة جداً ، ومتشابكة ، والاكتفاء ، بصلة واحدة لتفسير أمر في غاية التعقيد ، لذلك اخفقت كل النظريات التي حاولت تفسير التبدلات الصوتية بعامل واحد ، أثنا لكي تعلل تطور صوت واحد ، قد نحتاج الى الاحاطة التامة بتاريخ اللسان الذي فيه الاحاطة بتاريخ الشعب الذي ينطق بهذا اللسان ، ثم الاحاطه بكل شيء عن البيئات الاجتماعية والجغرافية والنفسية والمناخية لهذا الشعب . [1]

فالامة العربية لم تبق على طور واحد ، وانما هي ككل امة شقت طريقها الى الحياة الحضارية المستقرة مرت عليها اطوار واطوار وانتقلت من البداوة التي ننشأ عليها كل أمة جديدة عهد ، التلوين الحضارة المستقرة ، [2] والباحث يستخلص من ذلك ان اللسان العربي بدائي النشأة ، فأن كلمات هذا اللسان يبدأ تكوينها عفوياً من انبثاق المعنى دون طائلة العقل ، هذه الحقيقة تدل عليها أمور مختلفة ، منها أن أصوات اللهجات الطبيعية التي كانت مصدر اشتقاق كلماتنا تشير الى العلاقة بين اللغة الطبيعة ، واللغة المصطلح عليها كرموز عند الجماعة ، وأن معاني الكلمات العربية تمثل تجربة الحياة تمثيلاً مستقلاً عن اجتهاد المجتهدين .

من المعلوم ان معظم الاصوات اللغوية في لغات العالم تشترك بنسب كبيرة ويختلف بعضها عن البعض الاخر ببعضة اصوات ، فالضاد العربية مثلاً من مميزات هذه اللغة دون سائر اللغات ، في حين نجدها في اخواتها من اللغات السامية والاوربية والهندية ، وحاولت الدراسات الحديثة ان تقف على ما يميز هذه الفصيلة من تلك في اصواتها فوجد مثلاً ، أن الفصيلة السامية ومنها العربية ، تحصر نوعاً من الاصوات يقل وجودها في اللغات الاخرى ولاسيما أصوات الخلق والاصوات المطبقة مثل (ع ح) والهمزة و (ص ض) و (ط ظ) فهذه الاصوات ليست معروفة

---

1 فقه اللغة – كمال الانطاكي : 284 .

(2) الخليل بن احمد الفراهيدي : 71 .

كلياً في اللغات الاخرى ،[1] فقد توصل علماء العربية ومهدوا بين يدي الاوربين جادة البحث المنظم في استكناه الصوت اللغوي ، واسهموا اسهاماً حقيقياً في ارساء دكائزه الاولى مما اتاح لهم فرصة الاستقرار لحقيقية الاصوات والتي اكدت صحة المعلومات الهائلة التي ابتكرها العرب في هذا الميدان ومصطلح علم الاصوات مصطلح عربي اصيل ، [2] وقبل ان ننتقل الى الفصل الاول من هذه الدراسة نود ان نشير ان الصوت نشأ بسيطاً الى ان ظهر للوجود فتنبه له الكثير من العلماء ومنذ القدم وذلك لأهميته واشتراكه مع العلوم الاخرى ثم استقل اخيراً الى علم الاصوات .

(1) ينظر / أبحاث ونصوص في فقه اللغة : 202 .

(2) ينظر / الصوت اللغوي في القرآن الكريم : 16 .

الباب الأول : أقسام الأصوات اللغوية

الفصل الأول : الأصوات اللغوية في كتب البلاغة العربية.

المبحث الأول : دراسة الصوت اللغوي.
المبحث الثاني : أصوات الحروف .
المبحث الثالث :لفظ المفردة بين الفصاحة والبلاغة صوتياً.
المبحث الرابع : التركيب الجملي وأثر الأصوات فيه .

الفصل الأول : الأصوات اللغوية في كتب البلاغة العربية.

المبحث الأول : دراسة الصوت اللغوي.

المبحث الثاني : أصوات الحروف .

المبحث الثالث :لفظ المفردة بين الفصاحة والبلاغة صوتياً.

المبحث الرابع : التركيب وأثر الأصوات فيه .

المبحث الأول : Sound

دراسة الصوت اللغوي :

الصوت لغة:

عرفت المصادر اللغوية والكتب الأدبية الصوت انه " صوت فلان (يفلان) تصويتاً أي دعاه،وصات يصوت صوتاً فهو صائت بمعنى صالح "[1] وقال ابن منظور(711هـ)، الصوت: الجرس ، والجمع أصوات ، وقد صات يصوت ، وبصات صوتاً وأصات وصوت به ،كله نادى ، ويقال صات يصوت صوتاً فهو صائت ،معناه صالح ، والعرب تقول ، اسمع صوتاً وارى فوتاً ، أي اسمع صوتاً ولا ارى فعلاً ،ومثله اذا كنت تسمع بالشيء ثم لا ترى تحقيقاً "[2] وقال ابن السكيت : "الصوت ، صوت الإنسان وغيره والصائت الصالح والجمع أصوات وصات إذا نادى كأصات وصوت " [3]

وعرف الراغب الأصفهاني (502هـ) والصوت فقال : " الصوت هو الهواء المنضغط عن قرع جسمين ، وذلك ضرباً ، صوت مجرد عن تنفس ضربان : غير اختياري ، كما تكون من الجادات ومن الحيوانات ، واختياري كما يكون من الإنسان وذلك ضربان : ضرب باليد كصوت العود وما يجري مجراه وضرب بالفم ، الذي بالفم ضربان ، نطق وغير نطق ، وغير النطق كصوت الناي ، والنطق منه ، إما مفرد من الكلام ، وإما مركب كأحد الأنواع من الكلام"[4]

قال تعالى ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ** ﴾ [5] ويسمى(الجرس) بفتح الجيم وكسرها ، الصوت نفسه من كل ذي صوت ، يقال : جرس الحلى إذا سمعت صوت جرسة .

وعرف الصوت ابن سنان الخفاجي (466هـ) فقال : " الصوت مصدر صات الشيء بصوت صوتاً فهو صائت ، وصوت تصويتاً فهو مصوت ، وهو عام ولا يختص ، يقال : " صوت الانسان وصوت الحمار " .

وقال الراجز :.

---

[1] كتاب العين : 146/1 ، تحقيق مهدي المخزومي وأبراهيم السامرائي .

[2] لسان العرب : مادة (صوت) : 490/2 .

[3] تاج العروس : 562/1 .

[4] المفردات في غريب القرآن : 288 .

[5] الحجرات : 2 .

كأنما اصوات في الوادي أصوات حج من عمان غاد

ولصوت مذكر ، لانه مصدر كالضرب والقتل وقد ورد مونثاً على ضرب من التأول ، كقول الشاعر :

يا أيها الراكب المهدي مطيته بلغ بني سعد ما هذا الصوت[1]

الصوت اصطلاحاً :

حد القدماء اصطلاحاً (الصوت) من خلال مفهومه اللغوي ، فقالوا : هو الصوت والنغم ودار المصطلح في حدود كتب النقد والبلاغة ، ومن اقدم المتحدثين في هذا الاتجاه العالم العربي الجاحظ (255هـ) عندما وصف الصوت بقوله : " هو أله اللفظ والجوهر الذي يقوم به التقطيع ، وبه يوجد التأليف ، ولن تكون حركات اللسان لفظاً ولا كلاما موزوناً ولا منثوراً إلا بظهور الصوت ، ولا تكون الحروف كلما إلا بالتقطيع والتأليف" [2]، وقال القاضي الجرجاني (366هـ) "وإنما الكلام أصوات محلها من الأسماع محل النواظر من الأبصار " [3] ، وذهب قدامة بن جعفر(337هـ) إلى القول : إن الألفاظ أصوات متواطأ عليها " [4]، والأصوات تدرك بحاسة السمع في محلها ولا تحتاج إلى انتقال محلها وانتقالها وكونها أعراضاً منع من انتقالها"[5].

فالصوت هو الوحدة المادية للكلام المتصل ، بهذا المعنى له خواص سمعية وعضوية معينة يتناولها بالبحث علم الأصوات ، أي علم أصوات الكلام ، مفرده كانت هذه الأصوات او مجموعات ، فالصوت والكلمة والتركيب هي الوحدات الثلاث للكلام المتصل وهذه الوحدات تدخل في النظام اللغوي فالمقصود بالصوت هنا ما يطلق عليه في العرف اللغوي الحديث (الوحدة الصوتية) او الفونيم Phonetic،.

فالصوت الذي يطلقه المتكلم ، إذا هو صوته لانه يقوم عادة سمعه كما يقوم في سمع السامع الأخر ، أو حين نردد كلام شخص ونقول له هذا كلامك مع انه يحتمل ان يكون الكلام جملة صوتية بغير ألسنتنا او نميناه إلى الروافد التي أردفته على هيأة اضطرابات ،ان رد الكلام مرجعية هي خبرات المتكلم ومنه وفق رأي الخليل (175هـ) ، إذ بلغت المقتطف من مصوت بعهدة السامع في إحدى جهات المكان [6].

---

[1] سر الفصاحة : 26 ، ينظر : أساس البلاغة : 230 ، القاموس المحيط 152/1 ، تهذيب اللغة : 581/10 .

[2] البيان والتبيين : 79/1 .

[3] الوساطة : 412 .

[4] نقد الشعر : 18 .

[5] سر الفصاحة : 5 ، 55 .

[6] الاختلاج اللساني : 29 .

فصل ابن سنان الخفاجي (466هـ) القول في كتابه (سر الفصاحة) وقد وصف ذلك بقوله : " والصوت معقول ، لأنه يدرك ، ولا خلاف بين العقلاء في وجوه ما يدرك ، وهو عرض ليس بحجم ، ولا صفة للجسم ، والدليل على انه ليس بحجم ، انه مدرك بحاسة السمع ، والأجسام متماثلة ، والإدراك إنما يتعلق بأخص صفات الذوات ، فلو كان جسماً لكانت الأجسام جميعها مدركة بحاسة السمع ...ويمكن الدلالة على ان الصوت ليس بحجم ، إذا ثبت أن الأجسام متماثلة من وجه أخر ، وذلك أنا ندرك الأصوات المختلفة ، (فالراء) مخالفة (للزاي) ، وكذلك سائر الحروف المختلفة ، فإذا كانت الأجسام متماثلة والأصوات تدرك مختلفة فليست بأجسام.[1]

والصوت مدرك بلا خلاف ، ومع الدلالة على أن الأصوات أعراض ففيها المتماثل والمختلف ،وقد ذهب أبو هاشم عبد السلام بن محمد الجبائي : إلى أن المختلف منها متضاد ، وتوقف علم الهدى المرتضى* نضر اللهوجهه عن القطع على ذلك ، فأما أبو هاشم فأنه اعتمد في تضادها على طريقين : أحدهما أن حمل الصوت على اللون من حيث كان أدراك كل واحد منهما مقصوراً على حاسة واحدة ، فلما قطع على تضاد المختلف من الألوان قال : بمثل ذلك في الأصوات ، والطريق الثاني أن الصوت مدرك ، فهو هيأة للمحل إذا إوجب مختلفة هيأتين استحال اجتماعهما في حالة واحدة ،كما يستحيل ذلك في الألوان [2]. وتحليل ابن سنان في هذا الصدد شبيه بعلوم الفلسفة ، وانه هو الذي مهد للطريقة التقريرية في علوم البلاغة . وجعل ابن الأثير أساس المفاضلة بين الألفاظ قيمتها الصوتية المحسوسة ، " لان الألفاظ داخله في حيز الأصوات ، فالذي يستلذه السمع منها ويميل إليه هو الحسن ، والذي يكره وينفر عنه هو القبيح"[3] فأبن الأثير في هذا النص يعتمد على الفن الجمالي للصوت من خلال حاسة السمع .

لقد أحاط أخوان الصفا بالمعلومات الأساسية للصوت وتبين لهم أن منشأ الأصوات حركة الأجسام المصوته وان هذه الحركة تؤثر في الهواء ، كما أشاروا إلى الأثر السمعي للصوت وسموه (القوة السامعة للأصوات) وعرفوا (الوسط الناقل) للصوت وأنواعه المختلفة ومع ما يشوب تقسيم الأصوات من روح الفلسفة والمنطق ، فأنه دال على بصر بالصوت وبحقيقته وقد تثبتوا إلى الحقيقة العلمية التي ترى أن " علة عظم الصوت إنما بحسب عظم الأجسام المصوتة"[4] ونجد عند ابن سينا(428هـ) له عناية جليلة

---

[1] سر الفصاحة : 6 ، 8 .

* هو الشريف أبو القاسم علي بن الطاهر أبي احمد الحسين (436هـ) .

[2] نفه : 9 ، ينظر : أسرار البلاغة : 11/دلائل الأعجاز : 55 .

[3] المثل السائر : 115/1 .

[4] رسائل أخوان الصفا : 189/1 .

بالصوت،وعنده نوعان : نوع سماهُ قرعاً يختص بـ " مثل ما تقرع صخرة أو خشية ، وأخر دعاه قلعا ومثل له " يقطع أحد شقي مشقوق عند الأخر كخشبة تنحني عليها بأن تبين أحد شقيها عن الأخر طويلاً " [1]

ونبه ابن سينا (466هـ) على الحقيقة العلمية التي تذهب ، أن سرعة الموجات الضوئية اكبر من سرعة الموجات الصوتية بقوله : "وقد سئل على هذا المذهب عن العلة في مشاهدة القصار من بعد يضرب الثوب على الحجر ، ثم يسمع بعد مهلة فيسبق النظر السمع " [2]، وعلل هذه الحقيقة بـ " ان الصوت يتولد في الهواء ، والبعد المخصوص مانع من إدراكه " [3]، وهي ملاحظة دقيقة للذبذبات الصوتية في إثناء تموجها في الوسط الناقل الذي هو الهواء بطيئة بالقياس إلى النظر الذي يعني الموجات الضوئية ، وقد أكد الدكتور تمام حسان بقوله : " إن أي اثر سمعي غير ذي ذبذبة مستمرة مطردة كالنقر على الخشب "[4] ، وفرق تمام حسان بين المصطلح العلمي (الحسي) نحو قولهم (فلان حسه جميل) وبين الصوت المراد به المصطلح الإنكليزي Sound ، وهو مفهوم يشمل اللغوي وغير اللغوي فهو الأثر السمعي الذي به ذبذبة مستمرة مطردة حتى ولو لم يكن مصدره جهازاً صوتياً حياً ، فما نسمعه من الآلات الموسيقية النغمية أو الوترية أصوات ، وكذلك الحسن الإنساني صوت ، وفهم بهذا المعنى العام يتوقف على التمييز بين درجة الصوت ، وعلو الصوت وقيمة الصوت ، فالدرجة والعلو أمور قياسية ، إما قيمة الصوت فهي قضية نقدية ذوقية " [5]، وسيبقى مصطلح الصوت محط أنظار علماء الأصوات فقد شغلهم قديماً وسيشغلهم حديثاً لان أهمية الصوت تزداد يوماً بعد يوم وفي المجالات العلمية كافة .

الأصوات الصامتة وأصوات اللين:

وصف ابن جني (392هـ) ميزان العروض بأنه : " عيار الحسن وحاكم القسمة والوضع"[6] ولعل من المفيد هنا الرجوع إلى ميزان العروض لبيان ان وصف حروف المد في علوم العربية

---

[1] الشفاء : 70/6 .

[2] سر الفصاحة : 11 ، ينظر : في البحث الصوتي عند العرب : 7 ، 8 .

[3] نفسه : 12 .

[4] مناهج البحث في اللغة : 59 ، ينظر : جرس الألفاظ : 15 .

[5] نفسه :

[6] الخصائص : 88/1 ، ينظر سر الفصاحة : 17 .

بأنها سواكن يقصد به الإشارة إلى إشباع لفظ حركة المتحرك يشبه السكون من حيث أن الإشباع كالسكون لايؤدي الى مقطع صوتي جديد ،بل يؤدي فقط الى تغيير وصف المقطع ، وانطلاقاً من خصائص النظام الصوتي للعربية التي تتجلى في أن الصوت الصامت المتحرك يمثل مقطعاً صوتياً ثنائياً ، وتتحلى أيضاً في أن الحركة ليس لها وجود منفصل عن صامت بلفظ قبلها ويتصل بها ، فعمد الخليل لدى تحديد أوزان البحور إلى التميز بين المتحرك (الذي يمثل مقطعاً صوتياً وغير المتحرك الذي ليمثل مقطعاً صوتياً) ، فأستطاع بذلك أن يحدد الأسباب والأوتاد والفواصل التي تتركب منها الأوزان [1].

ويرى الباحث أن للحركة صوتاً كما للحرف صوت ، فعند وجود الحركة في السياق اللغوي يكون لها وجود الحرف الذي هو صوت فيكون هناك انسجام بين أصوات المد والصوامت .

يقول الراغب الأصفهاني (502هـ) : " والصامت فيراد بالناطق ماله صوت وبالصامت ما ليس له صوت، ولا يقال للحيوانات ناطق إلا مقيّدا وعلى طريق التشبيه كقول الشاعر :

عجبت لها أني يكون غناؤها فصيحاً ولم تفعر لمنطقها فما[2]

إلا أننا نرى المحدثين قسموا الأصوات على قسمين رئيسين :قسم دعوه بالأصوات الصامتة (أو الساكنة أو المصوت)Consonants ، وأخر سموه أصوات اللين (أو المد أو الصلة أو الصائتة)Vowels ، وتشمل الأصوات الصامتة جل أصوات العربية عدا الألف في نحو (طال) والواو في (يرجو) والياء في (الهادي) التي تسمى أصوات لين طويلة ، إلى جانبها (الفتحة والضمة والكسرة) [3].

وتدعى أصوات المد القصيرة ، والحركات وتكون الأصوات الصامتة مجهورة او مهموسة ،في حين أن هناك أصوات لا تكون إلا مجهورة في الراجح ولكن الأخيرة أصواتاً إنطلاقية ولكثرة شيوعها ووضح الخطأ في نطقها ، عني المحدثون بها بوضع ضوابط لها ، ومقاييس يستطيع الدارس العودة إليها لتجنبه الخطأ بها ، ولان الصوت من المكيفات المحسوسة بحاسة السمع ، وان الحروف تقسم إلى ، مصوتة وصامتة ، فقد ذهب فخر الدين الرازي إلى القول: " إما المصوتة البيئات العارضة للصوت ، وإما الصوامت فمنها ما لا يكن تحديده ، كـ(الياء) و (الثاء) و (الدال) و (الطاء) ، فهذه الحروف ليست بأصوات ولا عوارض أصوات ، وإنما هي أمور تحدث في مبدأ حروف الأصوات وتسميتها بالحروف حسنة ، لان الحروف هو طرف وهذه الحروف أطراف

---

[1] ينظر / النظرية اللغوية العربية الحديثة : 43 ، 44 .

[2] ينظر المفردات في غريب القرآن : 496 .

[3] ينظر / في البحث الصوتي عند العرب : 49 .

أصوات " [1] وهذا ما ذهب إليه ابن جني في حد الحروف ، ولان صوتية الحروف تختلف عن التصويت المحض [2].

والصوائت والصوامت من الأصوات ، والصوائت ما ضمن حروف العلة عند علماء الحرف وهي : (الألف) و (الياء) و (الواو) ، والصوامت بقية حروف المعجم ، ويبدو أن الأصوات الصائتة بعد هذا هي الأصوات المأهولة بالانفتاح المتكامل لمجرى الهواء ، ويتضح أن الأصوات الصامتة ، ما كانت بخلاف ذلك فهي تتسم بتضيق مجرى الهواء واختلاسه فتتطلق أصواتها بأصداء مميزة تختلف شدة وضعفاً بحسب مخارجها ، فتحدث الضوضاء من خلال نتيجة احتباس الهواء بقيد ما " [3].

وتعد أصوات العربية كلها عدا أصوات (الواو) و (الياء) و (الالف) وما يتفرع منها من حركات أصواتاً صامتة ، وللأصوات الصامتة بعض الصفات الخاصة بها كالتكرار مثلاً ،فأنه صفة (الراء) وحدها لان اللسان يضرب في الفم ضربات عدة [4].

تلك محصلة صفات الأصوات العامة والخاصة عند المحدثين ، ولاشك انهم أفادوا من الأجهزة الصوتية الحديثة ومن علم التشريح ومع ذلك كله فلا نجد اختلافات كثيرة بين الذي قدمه علماء العرب في هذا السبيل وبين المحدثين من خلال ذكر الصفات العامة للأصوات المجهورة والمهموسة .

أهمية السمع في أدراك الصوت :

عني علماء البلاغة ومنذ وقت مبكر بحاسة السمع ودونوا ذلك في كتبهم فقد ذكر الجاحظ(255هـ) في كتاب الحيوان : " فأما السمع فعندنا من قولهم (اسمع من فرس) و(اسمع من فرخ العقاب) : " فأما السمع فدعنا من كذا ، وتقول العرب: " اسمع من قراد" ويستدلون بالقردان التي تكون حول الماء ، وقال : " فالإنسان لا يعلم حتى يكثر سماعه "[5] ، وكتب البلاغة حافل

---

[1] التفسير الكبير : 29/1 .

[2] سر صناعة الأعراب : 9 .

[3] الصوت اللغوي في القرآن الكريم : 182 .

[4] ينظر / في البحث الصوتي عند العرب : 40 .

[5] الحيوان : 15/4 ، 55/1 .

بالأحكام إلى السع في بيان قيم الألفاظ وإطلاق نعوتاً تبعاً للأثر الذي تتركه في نفس السامع ومن أوائل تلك الأحكام الجاحظ في البيان والتبيين بقوله : " لا يستحق اسم البلاغة حتى يسابق معناه لفظه ولفظه معناه فلا يكون لفظه ألا سمعك اسبق من معناه إلى قلبك [1]، ويرى ابن طباطبا (322هـ) : إن كل حاسة من حواس البدن إنما تتقبل ما يتصل بها ما طبعت له إذا كان وروده عليها ورواداً لطيفاً باعتدال الأجور فيه ...والأنف يقبل الشم الطيب ويتأذى بالنتن الخبيث...والأذن تتشوق للصوت الخفيف الساكن وتتأذى بالجهر الهائل "[2] ، وفي تشويق الاذن الى الكلام الخضيض الرائع وعلى هذا وجد أبو هلال السكري (395هـ) الحجة في القول : "لا شيء يسبق إلى سماع ، وأوقع في القلوب ، وأبقى عن الليالي والأيام ، من مثل سائر وشعر نادر "[3] ، ثم استشهد في مكان أخر بقول الرسول محمد (صلى الله عليه وسلم) : " كلما سمع هيعة طار إليها " [4] ، وكانت العرب فيما يرويه أبو هلال تعول على السماع في تقويم كلامها . فقد ذكر انه قيل لأبي عمرو بن العلاء : " هل كانت العرب تطيل ؟ قال : نعم ، بل كانت تطيل ليسمع منها " [5]، ثم يقول : " والسع يتشوق الهداب الرائع ويفزوي عن الجهر الهائل " [6]، وأبو هلال في رؤياه الحسية للسمع إنما يوافق ابن طباطبا بأن جميع جوارح البدن وحواسه تميز ما يوافقها وما تنفر منه .

إما ابن سنان : " والأصوات تدرك بحاسة السمع في محلها ، ولا تحتاج إلى انتقال مجالها وانتقالها ، وكونها أعراضاً منع من انتقالها ، وقد استدل على ذلك بأنها لم انتقلت لجاز أن تنتقل إلى بعض ، حتى تكوناً مع التساوي في القرب والسلامة بسمع الصوت بعضهم دون بعض ، وان يجوز اختلاف انتقال الحروف حتى يدرك الكلام مختلفاً ، وقال ولان الأصوات مدركة فهي تجري من السمع مجرى الالوان من البصر " [7] ، كما انك تجد لبعض النغم والألوان حسناً يتصور في النفس ويدرك بالبصر والسمع دون غيره مما هو من جنسه .

---

[1] البيان والتبيين : 115/1 .

[2] عيار الشعر : 14 .

[3] كتاب الصناعتين : 143 .

[4] نفسه : 284 .

[5] نفسه : 198 .

[6] نفسه : 63 ، ينظر : جرس الالفاظ : 22 .

[7] سر الفصاحة :11 .

اما عبد القاهر الجرجاني (471هـ) فعلى الرغم من قراره ان " الدلالة على الشيء لا محالة اعلامك السامع اياه " [1]، إما ابن الأثير (367هـ) فيعلل ذلك بقوله : " من الأمور المحسوسة التي شاهدها من نفسها لان الألفاظ داخله في حيز الأصوات فالذي يستلذه السمع منها ، ويميل اليه هو الحسن ،والذي يكرهه وينفر عنه هو القبيح " إلا ترى أن السمع يستلذ صوت البلبل من الطير وصوت الشحرور ويميل إليها ، ويكره صوت الغراب وينفر عنه وكذلك يكره نهيق الحمار ولا يجد ذلك في صهيل الفرس فأنه لا خلاف أن لفضة (المزنة) و(الديمة) حسنة يستلذها السمع وان لفظة (البعاق) قبيحة يكرهها السمع " [2] ، فلا يخلو السامع من ان يكون عالماً باللغة وبمعاني الألفاظ او يكون جاهلاً بذلك .

ومن الكراهة في السمع بأن تمج الكلمة ويتبرأ من سماعها ،كما يتبرأ من سماع الأصوات المنكرة فأن اللفظ من قبل الأصوات ، والأصوات منها ما تستلذه النفس ومنها ما تكره سماعه[3].

دراسة جهاز النطق Organs of speech

عرف علماء العرب من أعضاء النطق وميزوا أثر كل منها في عملية أحداث الكلام وعزوا كل صوت إلى مخرجه وبذلوا جهدهم في هذا المجال وتوصلوا إلى نتائج لم تختلف كثيرا عما توصل إليه علم الأصوات الحديث فقد عرفوا معظم هذه الأعضاء ، وميزوا كل منها في عملية

---

[1] دلائل الأعجاز : 462 .

[2] المثل السائر : 114/1 .

[3] الإيضاح في تلخيص المفتاح : 4 .

أحداث الكلام وعزوا كل صوت الى مخرجه ، " فأشار الخليل في مقدمة كتابه العين إلى الحلق واللهاة[1] ، 00 وعرف سيبويه الحلق وقسمه إلى ثلاثة أقسام ، أقصاه ، وأوسطه ، وأدناه والحنك وأقسامه ، وأشار إلى أصولها والثنايا وأصولها وأطرفهما والشقين والخياشيم [2]، الذي يقابل الفراغ الأنفي عند المحدثين ، وعرف ابن جني أعضاء النطق كالحلق وأقسامه ، والحنك وأقسامهما ، والفم والأضراس واللسان وأجزائه ، والحلق والفم ، بالاعتماد على جهات مختلفة كان سبب استماعنا للأصوات المختلفة "[3]

ولقد لاحظ الأقدمون كابن فارس (395 هـ) في كتابه الصحابي ص75 وابن دريد في الجمهرة ص411 وغيرهما ان العربي إذا اضطر إلى نطق الصوت الغريب عن لغته حاول تقريبه إلى صوت عربي من جنس أصوات لفته ، كما يفعل في نطق (الباء) مثلته في (بور) فانه على الرغم من استطاعته نطقها يحولها إلى صوت (الفاء) فيقول (فور) وهذه الصورة من ملاحظة الدارس العربي القديم اللسان ، وهي محاولة اللسان العربي للاحتفاظ بالأصوات العربية كما ورثها والتزامه بها في النطق هي ظاهرة لا يمكن أن تتماشى مع ما يقرره (مندرس) من استحالة بقاء النظام الصوتي ثابتا طوال تطور لغة من اللغات ، والذي دلتنا عليه الدراسات الحديثة ، ان العربية احتوت على أصوات الأطباق التي اختلفت في عددها في الساميات ، فالقاف والصاد والظاء موجودة في الشعبة العربية القحطانية ، في حين تعرضت (الضاد) و (الطاء) للتغيير الصوتي في عدد من اللغات السامية [4] ، والتلاؤم بين النطق والتفكير ووضيفة الإبلاغ منذ بداية نشأة الكلام الإنساني ، ولم ينشأ التفكير الإنساني ، مكتملاً طفرة واحدة ، وانطلق خط السير العام لتطوره من أدراك المشخص المحسوس واكتمل بالانتقال إلى المجرد ، كما أن النظام اللغوي ، لم ينشأ مكتملاً طفرة واحدة ، بل نشأ واكتمل تدريجياً بشكل فراز لنشأ التفكير الإنساني واكتماله [5] .

وبناء على ما جاء عند الأقدمين من ذكر أجزاء الجهاز الصوتي ، نرى من الفائدة أن نقف موجزين أجزاء هذا الجهاز .

يتألف الجهاز الصوتي Phonetic System في الإنسان من الأعضاء الآتية :

---

[1] ينظر العين : 58/1

[2] ينظر الكناب : 433/4 .

[3] ينظر سر الصناعة : 9/1 .

[4] ابحاث ونصوص في فقه اللغة : 121 .

[5] ينظر /النظرية اللغوية العربية الحديثة:121.

1.الرئتان:Lungs ،ويقتصر عملها على امرار الجهاز الصوتي بالهواء اللازم لأحداث الصوت .
2.القصبة الهوائية:Wind Pipe، وهي قناة غضروفية تعمل ما بين الرئتين والحنجرة ، وقد كان يظن قديماً لا أثر لها في الصوت اللغوي ، وأنها مجرد طريق للهواء ،ولكن البحوث الحديثة برهنت على إنها تستغل في بعض الأحيان فراغاً رناناً ذا اثر بين في درجة الصوت ،ولاسيما إذا كان الصوت عميقاً .
3.الحنجرة Larynx وهي حنجرة غضروفية متسعة بعض الاتساع ،ويدعى جزؤها البارز من الأمام تفاحة أدم ، واهم أجزائها في عملية التصويت هما الوتران الصوتيان.
4.الحلق:Pharynx،وهو الجزء الذي بين الحنجرة والفم ، والى جانب كونه مخرجاً لعدد من الأصوات اللغوية يستخدم في تفخيم الصوت المنبعث من الوترين في الحنجرة .
5.اللسان :Tongue ، وهو قطعة عضلية شديدة المرونة ، ويعد أهم عضو في الجهاز الصوتي كله.
6.سقف الحنك : Patate ، ويسمى سقف الفم ، وينقسم إلى قسمين ، أمامي صلب يدعى الفار ، وخلفي رخو يدعى الطليق الخلفي الرخو من الحنك الأعلى .[1]
7.التجويف الأنفي :Nasal Cavity ، وهو فراغ يندفع فيه الهواء عند انخفاض الطبق ليمر الهواء الخارجي من الرئتين من خلاله عن طريق الأنف ، وعن طريق التجويف الأنفي تنطلق (النون) و (الميم) العربيتين .
8.الشفتان:Lips ، وهما من أعضاء النطق المتحركة ، ويساعد انطباقهما ، وانفراجهما في نطق كثير من الأصوات ، لذلك كانت أهميتها كبيرة.[2]

" وتختلف عادات البشر في استغلال حركة الشفتين والانتفاع بهما ، فمن الشعوب من تتميز عادات النطق لديهم بكثرة الحركة فيهما من يقتصد [3] تلك هي أهم أعضاء النطق عند الإنسان ،والملاحظ ان كل جزء من أجزاء هذا الجهاز العجيب تصدر عدداً لا حصر له من الأصوات.

---

[1]ينظر / فقه اللغة : للانطاكي :153 .

[2]ينظر / في البحث الصوتي عند العرب:22 .

[3]ينظر / المدخل الى علم اللغة : 22 .

جهاز النطق عند العلماء العرب :

تضافرت جهود العلماء العرب في وصف جهاز النطق وتسمية أجزائه ، وشبه إبن جني (392هـ) الحلق بالناي ومدارج الصوت ومخارجها بفتحات هذا الناي ، التي توضع عليها الأصابع ، وفي تشبيه الحلق بالمزمار وتشبيه مخارج الحروف بالثقب التي توضع عليها الأصابع فيه ، درجة الشبه في ذلك ، أن الصوت البشري ، إذا خرج من الحلق في اتجاه الفم مستطيلاً متصلاً كان مماثلاً لصوت الناي ، حين لا تقف في طريقه أصابع العازف فوق الثقوب ، وعندما يصطدم بحاجز داخل جهاز التصويت ، فأن ذلك الشبه باعتراض الإصبع صوت الناي في فتحته من فتحاته [1] ، كما يشبه ابن جني في وضع نفسه الحلق بتوتر العود ، مبيناً وجه الشبه بينهما وجه الشبه بينهما ، بأن عازف العود إذا حصر أخر الوتر ببعض إصابع يسراه سمع له صوتاً ، وكلما قرب مكان الحصر من أول الوتر اختلف الصوت مما يجعل الوتر هنا مماثلاً للحلق الذي يجري الصوت المنطلق منه من أول الوتر اختلف الصوت مما حاجز بينهما تكون لهذا الصوت نغمة خاصة حين يصطدم بعقبة ما داخل جهاز التصويت ، وهي إشارة ذكية دالة على قوة الملاحظة وصحة الفهم في عمل جهاز النطق .

أفاد ابن سنان الخفاجي (466هـ) من هذه الملاحظة ، ورود هذه الحقيقة مما يدل على أنها أصبحت عندهم من الحقائق العلمية في تلك العصور ، وقد أكدوا على أهمية مخارج الصوت وأثره في إبلاغ السامع وهو يتقبل هذا الصوت أو يرفضه ، وقد أشار إلى ذلك سيبويه (180هـ) ، واكتفى بالإلمام إلى خروج الصوت من المصدر ، وأن ابن جني طور هذه الملاحظة ، بالإشارة إلى الصدى الذي لا يخرجه عن كونه إحساس المرء بذبذبات الوترين في إثناء النطق بالصوت المجهور في إثناء جريان النفس من الرئتين .

وفي علاقة اللسان بالنطق ، فقد بذل علماء الأصوات جهوداً كبيرة في تحديد الأوضاع الأساسية التي يمكن ان يتخذها اللسان في داخل فراغ الفم أثناء أداء الصوت ، وكقول بعض البلغاء في وصف السان: " اللسان أداة يظهر بها حسن البيان ، وظامر يخير عن الضمير ، وشاهد ينبئك عن غائب ، وحاكم يفصل به الخطاب ، وواعظ ينهي عن القبيح ، وحزين يدعو إلى الحسن ...وملة يونق الأسماع "[2].

---

[1] بنظر–سر صناعة الأعراب : 9/1 ، بنظر الفصاحة : 29،30 / مفتاح العلوم :5 – تكنولوجيا اللغة :10/ ينظر المصطلح الصوتي : 21 .

[2] دلائل الأعجاز :97 ، أسرار البلاغة : 39 ، ينظر –المفردات في غريب القرآن :496 / دراسة الصوت اللغوي : 332

عيوب النطق ، Speech defects :-

لقد عرف عيوب النطق Speech defects ، وتعددت عندهم أسماؤها ، ووصفوا الكثير من حالاتها ، تاركين صفحات غنية بالملاحظات النافعة ، لعنياتهم بحسن البيان ، ومناحي الفصاحة .

ولعل الجاحظ (255هـ) من أوائل علماء العرب الذين أولوا سلامة النطق العناية الفائقة ، صلة وطيدة بنظريته في البيان ، فلا غرو أن نلقاه يعالج الحالات التي شذت فيها فصاحة النطق بالأصوات من صحة مخارجها ، وإما أصاب اللفظ معها من تحريف أو تشويه ، مستعيناً بالأمثلة الموضحة ، فقد وصف اللثغة في باب ذكر الحروف التي تدخل اللثغة ، قال الجاحظ : " وقد كانت لثغة محمد بن شبيب المتكلم بالغين وكان إذا أساء أن يقول ، عمرو ولعمري وما أشباه ذلك على الصحة قاله ، ولكنه كان يستثقل التكليف والتهيؤ لذلك ، فقلت له : إذا لم يكن المانع إلا هذا القدر فلست اشك انك لو احتملت هذا التكلف والتتبع شهراً واحداً أن لسانك كان يستقيم ، فأما من تعتريه اللثغة في (الضاد) وربما اعتراه أيضاً في (الصاد) و(الراء) حتى إذا أراد أن يقول : مضر قال مضى [1] .

وقد زعم ناس من العوام أن موسى (عليه السلام) كان ألثغ ، ولم يقفوا من الحروف التي كانت تعرض له على شيء بعينه ،فمنه من جعل ذلك خلقة ، ومنهم من زعم انه إنما اعتراه حين قالت آسية بنت مزاحم امرأة فرعون لفرعون ، لا تقتل طفلاً لا يفرق التمر من الجمر: فلما دعا له فرعون بهما جميعاً تناول الجمرة فأهوى بها إلى فيه ، فاعتراه من ذلك ما اعتراه[2].

وإما اللثغة في (الراء) فتكون (بالياء) و(الظاء) و(الذال) و(الغين) وهي اقلها قبحاً وأوجدها في ذوي الشرف وكبار الناس وبلغائهم وعلمائهم .

وكان الواقدي يروي عن بعض رجاله ،ان لسان موسى كانت عليه شأمة فيها شعرات وليس يدل القرآن على شيء من هذا ، لانه ليس في قوله تعالى: ﴿ **وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي**﴾ [3]دليل على شيء دون شيء .وقال محمد ابن سلام الجمحي ، كان عمر بن الخطاب ،رحمه الله ، إذا رأى رجلاً يتلجلج في كلامه قال: " خالق هذا وخالق عمرو بن العاص واحد" ، ويقال في لسانه

---

[1] البيان والتبيين :36/1

[2] المصدر نفسه : الصفحة نفسها .

[3] طه : 27 .

حبسة ، إذا كان الكلام يثقل عليه ولم يبلغ حد الفأفاء والتمتام ، ويقال في لسانه عقلة ، إذا تعقل عليه الكلام ويقال في لسانه لكنة اذا دخل بعض حروف العجم في حروف العرب[1] .

وقال أهل التجربة : إذا كان في اللحم الذي فيه مغارز الإسنان أن تشمير وقصر سمك بالفتح : الارتفاع ، ذهبت الحروف وفسد البيان ، وإذا وجد اللسان من جميع جهاته شيئاً يقرعه ويصكه ولم يمر في هواء واسع المجال وكان لسانه يملأ جوبة فمه لم يضر سقوط أسنانه ، إلا بالمقدار المفتقر والجزء المحتمل ، ويؤكد ذلك قول صاحب المنطق[2] ، كلما كان لسان الواحد فنها اعرض كان افصح وأبين ، واحكى لما يلقن ولما يسمع ، الببغاء والغداق وغراب البين ، وما أشبه ذلك ، وكالذي يتهيأ من أفواه السنافير إذا تجاوبت ، من الحروف المقطعة المشاركة لمخارج حروف الناس .[3]

وإما الغنم فليس يمكنها أن تقول إلا (ما) و (الميم) و (الباء) أول ما يتهيأ في أفواه الأطفال ، كقولهم ، (ماما) والصوت الأخر(بابا) لإنهما خارجان من عمل اللسان ، وإنما يظهران بالتقاء والشفتين ، وليس شيء من الحروف ادخل في باب النقص والعجز من فم الاهتم ، من الفاء والسين إذا كانا في وسط الكلمة ، فأما (الضاد) فليست تخرج إلا من الشدق الأيمن ، إلا أن يكون المتكلم اعسر يسر ، مثل عمر بن الخطاب رحمه الله ، فأنه كان يخرج (الضاد) من أي شدقيه شاء ، فأما الأيمن والأعسر والاضمط ، فليس يمكنهم ذلك إلا بالاستكراه الشديد: [4]

وقالوا : الدليل على أن من سقط جميع أسنانه أن عظم اللسان نافع له قول كعب بن جعيل ليزيد بن معاوية ، حين أمره بهجاء الأنصار فقال له: " إراذي أنت إلى الكفر بعد الإيمان لا أهجموا قوماً نصروا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وآووه ، ولكني سأدلك على قوم في الحي كافر كأن لسانه لسان ثور" [5]

---

(1) البيان والتبيين:1-39 . الواقدي هو أبو عبد الله محمد بن عمر بن واقد الواقدي ، وكان عالماً بالمغازي والسير والفتوح والأخبار ولد سنة (130هـ) توفي (207هـ) .

(2) صاحب المنطق:هو ارسطو طاليس ،لانه اول من خلص صناعة البرهان من سائر الصناعات المنطقية ،وصورها بالاشكال الثلاثة،وجعلها الة للعلوم النظرية حتى لقب بصاحب المنطق ، بنظر : الحيوان : 288/5 ، الفهرست : 347 ، 349.

(3) البيان والتبيين:261/1 .

(4) نفسه:62/1

(5) الحيوان:1/4،40/407 .

وقد أفاد المبرد (285هـ) مما أراد الجاحظ في عيوب النطق Speech defects فساق غير قليل من أسمائها إلى جانب إيراده ، جملة من أمثلتها الواردة على السنة العرب والمستعمرين ، ثم ذكر ابن سيدة (458هـ) عنوانات منها ، باب الفصاحة ، وخفة الكلام وسرعته ، وثقل اللسان واللحن وقلة البيان وكثرة الكلام والخطأ فيه ، والاختلاط في الكلام وضخم الصوت وصفاؤه إلى غير ذلك.[1]

ولما علم واصل بن عطاء ، انه ألثغ فاحش أللثغ ، وان مخرج ذلك منه شنيع ، وانه إذا كان داعية مقالة ورئيس نخلة (مذهب) وانه يريد الاحتجاج على أرباب النحل وزعماء وأنه لابد له من مقارعة الأبطال ، ومن الخطب الطوال وان البيان يحتاج إلى تمييز وسياسة والى ترتيب ورياضة ، والى تمام الآلة وإحكام الصنعة ، والى سهولة المخرج وجهارة المنطق ، وتكميل الحروف وإقامة الوزن ، وان حاجة المنطق إلى الحلاوة والطلاوة ، كحاجته إلى الجزالة والفخامة ، وان ذلك من اكثر ما تستمال به القلوب وتثنى به الأعناق وتزيّن به المعاني ، وعلم واصل انه ليس معه ما ينوب عن البيان التام واللسان المتمكن والقوة المتصرفة[2] :

ومن اجل حاجة إلى حسن البيان وعطاء أصوات الحروف حقوقها من الفصاحة ، رام أبو حذيفة إسقاط (الراء) من كلامه وأخرجها من حروف منطقه.

وكانت لثغة محمد بن شبيب المتكلم ، بالغين ، فإذا حمل على نفسه وقوّم لسانه اخرج (الراء) وقد ذكره في ذلك أبو الطروق الضبّي فقال:

عليم في إبدال الحروف وقامع لكل خطيب يغلب الحلق باطله

وكان واصل ابن عطاء قبيح اللثغة شنيعها وكان طويل العنق جداً.

واللثغة كما هو معروف ، عيب من عيوب النطق يعتري اللسان . من جراء إخراج الصوت من غير مخرجه فقد عد الجاحظ من أصواتها أربعة هي : (القاف) و (السين) و(اللام) و(الراء) وقال : " فإما التي هي على الشين المعجمة ، فذلك شيء لا يصوره الخط ، لإنه ليس من الحروف المعروفة ، وإنما هو مخرج من المخارج ، والمخارج لا تحصى ولا يوقف عليها [3] .

---

[1] ينظر:الكامل : 221/2 ، المخصص : 132/2،112،بنظر:في البحث الصوتي عند العرب:97 .

[2] ينظر:البيان والتبيين:15/1

[3] المصدر نفسه : 34/1

ووصف الكندي في الباب الرابع أصوات العربية (فالدال) في رأيه تحتاج إلى نغمة مع همزة بطرف اللسان على طرف الحنك ومقاويم الأسنان وفتحة ثم عطفة إلى داخل الحنك " [1] ويقول في نعت (الزاي) تحتاج إلى نغمة مع إلزام طرف اللسان ومقدم الأسنان واخراج النفس خروجا يسيرا من بين الأسنان يزمزمه ، ولعله عني بالزمزمة ما يعرف بالصفيرية Sibtant وهي من خصائص صوت الزاي .[2]

عيوب اللفظ ، Speech pronounce :-

إما عيوب اللفظ فيمكن أجمالها بمظاهر اللكنة التي كانت بادية في الأقوام غير العربية التي دخلت المجتمع العربي ، وصار لهم موقع فيه ، فاستبان في ألسنتهم بقايا لغتهم التي كانوا عليها في تحاورهم وتخاطبهم سواء أمن العامة كانوا أم من الخاصة كالشعراء والخطباء ومن إليهم ويمكن أجمال إبدال الأصوات بالأتي:

أ -**<u>الأصوات الحلقية والحنجرية.</u>**

1.جعل الحاء هاء : يؤثر عن صهيب ابن سنان النمري صاحب رسول الله(صلى الله عليه وسلم) ارتضاضة لكنة رومية ،وكان يقول فيما روى الجاحظ : (انك لهائن) يريد انك لحائن أي هالك[3] وكان النبطي يقلب العين همزة ، والعين صوت حلقي ، إما الهمزة فصوت حنجري.

ب- **الاصوات الغارية** - والاسنانية واللثوية وتتمثل في الاتي:

1.قلب السين وهو صوت أسناني لثوي إلى الشين وهو غاري المخرج ، وإنما كان ذلك لتأخر المخرج وإمثاله في ما روي من زياد الاعجم وكان يرتضخ لكنة اعجمية فدعي الاعجم.[4]

---

(1) رسالة في اللثغة احتفظت بها خزانة جامع ايا صوفيا تحت رقم 48/32 في معهد المخطوطات العربية نحت 136فلسفة ومنطق .

(2) واصل بن عطاء : وهو ابو حذيفة واصل بن عطاء (181هـ)المغزلي وكان يجلس الى الحسن البصري ، فلما ظهر الاختلاف وقالت الخوارج بتفكير مرتكب الكبائر ، وقالت الجماعة بانهم مؤمنون وان فسقوا بالكبائر- خرج واصل عن الفرقين ، وقال : اما الفاسق من هذه الامة لا مؤمن ولا كافر بل هو بمنزلة بين المنزلتين ، فطرده الحسن عن مجلسه فاعنزل عنه وجلس اليه عمرو بن عبيد فقيل لهما ولاتباعهما منزلون : بنظر : البيان والتبيين :

(3) ينظر / البيان والتبيين:72/1 .

(4) المصدر نفسه:73/1 .

وكان يجعل السين شيناً.وقد ورد عكس ذلك بقلبه الشين الى سين ،كما ورد في قول سحيم عبد بني الحساس لعمر بن الخطاب رضي الله عنه (ما سعرت) بدل(ما شعرت)[1]

ج–الأصوات الاسنانية اللثوية والاسنانية : كتاب الذال (الاسناني) دالاً (وهو اسناني لثوي) المثال في قول أم ولد جرير لبعض ولدها : (وقع الجردان في عجان أمكم) فأبدلت الذال –الجرذان دالاً وضمت الجيم وجعلت العين عجاناً.

وادخل علماء العربية –والجاحظ بصورة خاصة خطا الصيغ في مظاهر اللكنة وعيوب النطق الأخرى ، ولم يفت الجاحظ ملاحظة أن الذي يتعلم لغة أخرى غير لغته تظل عنده إلى مدة غير قصيرة بعض مظاهر لغته الأصلية قال: " إن النبطي المغلاق الذي نشأ في سواد الكوفة وان تكلم العربية المعروفة ، وكان لفظة متخيراً ، ومعناه شريفاً ، يعرف السامع لكلامه ومخارج حروفه انه نبطي " [2] وتلك حقيقة يؤديها الدرس الصوتي الحديث حين افصح بالقول : إن لكل لغة لغوية مادتها النطقية الخاصة بها ، فإذا اقدم أصحاب لغة ما على تعلم لغة أخرى كانوا عرضة لان يخطئوا في أصوات هذه اللغة الأخيرة ، وان يخلطوا بين أصواتها وأصوات لغتهم ، بسبب تأثرهم بعاداتهم النطقية.[3]

وهكذا يستبان من عيوب النطق ، بخاصة إبدال الأصوات –كونها تغيراً صوتياً ماثلاً في تقدم مخارج الصوت أو تأخره بسبب عيب او عادة نطقية أخرى ، هو بالتالي مظهر من مظاهر استبدال وحدة صوتية بأخرى.

وهناك عيوب في النطق منها ، الحذف نطق جزء من الكلمة فقط ، قد يكون صوتاً واحداً أو عدة أصوات والإبدال وهو إصدار صوت غير مناسب عوضاً عن الصوت الصحيح في الكلمة ،كنطق (الشين) مكان (السين) ، أو (الواو) مكان (الراء) ، والتجريف وهو إصدار الصوت خاطئاً ، لكن غريباً من الصوت المرغوب فيه ، والإضافة هي زيادة أو قطع إلى الكلمة الصحيحة.

قال ابو هلال العسكري(395هـ): " الكلام –أيدك الله –يحسن بسلاسته وسهولته ونصاعته وتخير لفظه ، وإصابة معناه وجودة مطالعة ، ولين مقاطعة واستواء تقاسيمه وتعادل إطرافه وتشابه أعجازه ، ومما فيصبح في لفظه جيد في رصقه" [4].

---

[1] الشعر والشعراء:343/1 .

[2] البيان والتبيين:74/1

[3] علم الأصوات :176،ينظر في البحث الصوتي عند العرب:106 .

[4] الصناعتين:61 .

لقد بذل العلماء العرب جهوداً في تشخيص هذا الخلل في النطق وما يسببه من مصاعب للشخص أثناء النطق ويؤدي به إلى الإحراج والخجل ، فقد شغل عيوب النطق علماء النفس فأعتنوا بدراسة الكثير من حالات الكلام وعيوبه لارتباط الكثير منها بحالات نفسية تدخل في نطاقه ، ويولي عناية واضحة في كسب القدرة بحالات الصم في كسب القدرة على التعبير عما يجول في صدورهم بشتى الوسائل من كلام أو إشارة ليفهموا أولاً ما يلقى عليهم ، وليفهموا عما يبتغون إيصاله إلى العالم الخارجي المحيط بهم.

ولعل ابرز الأبحاث اللغوية الصوتية وأقدمها هو علم الصوت النطقي ، لإنه يتناول نشاطات الجهاز النطقي في صنع الأصوات اللغوية وما ينتاب أعضاء الجهاز من حركة العضلات والأجهزة الخاصة بتكوين الكلام ونطق الأصوات ولقد كان للعرب في هذا الميدان سبق واضح، وابرز الدراسات التي وصلت ألينا فيها محاولات الخليل في وضع العربية مرتبة على مخرج ومراتب واحياز بحسب خروجها من منطقة الحلق حتى الشفتين.[1] ويبقى الجهد العربي في هذا المضمار شامخاً لدى كل الدارسين من عرب وغيرهم وباعتراف قبلهم ، أما توصل إليه العرب في دراسة الأصوات يعد مفخرة لهم وسبق علمي باسمهم .

المبحث الثاني ، أصوات الحروف

عرف علماء العرب الحروف وميزوا بين الحرف والصوت ، والمراد بأصوات العربية حروفها ، وهو مصطلح درج عليه علماء العربية ، ومع ما يبدو على الرعيل الأول من علماء العربية من عدم التفريق بين (الحرف) و(الصوت) . على ما هو معروف في الدرس الصوتي الحديث ، وفريق آخر تلاهم عرف مصطلح (الصوت) إلى جانب معرفة (الحرف) منهم ابن جني (392هـ) وابن سينا (228هـ) وابن سنان (466هـ) فسمى ابن جني المقاطع أينما عرض له حرفاً : " اعلم الصوت عرض يخرج مع النفس مستطيلاً متصلاً حتى يعرض له في الحلق والفم والشفتين مقاطع تثنية عن امتداده واستطالته فيسميه المقطع أينما عرض له حرفاً وتختلف أجراس بحسب اختلاف مقاطعها ، ألا ترى انك تبتدئ الصوت من أقصى حلقك ، ثم تبلغ به أي المقاطع شئت فتجد له جرساً ما ، فأن انتقلت عنه راجعاً منه أو متجاوزاً له ، ثم قطعت أحسست عند ذلك صدى غير

---

[1] مباحث في علم اللغة –الدكتور رشيد العبيدي:59،54 .

الصدى الأول ، وذلك نحو(الكاف) ،فأنك إذا قطعت بها سمعت هنا صدى فأن رجعت إلى (القاف) سمعت غيره ، وان جرت إلى (الجيم) سمعت غير ذنيك الأولين ، وإذا أردت اعتبار صدى الحرف أن تأتي به (ساكنا) لا (متحركا) لان الحركة تغلق الحرف عن موضعه[1] " .

وقد فسر ابن سنان الخفاجي سبب تسمية العرب لإجزاء الكلام حروفاً ، بأن الحرف ،لما كان في اللغة حد الشيء وحدته ، فأن أجزاء الكلام سميت به ، لأنها حد منقطع الصوت...والحروف تختلف بإختلاف مقاطع الصوت ، حتى شبه بعضهم الحلق والفم بالناي ، لان الصوت يخرج منه ساذجاً ، فإذا وضعت الانامل على حروفه ووقعت المزاوجة بينهما سمع لكل حرف منها صوت لا يشبه صاحبه ، فكذلك إذا قطع الصوت في الحلق والفم بالاعتماد إلى جهات مختلفة سمعت الأصوات المختلفة التي هي حروف ، ولهذا لا يوجد في صوت الحجر وغيره لأنه لا مقاطع فيه للصوت ، وليس يحتاج إلى حصر الحروف التي يتعلق بها ، وإنما ذكر ما في العربية التي كلاما عليها ، لان في غيرها من اللغات حروفاً ليست فيها [2] .

قال الزمخشري (528هـ) : " اعلم انك إذا تأملت ما أورده الله عز سلطانه في الفواتح من هذه الأسماء وجدتها نصف أسماء حروف المعجم ، أربعة عشر سواء وهي : (الألف) و (اللام) و (الصاد) و (الراء) و (الكاف) و (الهاء) و (الياء) و (الصاد) و (الطاء) و (السين) و (الحاء) و (القاف) و (النون) في تسع وعشرين سورة على عدد حروف المعجم ، ثم إذا نظرت في هذه الأربعة عشر وجدتها مشتملة على أنصاف أجناس الحروف ، وبيان ذلك أن فيها من الحروف المهموسة نصفها ومن المجهورة نصفها ومن الشدة نصفها ومن المنخفضة نصفها ومن حروف القلقلة نصفها[3] وقف الزركشي (794هـ) عند الصدى الصوتي للحروف المقطعة عندما ابتدئ به ثلاثة أحرف وعد ذلك سراً صوتياً بارزاً علله بقوله عن (أ لم) في تركيبها: " وذلك أن الألف إذا بدئ بها أولاً كانت همزة وهي اول المخارج من أقصى الصدر واللام من وسط مخارج الحروف وهي اشد الحروف اعتمادا على اللسان ، والميم أخر الحروف ، ومخرجها من الفم وهذه الثلاثة هي اصل مخارج الحروف ، اعني الحلق واللسان والشفتين وترتيب في التنزيل من البداية إلى الوسط إلى النهاية فهذه الحروف تعتمد المخارج الثلاثة التي تتفرع منها ستة عشر مخرجاً ليبصر منها تسعة وعشرون حرفاً ، عليها مدار الحلق أجمعين ،مع تضمنها سراً عجيباً وهو أن الألف للبداية

---

[1] الخصائص:2/1،141/33 ،بنظر سر صناعة الأعراب:6/1 .

[2] سر الفصاحة :16،14،13،ينظر التفكير اللساني:256 .

[3] ينظر / الكشاف:101/1 ، 79/78/1 ، بنظر التعبير القرآئي : 128 .

واللام للتوسط والميم للنهاية فاشتملت هذه الحروف الثلاثة على البداية والنهاية والوسط بينها[1] والزركشي يطلق لفظ الحروف ويريد بذلك الأصوات كما هو شأن الخليل في بدايات العين.
وهذه النسب التقريبية لشيوع الحروف في القرآن الكريم وهي :

في كل آلف من الحروف ترد اللام (127) مرة والميم (124) مرة والنون (112) مرة والهمزة (72) مرة والهاء (56) مرة والواو (52) مرة والثاء (50) مرة والياء(45) مرة والباء (43) مرة والكاف (41) مرة وكل من الراء والفاء (38) مرة والعين (37) مرة والقاف (23) مرة وكل من السين والدال (20)مرة والذال (18) مرة والجيم (16) مرة والحاء (15) مرة والخاء (10) مرات النون والصاد (8) مرات والسين (7) والضاد (6) مرات وكل من الغين والثاء (5) مرات وكل من الزاي والطاء والظاء (3) مرات.[2]

أقسام مخارج الأصوات :

اعتمد القدماء صوتية الحرف في تقسيماتهم الوصفية لها ، لذلك كانت المرحلة التالية التي تناولت الحروف ، هي كيفية حدوث هذا الصوت وتقطيعه مخارج متميزة وقد اجتهد الكثير منهم وقسم الحروف بحسب مخارجها بشكل دقيق فذهب ابن سينا (428هـ) إلى القول : " أظن أن الصوت سببه القريب تموج الهواء ودفعه بسرعة وقوة من أي سبب كان ...إما نفس التموج فأنه يفعل الصوت ، وإما حال التموج من جهة الهيئات التي يستفيدها من المخارج في مسلكه فينفعل الحرف والحرف هيأة للصوت عارضة له ، يتميز عن صوت أخر مثله في الحدة والثقل تمييزاً في السمع " [(3)] وذكر ابن سنان (466) في سر الفصاحة تقسيمات الحروف وعنده : " سميت الحروف حروفاً لان الحروف حد منقطع الصوت همزة وفقد قيل : إنها سميت بذلك لأنها جهات للكلام ونواح ، كحروف الشيء وجهاته ...وإما قولهم للحروف التي في لغة العرب –حروف المعجم –فليس بصفة للحروف ، لان ذلك يفسد من وجهين : أحدهما امتناع وصف الفكرة

[(1)] البرهان في علوم القرأن: 168/1، ينظر الصوت اللغوي في القرأن الكريم :91 .

[(2)]ينظر / موسيقى الشعر : 36 : ينظر مجلة الضاد : 89 .

[(3)] أسباب حدوث الحروف .

بالمعرفة ، والثاني إضافة الموصوف " الصفة ، والصفة عند النحويين هي الموصوف في المعنى ، ومحال أن يضاف الشيء إلى نفسه.

حروف العربية تسعة وعشرون حرفاً ، وهي : (الهمزة) و (الألف) و (الهاء) و (العين) و (الخاء) و (الغين) و (الخاء) و (القاف) و (الكاف) و (الضاد) و (الجيم) و (الشين) و (الياء) و (اللام) و (الراء) و (النون) و (الطاء) و (الدال) و (الطاء) و (الفاء) و (الصاد) و (الزاي) و (السين) و (الظاء) و (الذال) و (التاء) و (الياء) و (الميم) و (الواو) فهذا ترتيبها في المخارج.[1]

وكان أبو العباس المبرد (285هـ) لا يعتد بالهمزة ويجعل الحروف ثمانية وعشرين حرفاً ،وقوله هذا عند النحويين مرفوض ، واعتلاله بأن الهمزة لا صورة لها مستكره غير مرضي ، لان الاعتبار باللفظ دون الخط وهي ثابتة فيه ، ولو أن العرب لاحظ لها كغيرها من الأمم لم يسمع ذلك من الاعتداد بجميع هذه الحروف المذكورة.[2]

وذكر ابن جني (392هـ) في كتابه سر صناعة الأعراب : " ان الحروف التي هي أصوات تجري من السمع مجرى الألوان من البصر ، ولا شك أن الألوان المتباينة إذا اجتمعت كانت في المنظر احسن من الألوان المتقاربة ، ولهذا كان البياض مع الواو احسن صفة مع الصفرة لقرب ما بينه وبين الأصفر ، وبعد ما بينه وبين الأسود ، وإذا كان هذا موجوداً على هذه الصفة يحسن النزاع فيه ، كانت العلة في حسن اللفظة المؤلفة من الحروف المتباعدة ،هي العلة في حسن النقوش إذا مزجت من الألوان المتباعدة " [3] وممن عرض لذلك من أصحاب البلاغة ابن سنان الخفاجي (466هـ) في كتابة (سر الفصاحة) وهو التلميذ الحقيقي لابن جني ، لأنه جاره في سر الصناعة فأخذ كلامه بنصه وحرفه ، ومزج به كلام الفلاسفة في الأصوات ، وبني عليه كتابه كله " [4] ، وان الجهد الذي بذله ابن الخفاجي جرى في المجال الذي اجتهد فيه ابن جني ولم يرد على كلامه شيئاً في الناحية الصوتية.

وقال ابن سنان : " حروف بعضها يحسن استعماله في الفصيح من الكلام وبعضها لا يحسن ، فالتي تحسن ستة حروف ، وهي النون الخفيفة التي تخرج من الخيشوم ، والهمزة المخفضة ، والآلف إلا مالة ، وألف التضخيم ،وهي التي بها ينحني نحوا الواو وذلك في قولهم في

---

[1] سر الفصاحة: 14 .

[2] ينظر / المصدر نفسه : 16.

[3] سر صنعة الأعراب: 17/1 ينظر: الأسس النفسية :44 .

[4] المصدر نفسه : نفس الصفحة .

الزكاة –الزكاوة –والصاد التي كالزاي ، نحوا قولهم في مصدر –(مزدر) والشين التي كالجيم نحوا قولهم (اشدق) –(اجدق) .

والحروف التي لا تحسن ثمانية ، وهي الكاف التي بين الجيم والكاف نحو (كلهم عندك) والجيم التي كالكاف نحوا قولهم للرجل (ركل) والجيم التي كالشين نحوا قولهم : (خرشت) والطاء التي كالتاء كقولهم (طلب) ، والضاد الضعيفة ، كقولهم في (اثرد اضرد) والصاد التي كالسين في قولهم (صدق) والظاء التي كالفاء ، كقولهم (ظلم) والفاء التي كالباء كقولهم (فرند).[1]

الأصوات المستحسنة :

قسم سيبوبه أصوات اللغة العربية على أصول وفروع فقال : " اصل حروف العربية تسعة وعشرون حرفاً ، تستحسن في قراءة الأشعار وهي (النون الخفيفة) والهمزة التي هي بين الألف التي تحال إحالة شديدة والشين التي كالجيم والصاد التي تكون كالزاي وألف التفخيم وتكون اثنتي وأربعين حرفاً بحروف غير مستحسنة في لغة من ترخى عربية ولا تستحسن في قراءة القرآن ولا في الشعر"[2] ولعل سيبوبه واتباعه ابتدأ تأصيل الحروف الأصل على الشكل الكتابي لوجود صورة كتابة للحرف فضلاً عن إنها الحروف المتفق عليها عند العرب كافة.

والأصوات المستحسنة التي أشار إليها سيبويه وردت بأكثرها قراءات قرآنية ، مما يدل على إنها أصوات القبائل الفصيحة نزل بها الوحي ، أو أذن بها الرسول صلى الله عليه وسلم بوحي من الله سبحانه وتعالى ، قال ابن الجزري بعد أن أورد حروف العربية على مخارجها " ولبعض هذه الحروف فروع صحت القراءة بها فمن ذلك الهمزة المسهلة بين بين ...ومنه الفاء الإمالة ومنه الصاد المشمسة وهي التي بين الصاد والزاي " [3] هذه أربعة أحرف مما ذكر سيبويه نص ابن الجزري على مجيء القراءة الصحيحة بها.

بقيت النون الخفيفة ،فهي النون التي لا يكون لطرف اللسان عمل في إخراجها وقد سماها ابن جني (الخفيّة) قال : " ومن الخياشيم مخرج النون الخفيفة ويقال الخفيفة همزة أي الساكنة"[4] وهذه النون هي التي يرد ذكرها في أصوات العربية الأصول نفسها ، إلا أن تلك حين تجيء ساكنة

---

[1] سر الفصاحة: 19،بنظر المثل السائر: 226/1 .

[2] نظرية الأصل والفرع في النحو العربي –دال – حسن خميس المداح:19 .

[3] النشر في القراءات العشر : 2002/1 .

[4] سر صناعة الأعراب :53/1 .

متنوعة بأحد عشر حرفاً تصير حينئذ ضمن غنةّ في الخيشوم ، لا على الفم في النطق بها سواء أكان ذلك في كلمة واحدة نحو (ينقاد) أو في كلمتين متتاليتين نحو (من قال) وعلى هذا فأن النون الخفيفة أو الخفية التي ذكرها سيبوبه ليست نون لهجية تختلف عن النون الفصيحة ، وإنما هي نون تعاملية بمعنى إنها النون التي تسمع أو تنطق في حال سكونها همزة إذا جاءت متبوعة بواحد من الحروف الخمسة عشر فهي كاللام التي تأتي مفخمة في المواضع مرققة في غيرها.[1] أشار ابن سنان إلى مخارج الحروف فقال : " ومخارج هذه ستة عشر مخرجاً : ثلاثة في الحلق فأولها من أقصاه ، مخرج الهمزة والألف والهاء ،وهذا على ترتيب سيبويه ، وزعم أبو الحسن الاخبش ، إن الهاء مع الألف لا قبلها ولا بعدها ثم يليه من وسط الحلق ،مخرج العين والحاء ، ثم من فوق ذلك من أول الفم مخرج الغين والخاء ، ثم من أقصى اللسان مخرج القاف ،ومن اسفل ذلك وادنى الى مقدم الفم مخرج الكاف ،ومن وسط اللسان بينه وبين الحنك الأعلى مخرج الجيم والشين والباء ، ومن أول حافة اللسان وما يليها من الأضراس مخرج الضاد ومن حافة اللسان من أدناها إلى منتها طرفة بينهم وبين ما يليها من الحنك الأعلى مخرج اللام ،ومن طرف اللسان بينه وبين ما فوق ثنايا مخرج النون همزة ومن مخرج غير انه ادخل في ظهر اللسان مخرج الراء وما بين طرف اللسان وأصول الثنايا مخرج الطاء والتاء والدال ، ومما بين الثنايا وطرف اللسان مخرج الصاد والزاي والسين ،وما بين طرف اللسان وأطراف الثنايا مخرج الظاء والثاء والذال . ومن باطن الشفة السفلى وأطراف الثنايا العليا مخرج الفاء ، ومن بين الشفتين مخرج الباء والميم والواو ، ومن الخياشم مخرج النون الخفيفة " [2]

والجديد في ترتيب سيبوبة شيئان : أولهما إضافة الهمزة والألف إلى طائفة حروف الحلق ، وثانيهما عد الهاء قبل العين ، وكان الخليل يعدها بعد الحاء ، وقد التفت ابن جني إلى الشبه بين الأصوات اللغوية وبين الأصوات التي تسمع الآلات الموسيقية ،كالناي والعود ، ومثل الصوت الإنساني بصوت الناي .

أما سيبويه فقد أضاف إلى هذه الطائفة صوتاً جديداً هو صوت الباء وكان أدق في تعيين مخارج هذه الأصوات ، فقد ذكر أن مخرج الجيم الشين والباء من وسط اللسان وان مخرج الضاد من بين حافة اللسان وما يليه من الأضراس في هذه الطائفة وحدد المحدثون مخرجها كما هي الضاد التي يسمونها الان في بعض الاقطار الربية كمصر والشام ولبنان ،ونطق هذه الضاد

---

[1] ينظر: أصوات العربية بين التحول النبات : 44 .

[2] سر الفصاحة :20 .

يختلف من نطق الالضاد العربية الاصلية التي وصفها الخليل وسيبوبة[1] إما المحدثون فيتفقون مع الخليل وسيبويه في أن طرف اللسان يعمل في هذه الحروف الثلاثة ويخالفونها في التفاصيل ، فالراء والنون عندهم من فصيلة ما يسمونه Alveolars وهي أصوات مخرجها لواسطة طرف اللسان من فصيلة أخرى سموها Dentals [2].

صفات الأصوات ، المجهور والمهموس Voieed and voieedtes

ميز ابن سنان (466هـ) بين الحروف التي هي أصوات وسمى كلاً منها باسمه وشخص مخرجه إذ ذكر: " ومن هذه الحروف (المجهور) و(المهموس) ، ومعنى الجهر في الحرف انه اشبع الاعتماد في موضعه ومنع النفس أن يجري معه حتى ينقضي الاعتماد ويجري الصوت ، ومعنى الهمس فيه أن يضعف الاعتماد في الصوت حتى يجري معه النفس ، والحروف المهموسة عشرة أحرف : وهي (الهاء) و (الحاء) و (الخاء) و (الكاف) و (السين) و (الصاد) و (التاء) و (الشين) و (الثاء) و (الفاء) ، ويجمعها في اللفظ (ستشحثك خصفه) وجمعت أيضاً (سكت فحثه شخص) وما سوى هذه الحروف هو المجهور "[3].

ومساق الحديث فيهما لا يتم إلا بعد التنبيه على أنواع التسعة والعشرين ومخارجها ، قال السكاكي (662هـ) : " اعلم إنها عند المتقدمين تتنوع إلى : مجهورة ومهموسة ، وهي عندي كذلك لكن على ما اذكره وهو الجهر انحصار النفس في مخرج الحرف ، والهمس جرى ذلك فيه ، المجهورة عندي : (الهمزة) و (الألف) و (القاف) و (الكاف) ، و (الجيم) ، و (الياء) و (الراء) و (النون) و (الطاء) و (الدال) و (التاء) و (الباء) و (الميم) و (الواو) يجمعها قولك : (قدك اترجم ونطايب) ، والمهموسة ، ما عداها ، ثم إذا لم يتم الانحصار ولا الجري كما في الحروف قولك (لم يروعنا) سميت معتدلة [4].

وذكر ابن سنان الحروف الشديدة والرخوة ، فقال: " فالشديد الحرف الذي يمنع الصوت ان يجري فيه ، وهي ثمانية أحرف : (الهمزة) و (القاف) و (الكاف) و (الجيم) و (الطاء) و (الدال) و (التاء) و (الباء) ، ويجمعها في اللفظ : (أجدك قطبت) والتي بين الشدة والرخوة ثمانية احرف :

---

[1] الاصوات اللغوية :51،52 .

[2] الخليل بن احمد الفراهيدي:101،104 .

[3] سر الفصاحة:20، ينظر / اسرار البلاغة: 9، ينظر / الكتاب: 435/4 .

[4] مفتاح العلوم:11،39، ينظر / اللسان ،مادة (جهر):13/1 .

وهي (الالف) و (العين) و (الراء) و (اللام) و (الياء) و (النون) و (الميم) و (الواو) ، ويجمعها في اللفظ (لم يروعنا) ، والرخوة الحروف التي لا تمنع الصوت ان يجري فيها وهي ما سوى هذين القسمين المذكورين " [1] .

قال السكاكي (626هـ)سميت رخوة إذا اتبع اعتدال ضعف تحمل حركة ، أو الامتناع عنه ، كما في (الواو) و (الياء) و (الألف) سميت معتلة ، وإذا اتبع تمام الانحصار حضر وضغط كما في حروف قولك: " قد طبخ ميت...ان للحروف في أنفسها خواص بها تختلف كالجهر والهمس ، والشدة والرخاوة ،والتوسط بينهما وغير ذلك ،مستدعية في المحيط بها علماً أن لا يسوى بينهما ، وإذا اخذ في تعيين شيء منها لمعنى ، أن لا يهمل التناسب بينهما فضاء الحق الحكمة ، مثل (الفصم) بالفاء الذي هو حرف رخو ، و(القصم) بالقاف الذي هو حرف شديد لكسر الشيء حتى يبين ، وفي (الثلم) الذي هو حرف خفيف ما يبين أن للخلل في الجدار ، و(الثلب) الذي هو حرف شديد للخلل في العرض ، وفي الزفير بالفاء لصوت الحمار ، و(الزئير) بالهمزة الذي هو شديد ، لصوت الأسد وما شاكل ذلك[2] .

وأشار ابن سنان إلى حروف الاستعلاء وحروف الانخفاض: " ومعنا الاستعلاء أن تصعد في الحنك الأعلى ، وهي سبعة أحرف ، (الحاء) و (الغين) و (القاف) و (الضاد) و (الظاء) و (الصاد) و (الطاء) ، وما سوى ذلك من الحروف منخفض .ومنها حروف الذلاقة ،ومعنا الذلاقة ان يعتمد عليها بذلق اللسان وهو طرفه ، (وذلق) كل شيء حده ،وهي ستة احرف : (اللام) و (الراء) و (النون) و (الفاء) و (الياء) و (الميم) ، وما سواها من الحروف فهي المصمتة . وللحروف أيضاً انقسام إلى الصحة والاعتلال والزيادة والأصل والسكون والحركة ...وإنما أردنا ذكر ما لا يستغنى عنه طالب معرفة التي لها يقصد ، واليها بنحو ، فأما ما سوى ذلك فا للمحة تقنع منه ،واللمعة تغنى فيه " [3]

وعند السكاكي لاستعلاء : أن تتصعد لسانك في الحنك الأعلى والانخفاض بخلاف ذلك ، فأن جعلت لسانك مطبقاً للحنك الأعلى كما في ، (الصاد) و (الضاد) و (الطاء) و (الظاء) ،

---

[1] سر الفصاحة:21،20،ينظر ،التذكير اللساني :259/الأصول في النحو لابن السراج:3/3،403/401 .

[2] ينظر:سر الفصاحة :21 ، ينظر :مباحث في علم اللغة واللسانيات.د.رشيد العبيدي:146 .

[3] سر الفصاحة :21 ، ينظر :مباحث في علم اللغة واللسانيات.د.رشيد العبيدي:146 .

سميت مطبقة ، وإلا كما في سواها سميت منفتحة ومخارجها عند الأكثر ستة عشر على هذا النهج [1]

وعلل ذلك عبد القاهر الجرجاني (471هـ) بقوله : " وذلك أن نظم الحروف هو تواليها في النطق وليس نظمها بمقتضى عن معنى "[2]

ويقسم السكاكي (626هـ) شكلاً بيانيا لمخارج الحروف العربية في جهاز التصويت لا يبعد كثيرا عن الاشكال البيانية التي يرسمها اليوم علماء الأصوات المعاصرون على أن مثل هذه المحاولات التي يزخر بها التراث اللغوي العربي القديم ،[3] يقول الدكتور خليل العطية : " وتختلف الهجائية عند السكاكي قليلا من هجائية سيبويه ، ويمتاز عمن سبقه من علماء العربية ، حينما اجتهد بمحاولة رسم (شكل مصور) لمخارج الأصوات ربما كانت الأولى في نوعها في هذا الجانب ، لاكتفاء السالفين بالشرح المقتضب للمخارج ، أما السكاكي فقد جمعها معا بشكل مخطط لمخارج الحروف " [4]

وذهب بعض المعاصرين المتخصصين في علم اللغة والأصوات ، ان الإنسان عند النطق بالحروف يحتاج إلى جهد عضلي تشترك فيه مجموعة من العضلات والأوتار والأعصاب ولما كانت أصوات الحروف المختلفة ، إنما اختلفت بسبب اختلاف مخارجها ...ومن ذلك مثلا (الهمزة) في اللغة العربية فإنها : " من اشق الحروف واعصرها حين النطق لان مخرجها فتحة المزمار ، ويحس المرء حين ينطق بها كأنه يختنق ، ومثلها (القاف) وأحرف الأطباق وهي ، الصاد ، والطاء ، والظاء ، والضاد ،فكل هذه تتطلب للنطق وضعا خاصا للسان يحمل المتكلم بعض الشقة "[5] وان الميزة التي تتصف بها العربية في تعلم أصوات العربية ونطقها ، في حين نجد أن تعلم أصوات اللاتينية في الكتابة أمر لا يخلو من صعوبة وعسر ، وخاصة أن القيم التي تنسب إلى حرف من هذه الحروف يتغير من كلمة إلى أخرى تغيرا واضحا ، تتوقف صحته أو عدمها إلى

---

[1] مفتاح العلوم :12 ،ينظر :اللغة بين العقل والمغامرة :148، 187 .

[2] دلائل الأعجاز : 49، بنظر ثلاث رسائل في أعجاز القرآن : 96 .

[3] التكنولوجيا واللغة : 11.

[4] في البحث الصوتي عند العرب : 27 ، بنظر: فخر الدين الرازي بلاغيا: 118، 158، 159، ينظر جرس الألفاظ: 114 .

[5] موسيقى الشعر : 22، 23 .

سماعة من المتكلمين بتلك اللغة .[1] ومن هنا لم ير الغريب عن العربية وأصواتها وأشكال حروفها صعوبة في أخذها واستيعاب قيمتها الصوتية ، فمنذ أن طلع المسلمون العرب بزحفهم العقائدي واللغوي على العالم امتد الحرف إلى إنحاء من الأرض ليس فيها حاكم عربي، ولكن هذه المناطق سرعان ما تعلمت الحرف ، وأدركت قيمته ونطقته صحيحا في كل موضع يرد فيه .

ضبط سيبويه مخارج الحروف في ستة مخارج في ضوء تقسيمات الخليل وعنه اخذ ابن سنان وفي هذه الحدود تردد في كتب البلاغة ، وتنحصر هذه البلاغة ، في ثلاثة مواضع:-

1. الحروف الحقلية : فللحلق منها ثلاثة ، فأقصاها مخرجاً (الهمزة (والهاء) و(الألف) ومن أوسط الحلق مخرج (العين) و(الحاء) وأدناها مخرجاً من الفم ، (الغين) و(الخاء) .
2. الحروف اللسانية ، وقال : " ومن أقصى اللسان وما فوقه من الحنك الأعلى مخرج (القاف)ومن اللسان قليلاً مخرج (الكاف) ومن وسط اللسان بينه وبين الحنك الأعلى مخرج (الجيم) و(والشين) و(لياء) ومن حافة اللسان من أدناها إلى منتهى طرفه وما بينهما وبين ما يلي من الحنك الأعلى مخرج (اللام)[2] ويبدو أن إبن سنان أفاد كثيراً من تقسيمات الذين سبقوه في مخارج الحروف .

أما إبن الأثير (376هـ) فيقول: " فقد وجدنا ألفاظاً متقاربة المخارج وهي غير مستقبحة ، كلفظة (ملع) إذا عدا وأسرع "[3] ثم يعلق على قول ابن سنان ، أقول : إن إبن سنان لم يدع الطراد المطلق ، وإنما قال إن الأكثر الأغلب استقباح الألفاظ المتباعدة المخارج ، إذا لم توجد فيها علة أخرى توجب استقباحها والشاذ لا يعتد به [4]

ودماثة الحلق التي أو مازجت خلق الزمان الفدم عاد ظريفاً

فوصف الحلق بالظرف يختص باللسان والنطق ،وهذا يرتبط بمخارج الحروف وطبيعة حدوثها.

ومن الحروف ذات القيمة الجمالية والدقيقة ، في اللغات ، هي حروف اللغة العربية فالحرف العربي تميز بالدقة والجمال ، وعده الباحثون من غير العرب ضرباً من الفن الرفيع في تاريخ هذه اللغة وعلومها فضلاً عن أن تركيب الحرف العربي ، إلى جانب حرف ثانٍ من العربية يكون نمطاً

---

[1] مجلة الأستاذ: 158، 159 ، ينظر جرس الألفاظ :114

[2] ينظر / سر الفصاحة :19، بنظر :العين:64/1،الكتاب :4*433،،4 .

[3] المثل السائر :225/1، 174/4 .

[4] ديوانه :476/4 ،بنظر :العمدة:261/1 .

من أنماط الكتابة الرائعة والبديعة ، ولعل ابرز ميزة يمتلكها الحرف العربي هي القيمة الصوتية الثابتة التي يستطيع العربي وغيره من الأمم الأخرى ، أن القيمة التي تنسب إلى ذلك الحرف من غير أن يختلف مع ناطق آخر لذلك الحرف إذا وضع في كلمة واحدة أو أكثر في الكتابة العربية . وهذا التلاؤم العضوي بين البلاغة الصوتية وتركيب الحروف أعطى جمالية جديدة للكلمة من خلال سياق الجملة ، أما المحدثون فقد أفادوا من التقدم العلمي وساروا على طريقة حديثة قوامها التسجيل الآلي ... ولاشك أن طريقة المحدثين القائمة على تسجيل الأصوات بأجهزة دقيقة أدق في تحديد المخارج الصوتية وتقدير درجة الأصوات وكميتها ، فأن الأذن وأن كانت قادرة على أن تنهض بذلك وقد نهضت به في تلك العهود .[1]

فقد اعترف الكثير من العلماء الأوربيين بالجهود الصوتية التي أرسى قواعدها العلماء العرب ودونها في كتبهم على الرغم من الإمكانيات المحدودة التي كانت آنذاك لديهم ، وقد اكتشف العرب وأول مرة كل التفصيلات الصحيحة لجهاز النطق وإحداث الصوت وبدون أدوات تشريح ، معتمدين على ذهنيتهم الوقادة في الإبداعات الصوتية في البيئة البدوية ، وتعد هذه الجهود رافداً مهماً يصب في الدراسات البلاغية التي تعتمد على نطق الحرف بصورته الصحيحة والفصيحة ، وتنفر عن كل ما هو مخالف لذلك ، هذا ما حملته لنا المصادر اللغوية والبلاغية بعد أن اصبح للحرف العربي مدينة تسمى الكلمة . ولقد توضح لنا هذا من خلال هذه الدراسة ، وستوضح اكثر من خلال مبحث أثر الكلمة في الفصاحة والبلاغة صوتياً .

---

[1] الكتاب : 4 ،204 ، المثل السائر : 191/1 ينظر : الصوت اللغوي في القرآن الكريم : 51 ، 67 ، ينظر مجلة الاستاذ ، كلية التربية جامعة بغداد – العدد الأول : 1978 : 158 .

المبحث الثالث :

لفظ المفردة بين الفصاحة والبلاغة صوتياً :

الكلمة : هي مجموعة من الوحدات الصوتية المؤلفة بطريقة معينة لكي توفر للأشياء الحسية ، والأفكار المجردة ، والأغلبية العظمى من علماء اللغة يستعملون الكلمة ويتحدثون عنها في دراسة اللغة . أما علماء البلاغة العربية فقد نظروا إلى الكلمة بمالها من قيمة جمالية وتعبيرية ، فالكلمة عندهم من حيث هي دالة على معنى ، قد تتميز عن غيرها أحياناً ومن حيث هي صوت فهي أيضاً ذات قيمة جمالية وتعبيرية ، بحيث إذا كانت غير متنافرة الأصوات أحدثت في الأذن متعة ، وساعدت على تذوق المعنى وتوصيله ، ولها علاوة على ذلك قدرة تعبيرية خاصة ، إذا كان جرسها يتفق ما توحي به من دلالة ، وكانت أصواتها سهلة المخرج ، سلسة اللفظ ، مطابقة لما تدل عليه . وتعتمد الدراسات البلاغية والنقدية في تعليل أحكامها ، ورفاهة الحس وانفعال الإنسان بالكلمة المعبرة ، ومن أوائل تلك الجهود ما رواه الجاحظ (255هـ) بان : " الكلام لا يستحق البلاغة حتى يسابق معناه لقطه ولفظه معناه ، فلا يكون لفظه إلى سمعك اسبق من معناه إلى قلبك " [1] ، فلو كانت الكلمة إذا حسنت ، حسنت من حيث هي لفظ ، وإذا استحقت المزية

---

[1] البيان والتبيين : 115/1 .

والشرف استحقت ذلك في ذاتها وعلى انفرادها[1] ، وروي عن أمير المؤمنين الأمام علي (رضي الله عنه) أنه قال : " ما سمعت كلمة عربية من العرب الا وسمعتها من رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، وسمعته يقول : (مات حتف أنفه) وما سمعتها من عربي قبله ، وقوله (صلى الله عليه وسلم) ، (كبرت كلمة تخرج من أفواههم[2]) والمراد بالكلمة مجموع كلامهم[3] ، وقوله تعالى : ﴿**وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ**﴾ [4] وقوله : ﴿ **كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا**﴾ [5] ، فالكلمة ليست صورة ، ولا يمكن ان تكون صورة جامدة ، وإنما هي صوت يلفظ مما يجعلها تتصل بالموسيقى وعلى هذا فاللغة : " تحرص على ائتلاف الجرس ويسير التعبير وصفاء الرونق وخفة الأداء ، فهجرت كل خشن وتجافت عن كل ما يؤذي حركات الصوت ، وتردد النفس[6] " فاللفظة قبل كل شيء صوت ينطق به الإنسان .

شروط فصاحة الكلمة :

كان ابن سنان الخفاجي (466هـ) من أوائل علماء البلاغة الذين أعتنوا بالجانب الصوتي والدلالي للكلمة بحالها من صلة بمفهوم البلاغة ، فقد أقام كتابه (سر الفصاحة) على أساس التفرقة بين مفهوم البلاغة والفصاحة ، ولأنه يدرك إدراكاً واضحاً قيمة الصوت في فصاحة الكلمة ، فقال : " إن ما قدمنا نعت الألفاظ إذا وجدت على شروط عدة ، وحتى تكاملت تلك الشروط فلا مزيد على فصاحة تلك الألفاظ ، وبحسب الموجود منها تأخذ القسط من أوصف ، ويوجد إضدادها تستحق الاطراح والذم ، وتلك الشروط تنقسم قسمين ، فالأول منها يوجد في اللفظة الواحدة على انفرادها من غير أن ينضم إليها شيء من الألفاظ وتؤلف معه ، والقسم الثاني يوجد في الألفاظ المنظومة بعضها مع بعض ، أما الأول فثمانية أشياء ، فهذه الأقسام الثمانية هي جملة إلى ما

---

[1] دلائل الأعجاز : 48 .

[2] نفسه : 405 .

[3] ينظر / مفتاح العلوم : 569 .

[4] الصافات : 171 .

[5] يونس : 33 .

[6] فقه اللغة للانطاكي 211 ، اللغة بين العقل والمغامرة : 64 / النقد اللغوي عند العرب : 110 / بلاغة الكلمة والجملة والجمل : 27 .

يحتاج إلى معرفته في اللفظة المفردة ، بغير تأليف فتأملها وقس عليها ما يرد عليك من الألفاظ فأنك تعلم الفصيح من غيره [1] .

وضع ابن سنان الشرط الأول : أن يكون تأليف تلك اللفظة من حروف متباعدة المخارج ، وعلة هذا واضحة ، وهي ان الحروف التي هي أصوات تجرى من السمع مجرى الألوان من البصر .

والشرط الثاني : أن تجد لتأليف اللفظة في السمع حسناً ومزية على غيرها ، وأن تساوي في التأليف من حروف متباعدة ، كما أنك تجد لبعض النغم والألوان حسناً بتصور في النفس ويدرك بالبصر والسمع دون غيره مما هو من جنسه .

والشرط الثالث : يقول الخفاجي ، أن تكون الكلمة – كما قال أبو عثمان الجاحظ ، غير متوعره وحشية كقول أبى تمام .

لقط طلعت في وجه مصر بوجهه بلا طائر سعد ولا طائر كهل[2]

فان كهلاها هنا من غريب اللغة ، وقد روي أن الأصمعي (216هـ) : لم يعرف هذه الكلمة وليست موجودة إلا في شعر بعض الهذليين[3] وهو قوله :

فلو كان سلمى جارة او اجارة رياح بني سعد رده طائر كهل

الشرط الرابع : يشترط الخفاجي في حديثة عن شروط فصاحة الكلمة قائلاً : " إن تكون الكلمة غير ساقطة ، عامية ، كما قال أبو عثمان الجاحظ " أي كما ذكر ذلك في الشرط الثالث ، ومثال الكلمة العامية ، قول ابي تمام :

جلبت والموت مبدحر صفحته وقد تفرعت في أصالة الأجل[4]

فان – تفرعن – مشتق من أسم فرعون وهو من ألفاظ العامة وعاداتهم أن يقولوا تفرعن فلان لذا وصفوه بالجبروت .

---

[1] سر الفصاحة : 54 .

[2] سان العرب : مادة (كهل)

[3] ينظر / سر الفصاحة : 55 .

[4] الديوان : 16/3 ، ينظر : البيان والتبيين 133/1 ، ثلاث رسائل في إعجاز القرآن : 24 ، 25 .

الشرط الخامس : أن تكون الكلمة جارية على العرف العربي الصحيح غير شاذة ، ويدخل في هذا القسم كل ما ينكره أهل اللغة ، ويرده علماء النحو من التصرف الفاسد في الكلمة.

الشرط السادس : ألا تكون الكلمة قد عبر بها عن أمر آخر يكره ذكره فإذا أوردت وهي غير مقصود بها ذلك المعنى قبحت وان كملت فيها الصفات التي بيناها .

الشرط السابع : أن تكون الكلمة معتدلة غير كثيرة الحروف .

الشرط الثامن : أن تكون الكلمة مصغرة في موضع عبر بها فيه عن شيء لطيف أو خفي أو قليل أو ما يجري مجرى ذلك [1] .

واقرب ما بأيدينا ما قاله عن التصغير ، فهو يرفض ان يكون التصغير للتعظيم ، لأن التفسير اللغوي جاء من : صغر الشيء إذا صول ، وليس فيها معنى : عظم ، لا في الحجم ولا في الأثر ، ومن ثم راح الخفاجي يرفض بعض التصغير ويقبل الاخر ,

وحدد القزويني (639هـ) : فصاحة المتكلم بأنها (ملكة) ولم يقل (صنعة) وعلق القزويني ههذ الملكة باللفظ المفرد ومركباً ، وتابع ابن سنان وابن الاثير واشترط في فصاحة المفرد خلوصه من الكراهية في السمع ((بان تمج الكلمة ويتبرأ من سماعها كما يتبرأ من سماع الاصوات المنكرة ، فأن اللفظ من قبيل الاصوات ، والاصوات ، منها ما تستلذه النفس سماعه ومنه ما تكره سماعه ، وحسن تأليف الكلمة من الحروف فيما يتعلق بالفصاحة في اللفظ المفرد ، وتأصيل ذلك على اساس المخارج المتباعدة ، وهذا ما بينه ابن سنان في شروط فصاحة الكلمة .

اعتبرت الشروط الثمانية التي وضعها ابن سنان الخفاجي (466هـ) لفصاحة الكلمة معياراً عند النقاد والبلاغيين ، فالذي ذهب اليه ابن سنان بأن تمييز فصاحة اللفظة امر ذاتي هو ما تقرره الدراسات الجمالية المعاصرة ، كما اقرته الدراسات النقدية فيرى ان اللذة الجمالية ترتبط بالذات المتأملة لا بالموضوع ، وتلتصق بشكل الموضوع لا باستيعاب مضمون الموضوع عن طريق شروط ذهنية فطرية عند الانسان يستطيع بها ادراك الحكم الصحيح والتمييز بين الجميل والقبيح ، فكان ابن سنان يبحث عن قيم للفصاحة تجعلها قريبة ومتصورة .

يقول عبد الجبار (366هـ) : إن حسن النغم وجمال اللفظ لا معتبر له في الفصاحة ، مع انهما يزيدان الكلام رونقا وبهاءً ، ويرد هذه الفكرة عبد القاهر الجرجاني (471هـ) بمثل قوله: "لا نخلو الفصاحة من أن تكون صفة اللفظ محسوسة تدرك بالسمع أو تكون صفة فيه معقولة تدرك

---

[1] ينظر : سر الفصاحة : 79 ، ومن يريد أن يطلع أكثر ينظر من صفحة 54 إلى 99 .

بالقلب " ومحاول أن تكون صفة في اللفظ محسوسة ، لأنها لو كانت كذلك لكان ينبغي السامعون للفظ الفصيح في العلم بكونه فصيحان ، وإذا بطل أن تكون محسوسة وجب الحكم ضرورة بأنها صفة معقولة ، وبذلك نبكر أن يكون أي جمال لفظي له شأن في الفصاحة [1] ، ويواصل الجرجاني حديثه عن الفصاحة ، قلنا في اللفظة أنها فصيحة أن تكون الفصاحة واجبة لها بكل حال ، ومعلوم أن الأمر بخلاف ذلك ، فأنا نرى ، اللفظة تكون في الفصاحة في موضع آخر ، وجب أن نعلم قطعاً وضرورة أنهم وأن كانوا قد جعلوا الفصاحة في ظاهر الاستعمال من صفة اللفظ ، فأنهم لم يجعلوا وصفاً له في نفسه ، ومن حيث هو صدى صوت ونطق لسان ، ولكنهم جعلوها عبارة عن مزيّة أفادها المتكلم في المعنى[2] .

وقد بين ابن سينا (428) أن قيم الصوت في الألفاظ هبة طبيعية في خلق تتميز بتقطيع الحروف وتركيبها ليدل بها على ما في النفس من أثر ، وقال: " فما يخرج بالصوت يدل ما في النفس ، وهي التي تسمى أثاراً "[3] ، وعلى هذا فأن العناية بقيم الألفاظ الصوتية في التعبير الأدبي ، يعني استقصاء ما تحمله من إيحاء وانفعال يصبه الكاتب أو الشاعر في ألفاظه .

فقد نبهت الدراسات المعاصرة على ضرورة استقصاء هذا الجانب في التعبير الأدبي لأن اللغة ، لا تعدو أن تكون أصواتا بتركيب منها ما يسمى بالكلمات أو الألفاظ . ومن هذا تؤلف الجمل والعبارات ، وهذه الأصوات التي تصدر منا ليست هدفاً لذاتها ، وإنما هي وسيلة يتخذها للتعبير عن الدلالات والخواطر التي تحول بأذهاننا ، وان ابن الأثير (637هـ) كان أوضح من السابقين تصوراً وفهماً للفصاحة ، وقد أهتم بها اهتماماً كبيراً ، وصحح كثيراً من الآراء في كتابيه المثل السائر والجامع الكبير ، يقول عن الفصاحة : " اعلم أن هذا باب معتذر على الوالج ومسلك متوعر على المناهج ، ولم يزل العلماء من قديم الوقت وحديثه يكثرون القول فيه والبحث عنه ، ولم أجد من ذلك من ما يقول عليه إلا القليل وغاية ما يقال في هذاب : أن الفصاحة هي الظهور والبيان في اصل الوضع اللغوي ، يقال : أفصح الصبح ، إذا ظهر ، ثم أنهم يقفون عند ذلك ولا يكفون عن السر فيه"[4] ومراد ابن الأثير بالفصاحة هو إدخال المفاهيم التي سبقته وأقر بها ، فقد بحث اللفظة المفردة والألفاظ المركبة في القسم الذي افرده في كتابه المثل السائر للصناعة اللفظية

---

[1] دلائل الأعجاز : 301 ، ينظر : البلاغة تطور وتأريخ : 117 .

[2] نفسه : 402 ، ينظر : النقد البلاغي عند العرب : 217 .

[3] الشفاء ، لأبن سينا، القسم الثالث ، العبارة ، 2 ، 3 ، ينظر : جرس الألفاظ:97/ملامح من تأريخ اللغة العربية:128.

[4] المثل السائر : 64/1 ، ينظر البلاغة العربية د. أحمد مطلوب : 43 / نهاية الإيجاز : 12 .

، ونكاد لا نجد مزيداً على هذه القيم الفنية للألفاظ التي اقرها ابن الأثير بعد أن حددها ابن سنان إضافة إلى الملاحظات الأولية التي افردها فخر الدين الرازي (606هـ) في هذا الجانب .

ولعل يحيى بن العلوي (749هـ) اكثر حظاً من القزويني في إظهار الجانب الفني لقيم الألفاظ الصوتية وعلى الرغم من أنه خلط في قوله بين ابن سنان والرازي وابن الأثير في تقرير خصائص الفصاحة حيث يقول محاكياً ابن الأثير : " فالألفاظ في سهولة تركيبها وعثورته وسلاسته بمنزلة الأصوات في طنينها ولذة سماعها ، ولهذا فأنه يستلذ بصوت (القمري) ويكره صوت الغراب ويستظرف سهيل الفرس ويستنكر نهيق الحمار فإذا تمهدت هذه القاعدة فأعلم أن مقصودنا من الفصاحة يحصل بالبحث عن أسرارها " [1]

التنافر :

نقل البلاغيون عن ابن جني في كتابه (سر صناعة الأعراب) وأفادوا من تقسيماته إذ قسم كلام العرب إلى أقسام ثلاثة ، وهذا ما أفاد منه ابن سنان الخفاجي لحسن الكلمة ان تتباعد حروفها ، ومن هذه التقسيمات .

1. ما تباعدت حروفه وهو اكثر الكلمات مثل (عجب) .
2. ما ضعّف فيه حرف من الحروف مثل (مدّ) .
3. وأقل كلمات اللغة تلك التي تقاربت فيها الحروف . [2]

وقد بنى أهل البلاغة ، على قول ابن جني قواعد لتنافر الحروف يمكن ان تلخص خير التراكيب في الكلمات وأكثرها شيوعاً تلك التي تبدأ بحرف من حروف الحلق ، يليه حرف من حروف ، الفم يليه حرف من حروف الشفة مثل (عجب) ... واشترطوا في حسن الرباعي والخماسي أن يتضمن الواحد منهما حرفاً من حروف الذلاقة ، فأهل البلاغة في كتبهم اشترطوا في وصف الكلمة بالفصاحة ان تكون خالية من تنافر الحروف ويضربون لهذا أمثلة منها المثل المعروف (الهعخع) وهو نبات في الصحراء ثم ينسبون إلى الخليل ، انه قال بشأن هذه الكلمة : لقد سمعنا كلمة شنعاء هي (الهعخع) ثم يختلون في صحة هذه الكلمة ويرويها بعضهم (الخعخع) ، ثم يستشهدون بكلمة أخرى يقال إنها وردت في بيت لأمريء القيس ويرونها أقل شناعة وهي

---

[1] الطراز : 104/1 ، ينظر : جرس الألفاظ : 121 / لسان العرب مادة (فصح) ، 542/2 / المفردات في غريب القرآن : 388 / المزهر : 184/1 .

[2] سر صناعة الأعراب : 75/1 ، ينظر : موسيقى الشعر : 26 ، 27 .

(مستشزرات) * ، ولما حاولوا تفسير تنافر الحروف في هذين المثالين ضلوا الطريق وتباينت الجهود ، فرأوا في المثال الأول أن العين والهاء لا يأتلف واحد منهما مع الأخر من غير فصل والحقيقة ان الهاء والعين في (الهعخع) قد فصلت بينهما الضمة فلم يلتقيا التقاء مباشراً ، إما تفسيرهم لتنافر الحروف في مستشزرات فبعيد عن الصواب أيضاً ، وكان الواجب أن يعزى هذا إلى مجاورة السين للتاء مع مجاورة الشين للزاء في كلمة الواحدة وهو ما ندر في اللغة العربية. أما السكاكي (626هـ) فقد عدّ الفصاحة قسمين :

أولهما : عائد إلى المعنى وهو خلوص الكلام من التعقيد .

وثانيهما : راجع إلى اللفظ ، وهو أن تكون الكلمة عربية أصيلة ، وعلامة ذلك أن تكون على السنة الفصحاء من العرب والموثوق بعربيتهم أدور ، واستعمالهم لها اكثر ، لا مما أحدثها المولدون ولا مما أخطأت فيه العامة ، وأن تكون أجرى على قوانين اللغة ، وأن تكون سليمة عن التنافر [1].

وقد أفاد الخطيب القزويني (739هـ) من جهود سابقيه ، فرتب بحث الفصاحة ، ترتيباً علمياً وجعله مقدمة للبلاغة [2] ، واستناداً إلى جهود البلاغيين أن الفصاحة صفة في المفرد والكلام والمتكلم ، ففصاحة المفرد ، هي في خلوصه من تنافر الحروف ، والغرابة ، ومخالفة القياس اللغوي أو الصرفي . والفصاحة في الكلام : خلوصه من ضعف التأليف وتنافر الكلمات والتعقيد مع فصاحة المفردات والفصاحة في المتكلم : ملكة يقتدر بها على التعبير عن المقصود بلفظ فصيح .

وقسم القزويني الفصاحة على فصاحة مفرد وفصاحة كلام وفصاحة متكلم ، في القسمين الأولين تجرى في أثر إبن سنان ، وجعل فصاحة المفرد وخلوصه من تنافر الحروف ومخالفة القياس الصرفي ، أما فصاحة الكلام فخلوصه من ضعف التأليف وتنافر الكلمات والتعقيد مع فصاحة المفردات ، ونراه يقف عندما اشترطه ابن سنان في المفردة من حسنه في السمع واستشهاده على ما تكرهه الأسماع وتستثقله ، قول المتنبي :

كريم الجرشي شريف النسب

وان كلمة الجرشي في رأي القزويني ، مما تنبو عنه الأسماع ويقول القزويني ، فيه نظر ، وكأنه يرى أن مثل هذه الكلمة ، يدخل في وصف الغرابة الذي ذكره ابن سنان ، ووقف ، أيضاً

---

* غدائره مستشزرات الى العلا تضل المداري في مثنى ومرسل ، ينظر : الديوان : 34 .

[1] مفتاح العلوم : 196 ، ينظر : جرس الألفاظ : 117 .

[2] اساليب بلاغية : 42 ، 49 ، ينظر : علم أساليب البيان : 29 .

عندما أشترط في فصاحة الكلام من خلوه من كثرة التكرار ولم يقف عند فصاحة المتكلم لأنها تعود الى الكلام الفصيح [1]. فالأصوات منها ما تستلذه النفس ومنه ما تكره سماعه .

المبحث الرابع : التركيب الجملي وآثر الأصوات فيه :

تكتسب الكلمات في تركيبها نغمة ذاتية محسوسة وتكون العبارة المؤلفة ذات طبيعة متميزة عن سواها من أنواع الكلام ، وقد تناول علماء البلاغة تراكيب الكلمة والجملة والجمل ومن أنواع الكلام ما ذكره الجاحظ : "فمن الكلام الجزل والسخيف والمليح والحسن والقبيح وكله عربي وبكل قد تكلموا"[2] وهذا كله يعتمد على تركيب الحروف والألفاظ ووضعها في سياق النظم المعبر أشبه بإيقاع الألحان.

ولان كل لفظة تحمل في طبيعة صياغتها صوتاً ونغماً تعبيرياً في الاستحسان والقول ، وأن أي تغير في هذا النغم تفقد قيمتها ويخفت صوتها وتذهب مزيتها . وأكثر الجاحظ من الحديث عن حسن الصوغ وكما التركيب ودقة تأليف اللفظ وجمال نظمه ، وأداة شققه بجودة اللفظ وحسن بهائه إلى أن قدمه على المعنى.

وقال الجاحظ : " ولن تكون حركات اللسان لفظاً ولا كلاماً موزوناً ولا منثوراً إلا بظهور الصوت " أقتران الألفاظ بالصوت وسيلة الإنسان التعبيرية في الكلام ، والتصويت سمة يشترك فيها الإنسان والحيوان " [3].

وقد ولد تطور الكلمات في جميع مستوياتها الصوتية والأفرادية والتركيبية ، لأنها الأصل في الاشتقاق في النظام اللغوي للعربية ، وهكذا يظهر أن الكلمة والجملة نشأتا معاً ثم تميزاً بعضهما

---

[1] ينظر : مقدمة التلخيص للقزويني ، ينظر : البلاغة تطور وتاريخ : 337 .

[2] البيان والتبيين : 144/1 ، 79/1 .

[3] ينظر / الحيوان : 90/4 ، ينظر : البلاغة تطور وتاريخ : 52 .

عن بعض نتيجة التطور الصوتي للصيغة اللغوية والإنسانية الأولى الذي تمحور تنويع التقطيع الصوتي لمكونات تلك الصيغة [1]. قال ابو تمام :

ليس الحجاب بمقص عنك لي أملا ان السماء ترجي حين تحتجب[2]

فان الشاعر لم يربط الجملتين ، (وليس الحجاب) و (ان السماء) بالواو لما بينهما من كمال الاتصال ، وسر بلاغة ترك الواو العطف في هذا الموضوع هو بث الروح في الأسلوب الأدبي وجعله حياً نابضاً موحياً ، فالقارئ أو السامع تجده يتفاعل مع الأديب المعنى ، ويفهم معاني أخرى غير الظاهرة التي تطفوا على السطح [3].

فهنا تظهر أهمية الصوت في التركيب اللغوي في ربط الجمل وتناسقها .

فالمراد من التركيب الجملي ، أن تكون هناك كلمة استعملت استعمالين في موضعين من الكلام الأول يكون مستحسناً والثاني مستهجناً مما يدلنا أن العبرة في دلالة اللفظ إنما هي بصحة تأليفه مع غيره وجودة تركيبه الجملي وهذا ما يميل إليه عبد القاهر الجرجاني (471هـ) في اغلب معالجاته البلاغية ويشير إليه بقوله : " انك ترى الكلمة تروقك وتؤنسك في موضع ثم تراها بعينها تثقل عليك وتوحشك في موضع آخر "[4] ، والجرجاني هو الذي وضع نظريته الرائعة التي ما تزال كثير من الدراسات الحديثة تشيد بجهوده في هذه النظرية التي تؤكد بكل دقة مصيبة في وضعها من التركيب الجملي وقد روعي فيها الطبع في الانتقاء على إنها ذات وقع موسيقي خاص يحقق الدلالة من جرس الكلمة في توافق حروفها وتلاؤم مقاطعها .

وقال : " واعلم ان مثل واضع الكلام مثل من يأخذ قطعاً من الذهب أو الفضة فيذيب في بعض حتى تصير قطعة واحدة ... ومعلوم أن سبيل الكلام سبيل التصوير والصياغة وأن سبيل المعنى الذي يعبر عنه سبيل الذي يقع التصوير والصوغ فيه ، كالفضة والذهب يصاغ منهما خاتم أو سوار ... اعلم أنه لا يصلح تقدير الحكاية في النظم والترتيب ، بل لن تعدو الحكاية الألفاظ وأجراس الحروف وذلك أن الحاكي هو من يأتي بمثل ما أوتي به المحكي عنه ، نحو أن يصوغ إنسان خاتماً فيبدع في صنعته ، ويأتي في صناعته بخاصة تستغرب فيعمد واحد آخر فيعمل

---

[1] النظرية اللغوية العربية الحديثة : 73 .

[2] ديوانه : 154/1 .

[3] ينظر / من بلاغة النظم : الدكتور احمد بدوي : 190 .

[4] دلائل الأعجاز : 38 ، ينظر : الصورة الفنية في المثل القرآني : 236 .

خاتماً على تلك الصورة والهيأة ويجيء بمثل صنعته فيه والنظم والترتيب في الكلام ، عمل يعمله مؤلف الكلام في معاني الكلم لا في ألفاظها ، وإنما الألفاظ إلى النظم والترتيب [1].

وأشباه ذلك مما لا يعدو علمك فيه اللفظ وجرس الصوت ، ولا يمنعك ان لم تعلم بلاغته.

قال تعالى: ﴿**أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمْيَ** ﴾ [2] ، ليس إسماع الصم مما يدعيه أحد فيكون ذلك للإنكار ، وإنما المعنى فيه التمثيل والتشبيه ، وان ينزل الذي يظن بهم انهم يسمعون ، أو انه يستطيع أسماعهم ، منزلة من يسرى انه يسمع الصم ويهدي العمى ، ثم المعنى في تقديم الاسم وان لم يقل أتسمع الصم .

فالصوت يظهر متقدماً في النسق القرآني على قدر ما يثير الذهن إلى تصوير المعنى الى تناسق الأداء ، إما من حيث المعنى فتتقدم لفظة على أخرى لتؤدي معنى مقصوداً ، فأن للتقديم والتأخير اثر في بناء النسق الصوتي للجملة من حيث اتسامها بنفسها مع ما قبلها وما بعدها ، ولكن ليس على حساب المعنى ، فأن تقدم اللفظ والمعنى ، له على فاصلة مثلاً أو غير ذلك لانسجام الصوت مع اللفظ والمعنى.

وقال تعالى: ﴿**وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْداً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ** ﴾ [3] ، وانك لم تجد ما وجدت من المزية الظاهرة والفضيلة القاهرة إلا لأمر يرجع إلى ارتباط هذا الكلم بعضها ببعض ، وان لم يعرض لها الحسن والشرف إلا من حيث لاقت الأولى بالثانية...الفضل الناتج بينهما ،وحصل من مجموعها فتأمل ،هل ترى لفظة منها بحيث لو أخذت من بين أخواتها ، وأفردت من الفصاحة ما تؤديه وهي في مكانها من الآية (ابلعي) واعتبرها وحدها من غير أن تنظر إلى قبلها وما بعدها وكذلك فأعتبر سائر ما يليها ومعلوم أن مبدأ العظمة في أن نوديت الأرض ، ثم أمرت ، ثم في أن كان النداء (يا) دون (أي) نحو (يا أيها الأرض) ثم إضافة (الماء) إلى (الكاف) دون إن يقال: (ابلعي الماء) ثم ان اتبع نداء الأرض وأمرها بما هو من يقال شأنها ،ونداء السماء وأمرها كذلك بما يخصها ...تعلقاً باللفظ من حيث ، هو صوت مسموع وحروف تتوالى في النطق [4]. يتضح من تحليل الآية الكريمة ان التركيب فيها من حروف نداء تعلق كلم بكلم مراده كله إلى النظم وتناسق الأصوات المسموعة مع سياق الآية ، وذلك أن الكلمة ليست جميلة بذاتها ، وأنا تكتسب جمالها

---

[1] نفسه : 254 ، 361 ، 413 .

[2] الزخرف : 40 ، ينظر : دلائل الأعجاز : 120 .

[3] هود : 44 .

[4] ينظر : دلائل الأعجاز : 46 .

من نظم العبارة أي وضعها وضعاً خاصاً ، فالجمال فيها ليس ذاتياً أو مطلقاً ، والألفاظ لا تقيد حتى تؤلف ضرباً خاص من التأليف ويعمد بها إلى وجه في التركيب ، يقول الجرجاني : " فلو انك عمدت إلى بيت شعر أو فصل نثر فعددت كلماته عداً كيف جاء واتفق وأبطلت نضده ونظامه الذي عليه بني وفيه افرغ المعنى وأجرى" [1].

يقول الزمخشري (538هـ) : " والذي هو ارسخ في البلاغة عرفاً أن يضرب عن هذا المحال وان يقال أن قوله : (ا لم) جملة برأسها أو طائفة من حروف المعجم مستقلة بنفسها و(ذلك الكتاب) جملة ثانية و(لاريب فيه) ثالثة و(هدى للمتقين) رابعة ، وقد أصيب بترتيبها مفصل البلاغة وموجب حسن النظم ، حيث جيء بها متناسقة هكذا من غير صرف نسق (عطف) وذلك لمجيئها متآخية آخذاً بعضها بعنق بعض بعد أن رتبت هذا الترتيب ، الأنيق ونظمت هذا النظم السري من نكتة ذات جزالة ، ففي الأولى الحذف ، وفي الثانية ما في التصريف من الفخامة ، وفي الثالثة ما في تقديم الريب على الظرف ، وفي الرابعة الحذف ووضع المصدر الذي هو هدى موضع الوصف الذي هو هاد وإيراده منكراً والإيجاز في ذكر المتقين " [2].

وجد ابن الأثير (63هـ) : " أن تفاوت التفاضل يقع في تركيب الألفاظ اكثر مما يقع في مفرداتها لان التركيب اعسر واشق "[3] ويتعرض لدلالة اللفظ في تركيبين مختلفين ، فنجد اللفظ مستكرها في تركيب ، وهو نفسه مستحسناً في تركيب أخر ، ويضرب لذلك مثلاً فيقول: "وسأضرب لك مثلاً يشهد بصحة ما ذكرته ، وهو انه قد جاءت لفظة واحدة في آية من القرآن وبيت من الشعر فجاءت جزلة متينة في القرآن ، وفي الشعر ركيكة ضعيفة فأثر التركيب في هذين الوصفين الضدين " [4]إما الآية فهي قوله تعالى: ﴿ **وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ وَاللَّهُ لا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ** ﴾ [5]

---

[1] أسرار البلاغة : 8 ، ينظر : منهاج البلغاء : 83 .

[2] الكشاف : 92/1 ، ينظر : البلاغة تطور وتاريخ : 223 .

[3] المثل السائر : 214/1 ، ينظر : من بلاغة القرآن : 71 ، 72 .

[4] نفسه :

[5] الأحزاب : 53 .

قال المتنبي :

تلذ له المروءة وهي تؤذي ومن يعشق يلذ له الغرام[1]

يقول ابن الأثير: " وهذا البيت من أبيات المعاني الشريفة إلا أن لفظة (تؤذي)قد جاءت فيه وفي الآية من القرآن الكريم فحطت من قدر البيت لضعف تركيبها ، وحسن موقعها في تركيب الاية " [2]

فلفظة (يؤذي) التي وردت في الآية الكريمة ، جاءت سلسة عذبة خفيفة على السمع ترتاح لها النفس وتطمئن لها القلوب ، لأن الصوت القرآني له تأثير في نفس السامع فلا يمله ولو تكرر مرات عدة . أما لفظة (يؤذي) التي وردت في البيت الشعري ، فمن الطبيعي يختلف صوتها من صوت الآية الكريمة ، فأذا قرئت أكثر من مرة تملها الآذن وينفر منها السمع ويستثقلها المتلقي خلاف ما وردت في القرآن الكريم .

قال ابن الأثير : " وله البيان الذي يفض منه نسق الفريد ولا يخلق نصرة لباسة الجديد وهو فوق كلام المجيد ، ودون القرآن المجيد واذا اختصر واصفه قال : أنه يستحيل سمع الطروب ويستحق وقار القلوب " [3]

ومن الألفاظ ما هو حسن الجرس في حالة الأفراد والجمع تقيل ينبو عنه السمع في حالة التثنية كلفظة (رمح) فهي حسنة وجمعها (رماح) لا تقل عنها حسناً أن لم تزدها ، ولكن لم يعرف تثنية (الرماح) فأخذ على ابي الطيب المتنبي :

معنى بعدما التفت الرماحان ساعة كما يتلقى الهدب في الرقدة الهدبا

فأنكروا تثنية الرماح وهو جمع رمح ، قال القاضي الجرجاني : " والتثنية جائزة في مثل هذا إذا اختلفت الضروب والأجناس " [4]

ومن المجموع ما يختلف استعماله ، وأن كان متفقاً في لفظه وهو ما يسمى (المشترك) مثل لفظه (العين) وعين الناس ، فأن الحسن في جمع العين الناظرة على (عيون) وعين الناس تجمع على (أعيان) قال ابن الأثير : " وهذا يرجع فيه الاستحسان إلى جائز الوضع اللغوي ، وقد شذ هذا الموضع عند المتنبي .

---

[1] ديوانه : 75/4 .

[2] المثل السائر : 215/1 .

[3] المثل السائر : 167/1 .

[4] الوساطة : 449 .

والقوم في أعيانهم خزر والخيل في أعيانها قيل

فجمع العين الناظرة أعيان وليس لهذا الجمع حلاوة (عيون) على اللسان ، والذوق يأتي ذلك وأن كان جائز ، واعيان ثقيلة على النطق و (عيون) صوت جميل .

الـذوق :

عرف علماء العرب الذوق منذ وقت مبكر وعدوا معياراً نقدياً يقاس عليه الفن البلاغي ، وليس من شك أن الأذواق تتباين تبعاً لتباين الحواس في الطبيعة البشرية ، ومن المؤكد ان الجمال والقبح وهما في ذلك ميزان الحلاوة والمرارة ليس صفات للأشياء في ذاتها ، بل هما مرتبطان كلياً بالعاطفة سواء كانت باطنية أو ظاهرية ، إلا أنه يجب أن تعترف بوجود صفات معينة للأشياء مؤهلة طبيعياً لأحداث هذه المشاعر الخاصة . الذي يختلف بين الناس وتتعدد الأسباب لذلك الاختلاف ، والذوق بمعناه الخاص ، وهو الذوق الجمالي الذي يحكم على الجمال للبحث في العمل الفني ، ويكاد يظفر باتفاق بين الجميع كما تظفر قواعد النحو في العبارة اللغوية باتفاق الجميع ، وحين يصدر شخصان حكمين مختلفين على عمل فني هذا يرضى عنه وذاك ينكره ، فان ذلك لا يدل حتماً على تعارض ، إذ قد يكون حكم أحدهما عليه بناء على الذوق بمعناه العام ، وهو في هذه الحالة ينصب حكمه على عناصر أخرى غير جمال العمل الفني بل ربما كانت خارجة عن العمل ويتأثر الشخص ، فهو يقول : هذا حسن وهذا قبيح [1].

فمنهج الخليل العلمي في ترتيب الحروف من الحلق إلى الشفتين وتأثره بالموسيقى في ما ضبطه من قواعد لتحديد أوزان الشعر العربي ، وفي شرحه لبعض الظواهر الصوتية كإرجاعه ميل الحروف إلى التأليف داخل الكلمة ، إلى سبب نغمي ذوقي ، وهو أن اللغة مثل الموسيقى تخضع من حيث انتظام وحداتها الصوتية الصغرى في سياق الكلمة لذوق الأمة التي بها تتكلم ، فرتب الحروف على ذوقه المرهف لما يدل عليه من شعور الخليل بالحاجة إلى التجريب في دراسة الأصوات ، ولأن الطريقة التي استعملها هي المعتمدة حالياً عند الالسنيين المعاصرين في النطق بالصوامت : [2] ، ولم يقتصر الذوق على الإنسان وحده ، وإنما بعض الطيور تمتلك ذوقاً فنياً مرهفاً وإحساساً موسيقياً متطوراً فتشتغل بصوتها الجميل في الغناء لمجرد المتعة والتسلية واللعب

---

[1] الأسس الجمالية ، الدكتور عزالدين إسماعيل : 86 ، ينظر : جرس الألفاظ : 30

[2] تكنولوجيا اللغة : 8 .

بالأصوات وتغرد بصوت ساحر جميل في كل الأيام ، ولو أردت سماع النغمات الموسيقية في أروع أداء وبطرية طبيعية ساحرة فاستمع إلى طائر القيثارة (Lyrebird) وهو يعزف لحنه الجميل المميز [1].

كل الفلاسفة تقريباً ذهبوا إلى القول بوجود حاسة خاصة هي الذوق الفني التي سميت فيما بعد الحاسة السادسة وعملها الاستمتاع بالأشياء الجميلة ، ومما رواه الجاحظ عن طبيعة أذواق الناس في اختيار الكلمات ويستعملونها وغيرها أحق بذلك منها ، إلا ترى أن الله تبارك وتعالى لم يذكر الجوع ألا في موضع العقاب [2]. وفي ذلك يقول الدكتور داود سلوم : " أدراك الجاحظ أن للعرب ذوقاً خاصاً في اختيار لفظ دون لفظ واستعمال كلمة دون كلمة ، وإلا فمالهم يستعملون لفظة ويتركون أخرى ويجوزون المنطق باسم ولا يجوزونه في الأخر ، وما هذا الذي يحكم الناس ويدفعهم إلي استعمال هذا الشيء دون ذاك الشيء ، وما الذي يجعلهم يفضلون شيئاً على شيء أخر أن هو إلا الذوق " [3] وعد ابن سنان الذوق مقدماً على العروض بقوله : " والوزن هو التأليف الذي يشهر الذوق بصحته او العروض ، إما الذوق فلآمر يرجع إلى الحس وإما العروض فلأنه قد حصر فيه جميع ما عملت العرب عليه من الأوزان ... والذوق مقدم على العروض ، فكل ما صح فيه لم يلتفت إلى العروض في جوازه " [4] .

يقول ابن طباطبا : " وللاستعارة الحسنة على اختلافها مواقع لطيفة عند الفهم لا تحد كيفيتها كمواقع الطعوم المركبة الخفيفة التركيب اللذيذة المذاق " [5]

فمصطلح الذوق في النقد والبلاغة اصطلاح مجازي من ذوق الطعوم وأداة هذا التذوق اللسان . لذلك حد ابن خلدون الذوق ببلاغة اللسان بقوله : " إن لفظة الذوق يتداولها المعنيون بفنون البيان ومعناها حصول ملكة البلاغة باللسان " [6] ، وان النطق وهو الصوت المسموع والنظم عند العرب ملكة قبل كل شيء كما عبر عنها ابن خلدون .

ومما يؤكد ذلك قول الجرجاني : " فأنك تتبين من تفاصيل الصوت بأن يعاد عليك حتى تسمعه مرة ثانية ما لم تتبينه بالسماع الأول وتدرك من تفصيل طعم الذوق بان تعيده إلى اللسان

---

[1] لغة الهمس : 30 .

[2] ينظر / البيان والتبيين : 20/1 ، ينظر : إمراء البيان : 413 ، 340 .

[3] النقد المنهجي عند الجاحظ ، الدكتور داود سلوم : 77 ، ينظر : البلاغة العربية : 28 .

[4] سر الفصاحة : 279 .

[5] عيار الشعر : 15 .

[6] المقدمة لأبن خلدون : 562 .

ما لم تعرفه في الذوق الأول ... ثم تعلم أنك في أدراك تفضيل ما تراه وتسمعه أو تذوقه كمن ينتقي الشيء من بين جملة ، وكمن يميز الشيء مما اختلط به " [1] ، فالجرجاني يفاضل بين الأذواق من شيء إلى آخر ومراد هذا كله على الحس المرهف والصوت العذب الذي يثير مشاعر الناس .

ولعل من أوضح الأحكام النقدية التي سجلتها كتب البلاغة والنقد ما يتعلق بوضع الكلمات في غير موضعها ، وتعقيد الألفاظ ووحشيها وحوشيها والمعاضلة ، وكل ما جرى مجراها في بيان المحاسن والمساوئ ، ولقد حفلت لنا الكتب بشواهد تطبيقية بينة ميزت فيها بين ما هو حسن يهش له الذوق وبين ما هو قبيح مسموع ، ويعلل لنا هذه الأحكام القاضي الجرجاني بقوله : "وأنت تعلم أن العرب مشتركة في اللغة واللسان ، وأنها سواء في النطق والعبارة ، وإنما تفضل القبيلة أختها بشيء من الفصاحة ... فأن سلامة اللفظ تتبع سلامة الطبع ، ودماثة الكلام بقدر دماثة الخلقة وأنت تجد ذلك ظاهراً في أهل عصرك وأبناء وزمانك وترى الجافي الجلف منهم ، كز الألفاظ ، وعسر الخطاب ، حتى انك ربما وجدت ألفاظه في صوته ونغمته وفي جرسه ولهجته ومن شأن البداوة أن تحدث سبعد ذلك "[2] .

وذكر ابن الأثير أن الكلمة تكون قبيحة إذا كانت غريبة غير مألوفة ، وكونها غير مألوفة ناشئ من قبح مخارجها ، وهذا منطق فاسد ، والأساس الذي بنى عليه هو أن الألفاظ من حيز الأصوات أساس واه ، لأننا نستحسن أصوات البلابل وتستقبح أصوات الغربان من حيث إنها جرس محض ، أما الألفاظ فلا نقدر أن نتصورها بدون أمانيها خذ مثلاً كلمة (نهيق) أليست هذه الكلمة حكاية لصوت الحمار المجمع على قيمة ؟ أهذا يجعلها قبيحة في ذاتها ؟ لو جاز أن يقال هذا لحرم على الشعراء أن يصفوا الأصوات القبيحة جملة ، لا ، بل لبطل التعبير عن مظاهر القبح الموجودة في الدنيا مرة واحدة [3] ، هذا كله ينصب على الذوق وتميز الصوت الحسن من الصوت الغير الحسن ، أما نهيق الحمار فاعتقد انه لم يكن مصيباً في ذلك لان وصف صوت هذا الحيوان أنكره القرآن الكريم لقبحه في قوله تعالى : ﴿**إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ**﴾ [4] ، وقد سبق لي وأن أومأت إلى هذا في مدخل هذه الدراسة .

وقد أبدع ابن الأثير (538هـ) بتصوير قيم الألفاظ الذوقية بعد أن صور قيمها السمعية : "وان لها في الفم أيضا حلاوة كحلاوة العسل ومرارة كمرارة الحنظل ، وهي على ذلك تجرى النغمات

---

[1] أسرار البلاغة : 138 .

[2] الوساطة بين المتنبي وخصومه : 18 .

[3] المثل السائر : 65/1 ، 66 ، ينظر : علم أساليب البيان : 25 .

[4] لقمان : 19 .

والطعوم " [1] فوصف إبن الأثير هذا يدل على الذوق السليم البعيد عن أي شيء . وقد وصف الزركشي الذوق بقوله : إن معرفة مقامات الكلام لا تدرك إلا بالذوق ، اعلم أن معرفة الفصيح والأفصح والرشيق والأرشق ، والجلي والأجلى والعلي والأعلى من الكلام أمراً لا يدرك إلا بالذوق ... وليس كل من اشتغل بالنحو أو باللغة وبالظفر كان من أهل الذوق وممن يصلح لانتقاد الكلام ، وإنما أهل الذوق الذين اشتغلوا بعلم البيان " [2]

وقبيل أن ننتهي من الفصل الأول نود الإشارة إلى أن الصوت اللغوي عند البلاغيين كان المهاد الحسي لوصف الكلام في محور الاختبار والتوزيع من الحرف إلى النظم ، والصوت كما عرفه الجاحظ هو آلة اللفظ والجوهر الذي يقوم به التقطيع وبه يوجد التأليف ، فعلماء الأصوات لا يرون في الكلام المتصل حدوداً تميز بين كلمة وأخرى ، فلا يستطيع السامع تحليل الجملة أو العبارة إلى مجاميع صوتية كل مجموعة منها تنطق على ما يسمى بالكلمة إلا حين يستعين بالدلالات التي تتضمنها الجملة أو العبارة فكلمات الجملة متداخلة متشابكة يرتبط بعضها ببعض في أثناء النطق ارتباطاً وثيقاً ، وليس في الكلمة عنصر صوتي يحدد بدأها أو نهايتها حين تكون في الكلام المتصل ، فالعرب أصحاب أدب وفكر وذوق وهم الذين أوجدوا الأسس الأولى لدراسة الصوت ، فالنظام الصوتي يستقر منذ الطفولة ويستمر طوال الحياة ، فالإنسان يحتفظ حتى آخر حياته بمجموعة الحركات التي تعودت عليها أعضاؤه الصوتية منذ الطفولة ، ولهذا أعطى علماء البلاغة أهمية كبيرة لدراسة الأصوات والتعرف على طبيعتها وتأثيرها في تأليف الكلام ونعت اللفظ .

---

[1] المثل السائر : 115/1 .

[2] البرهان في علوم القرآن : 124/2 ، ينظر : النقد اللغوي عند العرب : 147/أبحاث ونصوص في فقه اللغة: 212.

الفصل الثاني : الجهود الصوتية في اللفظ والمعنى .

المبحث الأول : نعت الألفاظ صوتياً .

المبحث الثاني:جزالة اللفظ الحوشي والوحشي من الألفاظ.

البعد الصوتي في طول اللفظة وقصرها .

المبحث الثالث :موسيقى الألفاظ والأيقاع على المستوى الصوتي والتنغيم الصوتي .

المبحث الأول : نعت الألفاظ صوتياً :

اقتران الألفاظ بالصوت وسيلة الإنسان التعبيرية في الكلام والتصويت سمة يشترك فيها الإنسان والحيوان ، ألا إن الإنسان استطاع بتقطيعه هذا الصوت ان يحوله إلى اصطلاحات تعبيرية ، أصبحت قادرة على ايصال تجارية الشعورية وعواطفه الذاتية إلى الآخرين .

ووجد العلماء القدماء من خلال معالجتهم للفصاحة والبلاغة ، أن في هذه الألفاظ قيمتها التأثيرية والجمالية التي ترتبط بجرس الكلمات مفردة ومركبة فتكون الألفاظ في ذاتها حسنة وتكون قبيحة ويمكن استيلاء هذا الحسن والقبح بوقع صوت الألفاظ على حاسة السمع ، وقد انشغل علماء النقد والبلاغة القدماء في وضع مقاييس الترجيح بين اللفظ والمعنى او الشكل والمضمون ، أو الصوت والدلالة ، أو المبنى والمعنى كما تنعتها الدراسات البلاغية الحديثة.

وأن أول ما ينبغي الالتفات إليه هو أن البلاغيين ادخلوا مضمار السبق والجدل في مقولة التفاضل بين اللفظ والمعنى ، وأيهما اسبق من الآخر ، ووصف الألفاظ وهي أصوات بالتناهي والمعاني باللاتناهي شأنهم شأن النقاد الأصوليين ولعلهم اخذوا جميعهم بهذه المقولة تأثراً بالمنطقين لان مقولة التفاضل والتناهي لها سمة منطقية ، ولكن البلاغيين إنقادوا إليها على نحو اكثر وبنوا عليها جل مباحثهم البلاغية حتى امكن التمييز بين مدرستين ظهرتا في مجمل الدراسات البلاغية التراثية : (مدرسة لفظية ومدرسة معنوية) الأولى أثرت اللفظ على المعنى وجعلت معظم المعايير البلاغية قائمة على أسس لفظية ثم معنوية والأخرى ، أثرت المعنى على اللفظ واعتمدت المعايير المعنوية اساساً في مباحثها البلاغية ، ومعظم البلاغيين المعروفين ، كانوا من أصحاب المدرسة المعنوية ، ومن أكثرهم شهرة في هذا المجال عبد القاهر الجرجاني (471هـ) وما بذله من جهود وتأكيده على المعنى نجده يشير الى قيم الالفاظ واهميتها [1] وقد سبقه من قبل قدامه بن جعفر (337هـ) واصفاً نعت اللفظ صوتياً بقوله : " ان يكون سمحاً سهل مخارج الحروف من مواضعها ، عليه رونق الفصاحة مع الخلو من البشاعة " [2] " وأن الألفاظ من حيث هي ألفاظ وحكم ونطق لسان ، لا تختص بواحد دون آخر ، وانها أنما تختص أذ توخى فيها النظم " [3]

وفي القرن الثالث الهجري برز علم من أعلام اللغة العربية عجزت الأقلام عن وصفه ومكانته العلمية وهو الجاحظ (255هـ) وكما يعرف الجميع انه إمام من أئمة البلاغة ، وعلم مفرد

---

[1] ينظر / شرح التلخيص : 161 ، 260 ، ينظر : منهج البحث اللغوي : 152 .

[2] نقد الشعر : 27 .

[3] دلائل الأعجاز : 476 ، ينظر : اللغة والعقل والمغامرة : 27 .

في أساليب البيان ، وما تعرف اللغة العربية أديباً طاوعه قلمه فتحرك في كل اتجاه وجال في كل حلبة ، ونازل في كل ميدان هذا القلم الذي اشتملت عليه يد الجاحظ ، حتى كان يقال من أعجاز القرآن أيمان الجاحظ به ، ومن الخير لطلابه البلاغية .

كان الجاحظ ، كالطائر ينتقل من شجرة الى شجرة ومن حديقة إلى حديقة ، يتلقط الزهرة والحية ، يقال أربعة لم يلحقوا ولم يسبقوا " أبو حنيفة في فقه ، والخليل في أدبه ، والجاحظ في تأليفه ، وأبو تمام في شعره . وقال ثابت بن قرة الصابي وهو من المعاصرين للجاحظ ومن اكبر فلاسفة العباسيين وأكثرهم إجادة في تأليفاتهم ، ما أحسد هذه الأمة العربية على ثلاثة أنفس: أولهم عمر بن الخطاب ، والثاني الحسن البصري ، والثالث الجاحظ ، وقال فيه : أنه خطيب المسلمين وشيخ المتكلمين ... والعلماء تأخذ عنه والخاصة تسلم له ، والعامة تحيه ، جمع بين اللسان والقلم ، وبين الفطنة والعلم ، وبين الرأي والأدب ن وبين النثر والنظم ، وبين الذكاء والفهم طال عمره ، وفشت حكمته .[1] ولهذه الأسباب وغيرها جعلت هذه الأطروحة أن تبدأ من القرن الثالث الهجري وللجاحظ جهود معروفة لدى كل النقاد والبلاغيين ، الذي وصف الصوت في احسن وصف فقال : " فآمر الصوت عجيب ، وتصرفه في الوجه أعجب ، فمن ذلك أن منه ما يقتل ، ومنه ما يسر النفوس ... حتى ترقص "[2]

ويشير كذلك الى أنه لا يمكن أن يظهر اللفظ بمختلف أشكالها إلا به فقال : " الصوت آلة اللفظ والجوهر الذي يقوم به التقطيع ، ويقرر أن تغير النغم في الكلام البليغ كان أكثر الناس دلالة وكلما تتنوع النغمات وتشابهت قلّ المعنى لذلك يقول : " وفهمك لمعاني كلام الناس يتقطع قبل انقطاع الصوت ، أو بعد فهمك لصوت صاحبك ومعاملك ، والمعاون لك ما كان صياحاً صرفاً وصوتاً مصوتاً ونداء خالصاً ، ولا يكون ذلك الا وهو بعيد عن المفاهمة وعطل عن الدلالة فجعل اللفظ لاقرب الحاجات والصوت الانفس من ذلك قليلاً " [3] ومما جاء به الجاحظ ، قوله منسوباً الى بعضهم : " وقال بعضهم : وهو من أحسن ما اجتبيناه ودوناه : " لا يكون .

يقول الجاحظ (255هـ) : " وحتى شاكل ابقاك الله اللفظ معناه ، وأعرب عن فحواه ، كان لتلك الحال وفقاً ، لذلك القدر لفظاً ، وخرج عن سماحة الاستكراه ، وسلم من فساد التكلف ، ما قيماً بحسن الموقع وبانتقاع المستمع "[4]

---

[1] امرء البيان : 308 ، 380 ، 441 .

[2] الحيوان : 191/4 .

[3] البيان والتبيين : 39/1 .

[4] البيان والتبيين : 106/1 ، ينظر : نقد الشعر : 196 .

ويؤكد البلاغيون على عنصر الاعتدال في اللفظة من حيث القرابة والابتذال ، يقول الجاحظ "وكما لا ينبغي أن يكون اللفظ عامياً ولا ساقطاً سوقياً ، فكذلك لا ينبغي أن يكون غريباً وحشياً ... فلم ارقط مثل طريقة في البلاغة من الكتاب ، فأنهم التمسوا من الألفاظ مالم يكن متورعاً وحشياً ولا ساقطاً سوقياً "[1]

أن قيمة اللفظ إذا عدونا القيمة الصوتية لمقاطعه وأجراس حروفه ، ولا شيء فيها للفظ بذاته ، أمي من حيث هو حروف وأصوات وحاول ابو هلال العسكري (395هـ) أن يحدد مفهوم اللفظ والمعنى في حدود اصطلاحية فجعل الفصاحة للفظ والبلاغة مقصورة على المعنى وقد وافق الجاحظ في قوله : " وليس الشأن في أيراد المعاني يعرفها العربي والقروي والبدوي ، وإنمّا هو في جودة اللفظ وصفائه وحسنه وبهائه ونزاهته ، وكثرة طلاوته ، مع صحة السبك والتركيب ، والخلو من أود النظم والتأليف "[2] ثم عاد أبو هلال العسكري بعد ذلك ليضيف المعنى بعد أن تنكر له ، وغض من شأنه فقال : " إن الكلام ألفاظ تشتمل على معان تدل عليها وتعبر عنها ، فيحتاج صاحب البلاغة إلى إصابة المعنى كحاجته إلى تحسين اللفظ ، لأن المدار بعد على إصابة المعنى ، ولأن المعاني تحمل من الأبدان ، والألفاظ تجري معها مجرى الكسوة وقال في موضع آخر : " ولا خير فيما أجيد لفظه إذ استحق معناه "[3] ويقول : " واعلم ان المعاني التي تنشأ الكتب فيها من الأمر والنهي ، سبيلها أن تؤكد غاية التوكيد بجهة كيفية نظم الكلام لا بجهة كثرة اللفظ ... وحق المعنى ان يكون له الاسم طبقاً ، أي يكون الاسم طبقاً للفظ بقدر المعنى غير زائد عليه ، ولا ناقص عنه "[4]

ينظر العسكري إلى اللفظ والمعنى ، كما نظر الجاحظ فيأخذ عنه رأيه في تفضيل اللفظ وجعله مدار البلاغة ، والذهاب إلى إن الناس جميعاً متساوون في الحظ من المعاني وهذا المبحث من أهم المباحث البلاغية التي عني بها العسكري في كتابه الصناعتين ، وكذلك من أهم الأبواب في البيان والتبيين ، وكذلك الذي عقده العسكري في القول في تفسير ما جاء عن الحكماء والعلماء في حدود البلاغة ومشكلة اللفظ والمعنى .

---

[1] المصدر نفسه : 137/1 .

[2] كتاب الصناعتين : 63 ، 64 ، 41 ، ينظر : الحيوان : 41/3 .

[3] نفسه : 135 ، 58 ، 59 .

[4] نفسه : 135 ، 58 ، 59 .

وشغلت مسألة اللفظ والمعنى أو الشكل والمضمون ويتمثل الفريق الأول في جمهرة البلاغيين والنقاد القدماء فبعض العلماء يذهب إلى إن المعاني موجودة في طباع الناس ، يستوي الجاهل فيها والحاذق ، ولكن العمل على جودة الألفاظ وحسن السبل وصحة التأليف .[1]

ويستمد ابن رشيق (456هـ) تصوره لعلاقة اللفظ والمعنى من قول العقابي فذهب إلى القول : " اللفظ جسم وروحه المعنى ، فإذا سلم المعنى وأختل بعض اللفظ يضعف بعضه ويقوى بقوته "[2] ثم يبين إبن رشيق بعد ذلك أن " اكثر الناس على تفضيل اللفظ على المعنى قال سمعت الحذاق يقول : قال العلماء :- " اللفظ أغلى من المعنى ثمناً ، واعظم قيمة ، وأعز مطلباً" [3]

ومن ابرز ما للألفاظ من دلالة وتأثير في النفس عندهم جملها بل عند تلاؤم حروفها ، وتلاؤم الحروف إنمّا يحدث في أصوات اللفظ خاصية لا في الجملة ، ومن ثم يتساوق مع الجملة ، ويشهد عبد القاهر الجرجاني (471هـ) أثار هذه المعركة التي كانت دائرة بين اللفظ والمعنى ويراها في مخلفات الجاحظ الذي كان ينتصر للفظ ، ويقف عبد القاهر إلى رأي الجاحظ ويقفو أثره ويريد أن يخرج به عن نظريته في النظم ، والفرق بينه ، وهو ليس متعصياً للفظ ولا هو من أنصاره وبين سابقيه كالجاحظ وآبي هلال ، وبين أنصاره ممن في عصره كابن رشيق وابن سنان ن وبين المترددين بين هذا وهذا كابن الأثير من بعده ".[4]

إنّهم أسهبوا في تجلية قيمة اللفظ مجرداً عن سواه ، وفي دلالته الانفرادية والصوتية بالذات بينما خلص عبد القاهر إلى قيمته مضموماً إلى عداه في النص للقول بالنظم وحسن التأليف ، من ضمّ اللفظ إلى المعنى والربط بالعلاقة القائمة بينهما ، فالمعنى لا يراه بليغاً ولا تاماً إلا إذا اختبر له اللفظ الذي هو به أخص فاكسبه نبلاً واظهر فيه مزية : [5]

فعبد القاهر جعل اللفظ والمعنى كياناً واحداً للصورة الكلامية ، فليس عنده في الكلام لفظ ومعنى ، وإنما الذي عنده هو الصورة البيانية التي تؤلف بين اللفظ والمعنى ، ولما كان اللفظ هو الجانب المحسوس من الصورة والصوت المسموع الذي لا اختلاف عليه في مرأى العين ، وفي منطق الفم ومسمع الأذن عند سماع صوت لفظ معين .

---

[1] نقد الشعر : 27 ، ينظر : العمدة : 82/1 .

[2] العمدة : 121/1 .

[3] العمدة : 121/1 .

[4] دلائل الأعجاز : 46 ، ينظر : 352/1 .

[5] المصدر نفسه : 35 .

الألفاظ المؤلفة ، يقول ابن سنان الخفاجي (466هـ) ، " وإذا كنا قد تكلما عن الكلمة المفردة ، وقلنا فيها ما يستدل به على غيره ، فلنذكر الآن ما يحضرنا من القول في الكلام المؤلف من الأصوات على ما قدمته ، وقد ذكرت فيه ما يقنع طالب هذا العلم ، وشرحت من حال اللفظة بانفرادها وما يحسن فيها ويقبح " [1] وقال : " وقد ذهب أبو الفرج قدامه بن جعفر الكاتب إلى إن المعاني في صناعة تعلم الكلام موضوع لها ، وذكر ذلك في كتابه الموسوم بنقد الشعر ، وقال في كتابه في الخراج وصناعة الكتابة عن كلامه على البلاغة : أن اللغة تجري مجرى الموضوع لصناعة البلاغة ، وهذان القولان على ما نراه مختلفان ، والصحيح منهما ما قدمناه وذكره ، في كتاب الخراج ، ويجب أن يقال له إذا ذهب إلى إن المعاني هي الموضوع : خبرّنا عن الألفاظ التي أخذها هذا الصانع المؤلف فألفها إذا لم تكن عندك موضوعاً لصناعة فما منزلتها من الأقسام التي اعتبرها الحكام في كل صناعة ؟ والتأمل قاضٍ بصحتها ، ونحن نرى الألفاظ تأثيرها في هذه الصناعة التي كلامنا عليها تأثير بين في الحسن والقبح "[2]

ومن وضع الألفاظ موضعها ألاّ يعبر عن المرح بالألفاظ المستعملة في الذم ، ولا في الذم بالألفاظ المعروفة للمدح ، بل يستعمل في جميع أغراض الألفاظ اللائقة بذلك الغرض في موضع الجدّ ألفاظه ، وفي موضع الهزل ألفاظه ، ومثال ما استعمل من هذه الألفاظ في غير موضعه قول أبى تمام. [3]

مـــــازال يهـــــذي بالمكـــــارم دائبـــــاً حتـــــى ظننـــــا أنـــــه محمـــــوم

وقوله :

وتشـــقى الحـــرب منـــه حـــين تغلـــى مراجلهـــــا بشـــــيطان رجـــــيم

لان يهذي والمحموم والشيطان الرجيم من الألفاظ التي تستعمل في الذم وليست من ألفاظ المدح.[4] وبعد إن انتهى ابن سنان من أصوات الألفاظ وما رافقها من ملابسات انتقل إلى المعاني فقال : "أما حصر المعاني بقوانين تستوعب أقسامها وفنونها على حسب ما ذكرناه في الألفاظ فعسير متعب لا يليق بهذا الكتاب تكلفه ، لانه ثمرة علم المنطق ، ونتيجة صناعة الكلام ، ولسنا بذاهبين في هذا الكتاب إلى تلك الأغراض والمطالب ... لأن في الألفاظ مواضع واصطلاحات يختلف الناس في المعرفة بهما بحسب اختلافهم في معرفة اللغة ، وفهم الاصطلاح والمواضعه ،

---

[1] سر الفصاحة : 82 ، 83 .

[2] المصدر نفسه :

[3] ديوانه : 130/1 .

[4] سر الفصاحة : 153 .

والمعاني ليس فيها شيء من ذلك ، وإنمّا معيارها العقل والعلم وصفاء الذهن " [1] وبما أن الألفاظ هي أصوات بحد ذاتها فأن المعاني نابعة لها هذا ما نراه .

وجهود عبد القاهر المتميزة في مسألة اللفظ والمعنى تبين موفقاً متريثاً أظاهره إيثار المعنى على اللفظ ، وهو خلاف لموقف اغلب النقاد ، وقال : " إنّ يكون مرجع تلك الفضيلة إلى اللفظ خاصة وأن لا يكون لها مرجع الى المعنى ، من حيث أن ذلك ، زعموا يؤدي إلى التناقض ، وأن يكون معناها متقارباً وغير متغاير معاً ، ولما أقرّوا هذا في نفوسهم حملوا كلام العلماء في كل ما نسبوا فيه الفصيلة الى اللفظ على ظاهرة ... فيعلموا أنهم لم يوجبوا اللفظ ما أوجبوه من الفضيلة ، وهم يعنون نطق اللسان واجراس الحروف "[2]

وفي خضم نقاشه أو دفاعه عن فكرة النظم ، منذ بداية كتابه إلى نهايته ، نستطيع ان نلتقط تصوره لماهية الألفاظ ، فهي عنده صورة ذهنية عن طريقها نتعرف على الوجود الخارج عن اللغة .

يقول الجرجاني : " فلو أن الألفاظ خلت من معانيها حتى تتجرد أصواتاً وأصداء وحروفاً ، لما وقع ضمير ولا هجس في خاطر إنه يجب فيها ترتيب وتنظم ، وإنمّا هي وصوت تصوته سواء "[3] وكلام عبد القاهر سواء في النظم او غيره يتبين له أنه أعطى اللفظ قدراً كبيراً من الأهمية اكثر بكثير مما أعطته المدرسة اللفظية للمعنى ، ولذلك يمكن القول ، بأن عبد القاهر من أنصار المدرسة المعنوية في تاريخ النقد والبلاغة العربية مع عنايته الخاصة باللفظ ، بل هو الذي وضع أسساً ثابتة لهذه المدرسة وطور مفاهيمها التي تبلورت في نظرية النظم .

وعبد القاهر ، ينكر ان يكون للمعنى مزية في البلاغة ، كما أنكر ذلك بالقياس إلى الألفاظ من حيث هي ألفاظ في مستهل كتابه ، فالقول إنمّا هو على النظم والأسلوب والصياغة ، ومضى يبرهن على رأيه بأن أعجاز القرآن للعرب عن معارضيه وقعودهم عن محاكاته ، إنمّا كان لأوصاف نزل بها ، وهي أوصاف لم تكن في ألفاظه من حيث هي ألفاظ منطوقة بأصواتها وحروفها وحركاتها وسكناتها ، وإنمّا من حيث المعاني المتصلة بتراكيبها وأساليبها ويقول : " إنّ الصور البيانية تدخل في التراكيب والأساليب ، فهي جزء في النظم ، وليست سرّ جماله وأعجازه "[4] وكانت نظرة الجرجاني للفظة نقطة ضعف في منهجه النقدي ، لم يرضَ عنها بعض النقاد

---

[1] سر الفصاحة : 225 .

[2] دلائل الأعجاز : 482 .

[3] المصدر نفسه : 337 .

[4] البلاغة تطور وتاريخ : 163 ، ينظر : منهج البحث اللغوي : 160 .

والمعاصرين ، ذلك لأن لجرس اللفظة وخصائصها الصوتية الذاتية شاناً يجب إلاّ يغفل عند البحث عن المقومات الفنية للعبارة ، كما إن التركيب أو النظم كما سماه عبد القاهر لا يستغني عن جرس الألفاظ وتكوينها الصوتي في نقل دقائق الشعور وقضايا التجربة . [1]

وقد عد ابن طبابا (322هـ) أن المعنى قد يحسن بوساطة اللفظ ، وقد يشأن به إذا تدانى فقال: " وللمعاني ألفاظ تشاكلها فتحسن فيها وتقبح في غيرها ، فهي لها كالمعرض للجارية الحسناء التي تزداد حسناً في بعض المعارض دون بعض وكم من معنى حسن قد شين بمعرضه الذي ابرز فيه"[2]

فمدار الحسن والقبح عنده في المعاني يتحكم بوضع اللفظ المناسب في الموقع المناسب حسناً ، أو تخطبه إلى ما سواه قبحاً ، ولهذا نجد عبد القاهر يتابع ابن طباطبا في إيضاح وظيفة اللفظ في أداء المعنى . وإما ابن الأثير (637هـ) فقد عدّ جمال القول وفصاحته إنمّا هو الآمر يخص اللفظ دون المعنى ، وهو لا يهمل جانب المعنى ، بل يريد أن تكون الألفاظ في حسنها دالة على معنى شريف .[3] ومع ذلك فهو لا يهمل المعاني حيثما يؤكد على الألفاظ بل يريد دلالتها منسقة فيقول : " ومع هذا فلا تظن أني أردت إهمال جانب المعاني بحيث يؤتى باللفظ الموصوف بصفات الحسن والملاحقة ، كان كصورة حسنة بديعة في حسنها إلا أن تكون هذه الألفاظ المشار إليها حسماً لمعنى شريف " [4]

يقول حازم القرطاجني (684هـ) : " فما يمكن المعاني ان توضع مواضعها اللائقة بها المهيأة ، والا توضع موضعاً غيرها من المعاني أولى به ... فمما يرجع إلى المعاني من ذلك ، أن يكون المعنى في نفسه دقيقاً لطيفاً يحتاج إلى تأمل وفهم ، ومنها ان يكون المعنى قد أخل ببعض أجزائه ولم تستوف أقسامه ، ومن ذلك إن يكون المعنى مركباً على معنى آخر لا يمكن فهمه وتصوره الا به ، ومنه أن يكون المعنى منحرفاً بالكلام من مقصده الواضح معدولاً إليه عما هو أحق بالمحل . [5]

---

[1] النقد اللغوي عند العرب : 203 .

[2] ينظر / عيار الشعر : 8 ، ينظر : كتاب الصناعتين : 64 ، دلائل الأعجاز : 251 .

[3] ينظر / المثل السائر : 123/1 / 224 .

[4] المصدر نفسه : 122/1 / 106 ، البرهان في علوم القرآن : 97/2 .

[5] منهاج البلغاء : 177 ، ينظر : الأسس الجمالية في النقد العربي : 207 ، النظرية اللغوية العربية الحديثة : 183 ، اللغة والعقل والمغامرة : 37 ، الأعجاز القرآني ، لعبد الكريم الخطيب : 144 تكنولوجيا اللغة : 11 ، الأسس النفسية في البلاغة العربية : 70 ، المثل القرآني : 232 .

كان من الممكن أن يعبر الإنسان عن المعاني برموز أخرى غير صوتية يستبعد الأصوات عن الذهن كالإشارة مثلاً ، ولكن الإنسان بما وهب من هذا الجهاز العظيم ، ومنذ أمد بعيد اتخذ من أصواته رموزاً للتعبير عما يجول في خاطره وذهنه .

اختيار الألفاظ :

ومن صفات الألفاظ اختيار الأصوات الجميلة لها وبما يناسبها في نظم الكلام قال أبو هلال العسكري (395هـ) : " وتخيرّ الألفاظ ، الألفاظ وإبدال بعضها من بعض يوجب التئام الكلام ، وهو من أحسن نعوته وازين صفاته ، فأن أمكن مع ذلك منظوماً من حروف سهلة المخارج كان أحسن له وأدعى للقلوب إليه ، وأن يكون موقعه في الإطناب والإيجاز أليق بموقعه وأحق بالمقام والحال كان جامعاً للحسن بارعاً في الفضل – وأن بلغ مع ذلك إن يكون موارده تنبيل عن مصادره ، وأوله يكشف قناع أخره كان قد جمع نهاية الحسن ، وبلغ أعلى مراتب التمام ، وينبغي ان تجعل كلامك مشتبهاً أوله بأحره ، ومطابقاً هادية لعجزه ، ولا تتخالف أطرافه ، ولا تتنافر اطراده وتكون الكلمة منه موضوعه مع أختها ومقرونة بلغتها ، فأن تنافر الألفاظ من أكبر عيوب الكلام " [1]

والمختار من الكلام ما كان سهلاً جزلاً لا يشو به شيء من كلام العامة وألفاظ الحوشية ومالم يخالف فيه وجه الاستعمال .[2] قال المتنبي :

أيــن البطــاريق والحلــف الــذي حلفــوا بمــرق الملــك والــزعم الــذي زعمــوا

يقول أبو هلال : هذا قبيح جداً .[3]

قال الجرجاني : " وهم يقفون على الألفاظ المتميزة والمعاني المنتخبة والمخارج السهلة والديباجة الكريمة ، وعلى الطبع المتمكن وعلى السبك الجيد وعلى كلام له ماء ورونق "[4] وقال : " الكلام معارض له من الجهة التي منها يوصف بأنه فصبح وبليغ ومتخير اللفظ جيد السبك ونحو

---

[1] كتاب الصناعتين : 147 ، 148 ، ينظر : عيار الشعر : 8 .

[2] نفسه : 156 .

[3] ديوانه : 16 .

[4] كتاب الصناعتين : 156 .

ذلك من الأوصاف التي تسبوها إلى اللفظ ... وكان الكلام يعارض من حيث هو فصيح وبليغ ومتخيرّ اللفظ ، حصل من ذلك ان الفصاحة والبلاغة وتخيرّ اللفظ عبارة عن خصائص ووجوه تكون معاني الكلام عليها " [1]

إنّ اختيار الألفاظ لا يراد به الألفاظ ذاتها ، بل الألفاظ منضمة إلى المعاني ، بحيث لا يتحقق المعنى المراد إلا بهذا اللفظ دون سواه ، بغض النظر عن الاعتبارات البديعة الأخرى ، فلا الألفاظ ذات أولية على حساب المعاني ولا المعاني ذات أولوية على حساب المعاني ولا المعاني ذات أولوية على حساب الألفاظ . [2]

وتخير اللفظ يعني إن يكون حسن الصوت كما عبر عنه ابن طباطبا (322هـ) حينما قال : " إذا ورد عليه ما يمجه أفسدت طرفه ونفاه واستوحش عند حسه به وصدى له ، وتأذى به كتأذي سائر الحواس ... والآذن تتشوف للصوت الخفيف الساكن وتأذي بالجهير الهائل "[3] وقال أبو هلال : "الكلام – أيدك الله بحسن سلاسته وسهولته ، ونصاعته وتخبر لفظه وإصابة معناه ، وجودة مطالعه ولين مقاطعة واستواء تقاسيه وتعادل أطرافه وتشابه أعجازه بهواديه وموافقه ما خيره لمياديه ، مع قلّة ضوراته فإذا كان الكلام قد جمع العذوبة ، والجزالة والسهولة والرصانة مع السلاسة والنصاعة ، واشتمل على الرونق والطلاوة ، وسليم من حيف التأليف وبعد عن سماجة التركيب وورد على الفهم الثاقب قبله ولم يرده ، وعلى السمع المصيب أستوعبه ولم يمجه والنفس تقبل اللطيف وتنبو عن الغليظ وتقلق من الجاسي البشع ".[4]

ويتأنق أسلوب القرآن في اختيار ألفاظه ، ولمّا بين الألفاظ من فروق دقيقة في دلالتها ، يستخدم الكلام إذ يؤدي معناه في دقة فائقة تكاد بها تؤمن بأن هذا المكان كأن خلقت له تلك الكلمة بعينها ، وأن كلمة أخرى لا تستطيع توفية المعنى الذي وقت به أختها فكل لفظة وضعت لتؤدي نصيبها من اللفظ والمعنى اقوى أداء ، ومن دقة أسلوب القرآن اختيار ألفاظه ما أشار إليه الجاحظ (255هـ) حين قال : " وقد يستخف الناس ألفاظاً ويستعملونها ، وغيرها أحق بذلك منها ، إلا ترى أن الله تبارك وتعالى لم يذكر في القرآن الكريم الجوع إلا في موضع العقاب أو في القرآن الكريم الجوع إلا في موضع العقاب أو في موضع الفقر ، المدفع ، والعجز الظاهر ، والناس لا

---

[1] دلائل الأعجاز : 251 ، 259 .

[2] ينظر / تطور البحث الدلالي : 167 .

[3] عيار الشعر : 14 .

[4] كتاب الصناعتين : 63 .

يذكرون السغب ويذكرون الجوع في حالة القدرة والسلاسة ، وكذلك ذكر المطر لأنك لا تجد القرآن يلفظ به إلا في موضع الانتقام ، وأكثر الحاجة لا يفعلون بين ذكر المطر وذكر الغيث " [1]

إنّ إختيار القرآن للألفاظ في دلالتها ، إنمّا جاء متناسقاً مع مقتضيات الحال وطبيعة المناسبة وقد يكون ذلك التناسق صادراً عن جهات متعددة تؤخذ بعين الاعتبار لدى تجديد القرآن لمراد الاستعمال في الحالات الوصفية والتشبيهية والتمثيلية ، فأن القرآن يعمد إلى إختيار اللفظ الدقيق وبأصواته المختلفة ، مما حدى بالدراسات البلاغية وعلى يد اكبر علمائها أن تنهل من هذا الفيض الغزير .

وقد عد الخطّابي (387هـ) اختيار اللفظ المناسب للموقع المناسب عمود البلاغة القرآنية ، قال : " العضات هو وضع كل نوع من الألفاظ التي تشتمل عليها فصول الكلام موضعه الأخص الأشكل به الذي إذا بدل مكانه غيره جاء منه ، إما تبدل المعنى الذي يكون منه فساد الكلام ، وأمّا ذهاب الرونق الذي يكون معه سقوط البلاغية ، ذلك أن في الكلام ألفاظاً متقاربة في المعاني ... ونحوهما من الأسماء والأفعال والحروف " [2]

ومن تخير اللفظ وبأصواته المعبرة والدالة ما جاء بقوله تعالى : ﴿**فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلاتٍ** ﴾ [3]

يقول إبن الأثير (637هـ) : في هذه الآية الكريمة قد تضمنت خمسة ألفاظ وهي : الطوفان ، والجراد ، والقمل ، والضفادع ، والدم ، وأحسن هذه الألفاظ الخمسة هي الطوفان ، والجراد ، والدم ، فلما وردت هذه الألفاظ الخمسة ، قدم منها الطوفان والجراد وأخرت لفظة الدم ، أخراً وجعلت لفظة ، القمل ، والضفادع في الوسط ، ليطرق السمع أولاً الحسن من الألفاظ الخمسة ، ثم ان لفظة الدم أحسن من لفظتي الطوفان والجراد ، وأخف في الاستعمال ، ومن أجل ذلك جيء بها أخراً ، ومراعاة مثل هذه الأسرار والدقائق في استعمال الألفاظ ليس من قدرة البشرية .[4]

ثم يذكر إبن الأثير : " إن الألفاظ داخلة في حيز الأصوات لأنها مركبة من مخارج الحروف ، فما استلذه السمع منها فهو الحسن ، وما كرهه ونبا عنه فهو القبيح "[5]

---

[1] البيان والتبيين : 34/1 ، ينظر : من بلاغة القرآن : 63 .

[2] ثلاث وسائل في أعجاز القرآن : الخطابي : 29 .

[3] الأعراف : 133 .

[4] المثل السائر 218/1 .

[5] المصدر نفسه : 218/1 .

قال تعالى : ﴿**أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنْثَى * تِلْكَ إِذاً قِسْمَةٌ ضِيزَى**﴾ [1] يقول ابن الأثير : " فإنّها في موضعها لا يسد غيرها مسدها ... إذا جئنا بلفظة في معنى هذه اللفظة قلنا قسمة جائزة أو ظالمة ، ولا شك ، جائزة أو ظالمة أحسن من ضيزى ، الا أنا إذا نظمنا الكلام فقلنا ، الكم الذكر وله الأنثى تلك إذا قسمة ظالمة ، لم يكن النظم كالنظم الأول ، وصار الكلام كالشيء المعوز الذي يحتاج إلى تمام ، وهذا لا يخفى على من له ذوق ومعرفة بنظم الكلام .[2] قال تعالى : ﴿**إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْماً عَبُوساً قَمْطَرِيراً**﴾ [3] ، فنجد كلمة العبوس قد استعملت أدق استعمال لبيان نظرة الكافرين إلى ذلك اليوم ، فأنهم يجدونه عابساً مكفهراً ، وما أشد أسوداً واليوم يفقد فيه المرء الامل والرجاء ، وكلمة (قمطريرا) بثقل صوت حائها مشعرة بثقل هذا اليوم.[4]

قال تعالى : ﴿**وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ**﴾ [5] ، برز كلمة اوهن لتعطي معنى الضعف ، وقد تحقق هذا المعنى كلمة (أوهن) ولكن القرآن الكريم استعمل لفظه أوهن دون أوهين ، وذلك لما يفرزه فم أصوات حروف الحلق ، وأقصى الحلق إلى النون من التصاق وغنة ولا تتأنى بضم الألف المقصورة إليها صوتياً ، وحينئذٍ نصل اللفظة إلى الأسماع وتصك الأذان ، وهي تحمل لوناً باهتاً للعجز مؤكداً بضم هذه النون ، من ملحظ صوتي فقط إلى تلك الحروف لتحدث واقعاً خاصاً بشعر بالضعف المتناهي ، إلا بمجرد الضعف وحده ، وكان هذا بتأثير مباشر من دلالة اللفظ الصوتية ، إذا أحدثت فيها النون وهي من الصوامت الأنفية صدى وإيقاعاً لا تحدثه الألف المقصورة ، وهي صوت حلقي خالص ، لاغنة معه والاضغط ولا أطباق . وهذا التشبيه باختيار هذا اللفظ صوتياً . [6]

يقول الدكتور احمد بدوي : " نسأل لِمَ اختيرت هذه الكلمة دون تلك ، ولم أثرنا صيغة على اخرى ، وإن الأسلوب قد يروعك ويبهرك ، فإذا أخذت مفرداته كل مفردة على حدة ، فقد لا تجد فيه كبير روعة ، ولا قوة أسر ، ولكن عندما انتظمت هذه المفردات في سلك فلاءمت قبلها ، وارتبطت بما بعدها ، اكتسبت جمالاً وجلالاً ، وأن شئت فأنظر إلى قوله تعالى : ﴿**وَقِيلَ يَا أَرْضُ**

---

[1] النجم : 21 – 22 .

[2] ينظر / المثل السائر : 230/1 .

[3] من بلاغة القرآن : 58 .

[4] ينظر / الصوت اللغوي في القرآن الكريم : 189 .

[5] العنكبوت : 41 .

[6] الصوت اللغوي في القرآن الكريم : 190 .

ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ﴾ [1] ، فأنك إذا أخذت كل لفظة على حدتها من غير نظر إلى ما قامت به من أداء حظها المقدم لها في معنى الجملة كلها ، فقد لا تجد من التأثير ، ما تجده لها وبين أخواتها ".[2]

إذا رجعنا إلى البلاغيين الأوائل نجدهم قد فهموا أثر اللفظة في أنها تفي بالغرض المطلوب منها وتتيح للنفس فرصة الاستمتاع بالجمال الصوتي ، بل أنهم وجدوا أن دقة الكلمة لمعناها في سياقها هو من أول الدلائل على جمالها في حسن اختيارها وانسجامها مع ذوق المستمع ، وقد اختار النقاد والبلاغيون الألفاظ وميزوا فيما بينها وشخصوا جوانب الجمال والقبح فيها وهذا ما تم ذكره .

المبحث الثاني : جزالة اللفظ :

عني العلماء العرب بجزالة ألفاظهم وسبكوها سبكاً محكماً منيعاً على كل من يحاول اختراقه ، وقد أشاد النقاد والبلاغيون القدماء والمحدثون بذلك ، وأكثر الجاحظ في بيانه جزالة الألفاظ وفخامتها ورقتها وعذوبتها وخفتها وسهولتها ، ونشر ذلك في كل جانب من الكتاب ، وكأنما رأى من تمتمة الكلام عن صفاتها أن يعرض بحروفها الشيء هي جوهرها ملاحظاً أن منها مالا يقترن بعضه إلى بعض في الكلام [3]. وأيضاً فأنه عرض لثلاثي الكلمة مع الكلمة ، ملاحظاً أن من

---

[1] هود : 44 .

[2] من بلاغة القرآن : 54 ، ينظر جرس الألفاظ : 112 ، 125 .

[3] البيان والتبيين : 69/1 .

الألفاظ ما يتنافر بعضه من بعض ، حتى لقد شبهها ببعض معاصريه بأولاد العَلاّت ، ويطيل الوقوف إزاء بعض إشعار يشتد فيها التنافر بين ألفاظها ليكشف للقارئ ما فيها من ثقل ومثوله على اللسان ، لأن الكلمة لم تقرن إلى أختها ولم يجمع لها ما يتعقد معها في سلكها ... وأداة الوقوف عند أصوات الألفاظ إلى الإطالة فيما يعترى اللسان من لثغاتٍ ولكناتٍ.[1]

ومن نعوت اللفظ الدائرة في كتب البلاغة الجزالة والسلاسة ، وهي أدخل النعوت في اصطلاح الصوت ، فقد عدها الجاحظ من أصناف الكلام المميزة ، وذكر المبرد أن مما يستحسن من الشعر إنشاده إلى جانب صحة المعنى جزالة لفظة ، وذهب ابن وهب ان جزالة اللفظ من الأسباب التي إذا توفرت في الشعر سمي فائقاً ، وأن ميزة الشعر الحسن جزالة لفظه.[2]

فألجزالة والسلاسة سمة مادته الكلام ، يدركها السامع ويميزها ، ويصعب على غير الحاذق تنظيرها ، فهي قيد زائد على إيضاح المعنى وتقويم الحروف في الكلام الفصيح البليغ . قال أبو هلال العسكري (395هـ) : " وشهدت قوماً يذهبون إلى أن الكلام لا يسمى فصيحاً حتى يجمع مع هذه النعوت فخامة وشدة وجزالة "[3] ولما كانت الفصاحة من متعلقات اللفظ عند العسكري والبلاغة مقصورة على المعنى فقد علق إفادة الجزالة نعتاً للفصاحة دون البلاغة . قال : "قالوا وإذا كان الكلام يجمع نعوت الجودة ولم يكن فيه فخامة وفضل جزالة سمي بليغاً ولم يسم فصيحاً " [4] ومما يجلب انتباه الباحث الى هذه الظاهرة ، هو الصوت فمن خلاله يتم الحكم على جودة الألفاظ وفخامتها وتركيب حروفها .

فالجزالة نعت اقترن بفصاحة اللفظة وبأصواتها المعبرة بصورة من الصور قد تكون حسنة وقد تكون بغيضة .

فالمقصود إذن بالرنين النغم اللفظي وهي الفصاحة ، وأن مراد العسكري بالفصاحة هو القريب من مرادنا بالصوت ، لأنها تخص اللفظ ، ولم تقترن الجزالة بالفصاحة عند العسكري فحسب ، وإنمّا رددها ابن رشيق القيرواني (456هـ) من بعده أيضاً : " ليست الجَزالة والفصاحة أن يكون توليد الألفاظ حوشيا خشناً ولا أعرابياً جافياً ، ولكن حال بين الحالين "[5]

---

[1] نفسه : 64/1 ، ينظر : البلاغة تطور وتاريخ : 51 .

[2] البرهان في وجوه البيان :175 / ينظر / البيان والتبيين : 144/1 .

[3] كتاب الصناعتين :14 .

[4] نفسه : 15 .

[5] العمدة : 93/1 .

لأن الشعر الحوشي بمنزلة المغني الحاذي بالنغم غير المطرب الصوت ، يعرض عنه إلا من عرف فضل صنعته ، كذا مرادنا بالفصاحة مع الجزالة ، فقد تكون اللفظة فصيحة ولكنها غير حسنة كالنغم غير المطرب ونفضلها للفظة ترادفها المعنى لأنها حسنة مقبولة ونجد لها في السمع حسناً ومزية على غيرها . [1]

قال أبو هلال : " وأجود الكلام ما يكون جزلاً سهلاً ، لا ينغلق معناه ، ولا يستبرم مغزاه ، ولا يكون مكدوداً مستكرهاً ، ومتوعراً .

والكلام إذا كان لفظه غثاً ومعرضة رثاً ، كان مردوداً ، ولو أحتوى على أجل معنى وأنبله وارفعه وأفضله "[2] وجزالة اللفظ عند العسكري ، مردها طبيعة تراكيب الكلام وتباين نغمة بين القوة والسهولة ، قوة في التعبير والسبك وسهولة في الإدراك والفهم ، وعلى هذا فأجود اللفظ عند العسكري ما كان جزلاً سهلاً لا ينغلق معناه . وكان رأي أبن رشيق كما أسلفنا وسطاً ، واستحسان التوسط في التعبير هذا يؤكد على أن اغلب النقاد والبلاغيين العرب وهو من ارسخ الأسس المتعلقة بجرس الألفاظ ، وذلك لأن هذه الحالة الوسط التي هي الحال بين الحالين إدراكها من خلال الألفاظ ، لأن صوت الألفاظ هي الجانب المحسوس في الكلام ، وعلى هذا فلا يمكن أدراك هذه القيمة الصوتية في الكلام ، إلا من خلال جرسها أو نغمها الذي تشكله طبيعة السياق في التعبير الأدبي ولهذا قالوا : " الكلام الجزل اغنى عن المعاني اللطيفة "[3] ويقابل الجزالة في القيمة الفنية للتعبير السلاسة ، وهو نعت اللفظ أحدثته ملازمة الشعراء للحضارة بعد أن أنعم الإسلام بخيراته كثرت الحواضر ، فمال الناس إلى اختيار اسهل الكلام والينه ، ولذلك نجد شعر عدي وهو جاهلي ، اسلس من شعر الفرزدق ورجز رؤبة . [4]

وتحدث عبد القاهر الجرجاني (471هـ) عن جزالة اللفظ فقال : " أنك تراهم يقولون إذا هم تكلموا في مزية كلام على كلام ، (إن ذلك يكون بجزالة اللفظ) وإذا تكلموا في زيادة نظم على تظم (أن ذلك يكون لوقوعه على طريقة مخصوصة على وجه دون وجه " [5]

يقول ابن الاثير (637هـ) : " فالألفاظ الجزلة تتخيل في السمع كأشخاص عليها مهابة ووقار والألفاظ الرقيقة تتخيل كأشخاص ذوي دماثة ولين أخلاق ولطافة مزاج ... وعلى هذا الأساس

---

[1] سرّ الفصاحة : 55 .

[2] كتاب الصناعتين : 72 .

[3] العمدة : 127/1 .

[4] نفسه : ينظر : جرس الألفاظ : 48 .

[5] دلائل الأعجاز : 456 .

شبهوا ألفاظ أبي تمام بالفرسان المقاتلين ، وألفاظ البحتري بالغيد الحسان "[1] لأن أبا تمام قد اكثر من استعمال الألفاظ ذات الجرس القوي الضخم ، بينما اكثر الثاني من استعمال ذات الجرس الناعم الهادئ ، فالجرس يوحي في نفس المتلقي صورة ذهنية تناسب إيقاعه ، وتشيع في نفسه جواً نفسياً معيناً .

والبلاغيون قد عبروا عن هذه الظاهرة بتجسيدهم الصورة بوحيها جرس اللفظة ، لشخوص حية تناسب والجو الموسيقي النفسي الذي يحدثه إيقاع الجرس . [2]

وقسم ابن الأثير الألفاظ فقال : الألفاظ تنقسم في الاستعمال إلى جزلة ورقيقة ، ولكل منها موضع يحسن استعماله فيه .

فالجزل منها يستعمل في وصف مواقف الحروب ، وفي قوارع التهديد والتخويف وأشباه ذلك ، وأما الرقيق ، منها يستعمل في وصف الأشواق وذكر أيام البعاد وفي استجلاب المودات والاستعطاف وأشباه ذلك ، وليس من الضرورة أن الجزل من الألفاظ ان يكون وحشياً متوعراً عليه عنجهية البداوة ، بل الجزل أن يكون متيناً على عذوبته في الفم ، لذاته في السمع ، ولست (اعني بالرقيق ان يكون ركيكاً سفسفاً ، الرديء كمن كل شيء ، وإنمّا هو اللطيف ، الرقيق الحاشية ، الناعم الملمس ، كقول أبي تمام يمدح إسماعيل بن شهاب .

ناعمات الأطراف لو إنها تلمس أغنت عن الملاء الرقاق

وما ضرب لك للجزال من الألفاظ والرقيق إلى قوارع القرآن عند ذكر الحساب والعذاب والميزان والصراط ، وعند ذكر الموت ، ومفارقة الدنيا وما جرى هذا المجرى ، فأنك لا ترى شيئاً من ذلك وحشي الألفاظ .[3] وهذا مرجعه كله إلى نطق الأصوات ومعرفة الجزل منها من الرقيق أثناء الكلام .

واما الرقيق من الألفاظ فقوله تعالى في خطابه للنبي ﷺ : ﴿**وَالضُّحَى * وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى * مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى**﴾ [4] فألفاظ هذه الآيات كلها رقيقة تعبر عن جو نفسي هادئ فأصوات ألفاظها شفافة غير مرعبة ولا مخيفة وإنمّا فيها طمأنينة للأفئدة .

---

[1] ينظر : المثل السائر : 252/1 .

[2] الأسس النفسية في البلاغة العربية : 56 .

[3] ينظر / المثل السائر : 241/1 .

[4] الضحى : 1-3 .

وجزالة ألفاظ أبي تمام كأنها رجال قد ركبوا خيولهم واستلأموا سلاحهم وتأهبوا للطراد ، ونرى ألفاظ البحتري الرقيقة الجميلة ، كأنها نساء حسان عليهن دلائد فصبغات وقد تحلين بأصناف الحلى .

واعلم انه يجب على النظام والنافر أن يجتنبا ما يضيف به في محال الكلام في بعض الحروف كالتاء والدال والخاء والشين والصاد والضاء والطاء والظاء والغين ، فأن في الحروف الباقية مندوحة عن الاستعمال مالا يحسن من هذه الأحرف المشار إليها .[1]

وقد ربط ابن سينا مسألة اللفظ بالمعنى وعدّ اللفظ دليلاً على المعنى ومقياساً على نضجة أو سذاجته فقال : " أن اللفظ الجزل يوهم ان المعنى جزل ، واللفظ السفاف يجعل المعنى كالسفاف ... والعبارة بوقار تجعل المعنى كأنه أمر ثابت والعبارة المستعجلة تجعل المعنى كشيء سبال "[2]

ويبدو ان اللفظ من خلال ما تقدم على نوعين : مستهين وجزل ، وقد عالج عبد القاهر الجرجاني (471هـ) هذه المسألة وكشف عن سر قولهم : (لفظ متمكن) أو (لفظ قلق ناب) والمتمكن هو الجزل ، والقلق النابي هو المستهجن ، فرد بذلك على من يتوهم أنهم يريدون اللفظ المفرد دون النظر إلى تأليفه في الجملة ، وبذلك يعود إلى نظريته في النظم فقال : " لما كانت المعاني إنمّا تتبين بالألفاظ وكان لا سبيل للمرتب لها والجامع شملها ، إلا أن يعلمك ما صنع في تريبها بفكرة ، الا بترتيب الالفاظ في نطقه تجوزاً "[3] وكقولهم : " لفظ متمكن " يريدون انه بموافقة معناه لمعنى ما يليه كالشيء الحاصل في مكان صالح يطمئن فيه ، و (لفظ قلق ناب) يريدون من اجل معناه غير موافق لما يليه " كالحاصل في مكان لا سصلح له ، فهو لا يستطيع الطمأنينة فيه " [4] فالصوت يزيد من جزالة اللفظ ويقوي معناه بغض النظر عن فحواه ونوعه ومكانته في الجملة .

الحوشي والوحشي من الألفاظ :

ذهب البلاغيون بأن اللفظة إن جاءت في غير موقعها المناسب الطبيعي من الكلام ، تكون نافرة مستوحشة لأنها حينذاك تشبه الوحشي النافر ، فأطلقوا عليها اسم الوحشي تماماً كما أطلقوا على الألفاظ الغريبة غير المألوفة ، وتقترن لفظة الوحشي أو الوحشي بالغريب ويختلط مفهوم

---

[1] ينظر / المثل السائر : 253/1 .

[2] الخطاية من كتاب الشفاء : 199 ،200 .

[3] دلائل الأعجاز : 50 .

[4] المصدر نفسه ، ينظر : الصورة الفنية في المثل القرآني : 232 ، 233 .

اللفظتين في اعتبار اغلب البلاغيين ، وعلى الرغم من أن الآمدي عرف الوحشي من الألفاظ ، بأنه الذي يتكرر في كلام العرب ، وان ورد في كلامهم ورد مستهجناً ، ولكن نراه يقرن لفظه الوحشي بالغريب في قوله : " ولهذا أنكر الناس على رؤبة استعمال الغريب الوحشي "[1]

والذي يمكن ان نستفيده من تعريف الآمدي هو إن علة الوحشي في استهجانه ، والاستهجان حكم ذوقي ، قد يضع ما يخالفه ، وألا لما تكلف الشاعر قوله لو لم يجد له صدق عند طائفة من المتلقين ، وهو غير الكلام الذي قاله العسكري : " وقد غلب الجهل على قوم فصاروا يستجيدون الكلام إذا يقفوا على معناه ، ويستقصون إذا وجدوا ألفاظه كزّه غليظة وجاسية عربية ، ويستحقرون الكلام إذا رأوه سلساً عذباً وسهلاً حلواً ، ولم يعلموا أن السهل امنع جانباً ، وأعز مطلباً ، وهو أحسن موقعاً ، وأعذب مستحقاً . [2]

يقول ابن رشيق (456هـ) : " وإذا كانت اللفظة حسنة مستقربة ، لا يعلمها إلا العالم المبرز ، والأعرابي القح ، فتلك وحشية ، وكذلك إن وقعت غير موقعها ، وأتى بها مع ما ينافرها ويلائم شكلها"[3]

وان علماء البلاغة ، قد كرهوا استعمال الكلمات العربية ، لأنها تعجز إن تثير في النفس معنى قبل البحث عنها ، على أنه قد يشفع في بعض الأحيان لاستخدام الكلمة الغريبة ، أنها وضعت في موضع سهل الأسلوب فهمها ، وكانت وهي بجرسها موحية بمعناها ومعبرة من خلال صوتها ويقدر ما يقترن تأليف الألفاظ وتركيبها على هيأة مخصوصة بالحسن ، يعتريه من خلال ما يكون عيباً فيه بقبحه ، وليس أول على اللفظ بصوته من نعته بالوحشية ، وهو من أقدم نعوت اللفظ الدائرة في كتب النقد والبلاغة ، وجاء في مقولة الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه في صفة الشاعر زهير بن أبي سلمى إذ قال : " كان لا يعاظل بين الكلام ولا يتتبع حوشيه" [4] .

وهو ما أشار الجاحظ إلى تجنبه : " إلا أن يكون المتكلم بدوياً أعرابياً ، فأن الوحشي من الكلام يفهمه الحوشي من الناس "[5] ومن خلال ما تقدم نرى أن الصوت ميزان الألفاظ به يتم القياس .

---

[1] الموازنة : 259 .

[2] كتاب الصناعتين : 66 .

[3] العمدة : 266/1 ، 92 .

[4] نقد الشعر : 170 .

[5] البيان والتبيين : 144/1 ، ينظر : الأسس النفسية لأساليب البلاغة العربية : 85 .

ونقرأ في البيان والتبيين للجاحظ ، أقوالاً كثيرة تنفر من الوحشي ، وتحض الأدباء على تركه ، من ذلك قول بشر بن المعتمر (210هـ) في صحيفته : " إياك والتوعر ، فأن التوعر يسلمك إلى التعقيد ، والتعقيد هو الذي يستهلل معانيك ، ويشين ألفاظك "[1] ويذهب الجاحظ نفسه إلى السهولة في الكتابة ويميل إلى مذهب الكتاب لأنهم أثروا اللفظ الأنيس على الوحشي النافر فيقول : " أما أنا فلم أر امثل طريقة في البلاغة من الكتاب فانهم قد التمسوا من الألفاظ ما لم يكن متوعراً وحشياً " [2]

وجاء قدامه بن جعفر (337هـ) فعد عيوب الشعر ، وجعل منها : " أن يركب الشاعر فيه ما ليس يستعمل إلا في القرط ، ولا يتكلم به إلا شاذاً وذلك هو الوحشي "[3]

وقال ابو محمد الحسن بن علي ، وقد ذكر أشعار المولدين ، إنمّا تروى لعذوبة ألفاظها ورقتها ، وحلاوة معانيها وقرب مآخذها ولو سلك المتأخرون مسلك المتقدمين ، في غلبة الغريب على أشعارهم ووصف المهامة والقفار ، وذكر الوحشي لأن المتقدمين أولى بهذه المعاني ولا سيما مع زهد الناس في الأدب ، فقد صار صاحبها بمنزلة الصوت المطرب يستحيل أمة من الناس إلى استماعه ، وأن جهل الألحان وكسر الأوزان ، وقائل الشعر الحوشي بمنزلة المغني الحاذق غير المطرب الصوت ، يعرض عنه الا من عرف فضل صنعته ، على أنه إذا وقف على فضل صنعته لم يصلح لمجالس اللذات وإنمّا يجعل معلماً للمطربات من الفتيات يقومهن بخدمة ويستمتع بحلوقهن ليسلمن من الخطأ في صناعته ويطربن بحسن أصواتهن .[4]

والوحشي عند ابن الأثير (637هـ) هو الغريب ، على أن أبن الأثير يرى في هذا الوحشي خلاف ما يراه سابقوه في ظنهم بأنه المستقبح من الألفاظ ، فذهب إلى تمييز نوعين من الوحشي : أحدهما غريب حسن ، والأخر غريب قبيح ، والوحشي هذا منسوب إلى أسم الوحش الذي يمكن القفار فلا يكون أنيساً ، وكذلك الألفاظ التي لم تكن مأنوسة الاستعمال .

قال ابن الأثير : " فالغريب يجوز أن يكون عذباً فلا يحسن تفسيره بالوحشية ، بل الوحشية قيد زائد لفصاحة المفردة "[5]

---

[1] البيان والتبيين : 136/1 ، 137 ، ينظر : النقد اللغوي عند العرب : 215 .

[2] نفسه : 136/1 .

[3] نقد الشعر : 64 .

[4] العمدة : 92/1 .

[5] المثل السائر : 237/1 ، 155 .

أي ان هذا الوحشي هو من ألفاظ العرب ولكنها ألفاظ غير مألوفة في زمن متكلمها فتميزت عن سواها بصوتها لأن السامع يأنس استعمالها ، والكراهة في السمع عند التفتازاني راجعة الى النغم فكم من لفظ فصيح يستكره في السمع إذا أدى بنغم غير متناسية ، وكم من لفظ غير فصيح يستلذ إذا أدى بنغم متناسية . [1]

ونسترسل الحديث عن الوحشي من الألفاظ وجهود علماء البلاغة بهذا الخصوص فقد قال ابن الأثير : " وقد خفي الوحشي على جماعة من المنتمين إلى صناعة النظم والنثر ، وظنوه المستقبح من الألفاظ ... ثم عرج إلى القول بأن الشعر الوحشي هو الذي اتسم بصفة الغريب هذه فهمه لا على من عرف صنعته واحسب أن ابن رشيق ان يقول شيئاً في نعت هذا الغريب المتقدم فخصه بقول تقريري يحتمل الكثير من التأويل ، قال : " وإنمّا مثل القدماء والمحدثين ، كمثل رجلين ابتدأ هذا بناء فاحكمه وأتقنه ، ثم أتى الأخر فنقشه وزينه ، فالكلفة ظاهرة على وان حسن ، والقدرة ظاهرة على ذلك وان خشن .[2]

وقد قيل : إنّ الكهل الفخم ، وكهل لفظه ليست بقبيحة التأليف ، لكنها وحشية غريبة لا يعرفها مثل الأصمعي .[3] ومن ذلك لفظه "الكنهور" في وصف السحاب قال المتنبي :

وتـــرى الفضـــيلة لا تـــرد فضـــيلة الشـــمس تشـــرق والســـحاب كنهـــوراً [4]

فالفظة "الكنهور" لا تعاب نظماً وتعاب نثراً ، وكذلك يجري الأمر في لفظه (العريس) وهي أسم الناقة الشديدة ، فأن هذه اللفظة يسوغ استعمالها في الشعر ولا يعاب مستعملها .[5]

ولفظة الحوشي والوحشي شاعت في ألسن الناس وتكلم بها القدماء والمحدثون ، وأن لم تقع في كلام العرب إلا على ضعف وقلة ، فأما العبث في العبارات والزيادة في حروف الكلم على ما سمع من العرب كقول بعضهم "المترادف" فليس يقع مثل هذا لمن يقصد ان يكون كلامه عربياً ، وإنمّا يقع لمن قصده العبث وشوب الفصاحة بالكنة والعروبة بالصحيحة ، فليس على مثل هذا الكلام .[6]

---

[1] المطول على التلخيص : 18 .

[2] العمدة : 1/ 92 ، ينظر : المثل السائر : 228/1 ، 234 .

[3] سر الفصاحة : 56 .

[4] ورد هذا البيت في المثل السائر : 238 .

[5] المثل السائر : 238 .

[6] ينظر / منهاج البلغاء : 332 .

فقد استطاع علماء البلاغة المتقدمين رصده بيسر وتقيده في كتب البلاغة إذ لا تتجاوز عدد أصابع اليدين من بين هذا الحشد الهائل من الكلام العربي المأثور والمسموع والمدون ، وقد فطن إلى ذلك الفراهيدي في مقدمة العين إلي إنه لا يأتي اللفظ العربي أن يجمع بين أصوات الحلق ، الهاء والخاء ، والعين ، لكونها من مخرج واحد وتقارب مدارجها فإن اصطنعت لفظه مثل "الهعخع" و "الخرضع" لا ينسجم مع الذوق السليم فضلاً عن حمل اللسان على نطق هذه الكلمات على غرابتها كما يرى اللغويون ، من الأصوات ذات الجرس الناصح يستحسن البناء في السماع .[1] فانه الحكم في هذه المسألة هو الصوت ومخارج الحروف والكلمات المألوفة عند سماعها والاستماع بها ، هذا ما عرفناه عن الوحشي والحوشي من أصوات الألفاظ .

البعد الصوتي في طول اللفظة وقصرها :

تنبه علماء البلاغة والنقد إلى علاقة الصوت بطول اللفظة وقصرها وذكروا هذه الظاهرة الصوتية في كتبهم ، وبين ابن جني (392هـ) ان هذا الاختلاف في أطوال حروف الثلاثي سبب حسن تأليفه وخفته في الكلام وعلى هذا قال : " فذوات الأربعة مستثقلة غير متمكنة تمكن الثلاثي ، لأنه إذا كان الثلاثي أخف ، وأمكن من التنافي على قلة حروفه ، فلا محالة أنه أخف وأمكن من الرباعي لكثرة حروفه ، ثم لاشك فيما بعد في نقل الخماسي وقوة الكلفة به " [2]

على أن هذا لا يعني من وجهة نظر علماء البلاغة قاعدة لا يمكن الخروج عنها لأن مدار الأمر فيهما هو مراعاة الذوق في استحسان صوت اللفظة وقبولها ، فأشار أبو هلال العسكري (395هـ) في معرض نقده للألفاظ ومخالفتها لوجه الاستعمال ، قال : " ومن الألفاظ وما يستعمل رباعيه وخماسيه دون ثلاثيه ، ومنها ما هو بخلاف ذلك فينبغي إلا تعدل عن جهة الاستعمال فيها ولا يغرك إن أصولها مستعملة ، فالخروج عن الطريقة المشهورة ، والنهج المسلوك رديء على كل حال ، ألا ترى أن الناس يستعملون (التعاطي) فيكون متهماً مقبولاً ولو استعملوا (العطو) وهو اصل هذه الكلمة وهو ثلاثي والثلاثي اكثر استعمالاً لما كان مقبولاً ولا حسناً مرضياً ، فقس على هذا " [3]

---

[1] أبحاث ونصوص في فقه اللغة العربية : 208 ، 209 ، ينظر : جرس الألفاظ : 203 .

[2] الخصائص : 61/1 .

[3] كتاب الصناعتين : 155 .

فمرد استحسان صوت الثلاثي في الاستعمال بعده الصوتي ، وقلة استعمال الأبنية الرباعية وإهمال اكثر الخماسي ، هو ثقل الصوت ، أي ان في جرسها الصوتي رنيناً يزيد على رنين الثلاثي يقدر زيادة أصوات حروفه وطبيعة مخارجها ، أي أن قيمة هذا الرنين المؤلفة يتوقف على مدى تنافر او ائتلاف أجراس حروفها ، وهذا ما ذهب إليه ابن الأثير في رده على ابن سنان الخفاجي في جعله اعتدال حروف الكلمة أحد شروط فصاحتها فأنها متى زادت على الأمثلة المضادة قبحت .[1]

وكان علماء البلاغة قد اشترطوا في اللفظة خفتها وسلاستها وعدم تنافر حروفها ، فأنهم اشترطوا في العبارة أن تنساب كلماتها بسهولة ، فلا يشعر اللسان بثقل وهو ينتقل من لفظ إلى لفظ ، وذموا التركيب الذي تتنافر ألفاظه ويتعثر اللسان بنطقها وسموا ثقل اللفظة وصعوبة التلفظ بها "المعاظلة اللفظية " لأن المعاظلة تعني تركيب الألفاظ وتداخلها .[2] والبعد الصوتي للألفاظ يجب أن لا يخرج عن قانون اللغة العربية وأبنيتها .

والبعد الصوتي في الألفاظ ليس من الضرورة أن يرتبط في طول اللفظة وقصرها وإنمّا من خلال ما تأديه هذه الألفاظ من أصوات يتقبلها المستمع أو ينفر عنها ، وفي رد أبن الأثير عن اللفظتين (جحمرش) و (صهصلق) وما جرى مجراهما قال : " وكان ينبغي على ما ذكره ابن سنان أن تكون هاتان اللفظتان حسنتين ، واللفظتان الواردتان في القرآن قبيحتين ، لأن تلك تسعة أحرف وعشرة وهاتان خمسة " [3]

وهذا خلاف ما ذهب إليه ابن سنان والاعتبار بهذا الخصوص عند ابن الأثير ، إنما هو نظم تأليف الحروف بعضها مع بعض ، قال : " ولهذا لا يوجد في القرآن الكريم من الخماسي الأصول شيء إلا ما كان اسم نبي عرب اسمه ، ولم يكن في الأصل عربياً نحو (إبراهيم) و (إسماعيل) .[4] فان الألفاظ المؤلفة من حروف بثقل النطق بها يجب تجنبها سواء كانت طويلة أم قصيرة مثل بيت امريء القيس : [5] مستشزرات . قال : فلفظة (مستشزرات) مما يقبح استعمالها ،

---

[1] ينظر : سر الفصاحة ، 54 .

[2] المثل السائر : 292/1 ، ينظر : جرس الألفاظ : 165 .

[3] المثل السائر : 265/1 .

[4] نفسه : 265/1 .

[5] ديوانه : 185 .

لأنها تثقل على اللسان ويشق النطق بها ... لو جعلنا عوضاً من الزاي راء ومن الراء فاء فقلنا (مستشرف) لزال ذلك الثقل فأن (المستشزرات) المقتولات ، (إشزرا أي على غير جهة) .[1]

وقد وافق القزويني ابن الأثير هذا الاستنتاج ، من أن لفظة (مستشزر) مما يثقل على اللسان نطقه بسبب تنافر حروفها وتبعه العلوي فيما ذهب إليه ، وإنمّا المعول عند العلوي في استجلاء حسن اللفظة وقبحها هو الذوق .[2] ويعتقد الباحث أن جمالية الصوت ناتجة من تلائم حروف اللفظة ، ولا علاقة له بطول اللفظة أو قصرها . ويلمس الباحث بوضوح أن ملاحظات القدماء كانت تدور في حدود سلامة البناء اللفظي للكلمة من تنافر الحروف أو أصوات مخارجها ، ولكن نجد بعض الدراسات المعاصرة قد عنيت بدراسة اللفظة واستقلالها برسم صورة شاخصة من خلال طبيعة تركيبها الصوتي فوجدت أن كثيراً من الكلمات التي تبدو متنافرة الأصوات ضرورية في السياق ، وإنها بجرسها وأصواتها التي تألفت منها تعطي من الدلالات والإيحاءات مالا يغنى فيه غيرها ، فقد وردت في القرآن الكريم ألفاظ تميزت فيهما التعبيرية بجرسها الذي تلقيه في الأذن وبقدرتها على إثارة الخيال فلفظة (إثا قلتم) تسمعها الأذن فيتصور الخيال ذلك الجسم المتثاقل ليس بصوته وإنمّا بتأليف حروفه والبعد الصوتي الناتج من خلال هذه الحروف المتثاقلة .

ولو انك قلت ، (تثاقلتم) لخف الجرس ولضاع اثر التشرد ولتوارت الصورة المطلوبة التي رسمها اللفظ واشتعل برسمها وعلى ما في كلمة (اثاقلتم) من صعوبة واضحة في النطق ، وتقل بين على السامع لا يحسهما الإنسان في الكلمة الأخرى (تثاقلتم) لكن الكلمة الأولى بتشكيلها الصوتي ضرورية في هذا الموضع ولفظة (بمزحزحه) في قوله تعالى : ﴿ **بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ**﴾ [3]

إنّ الآية الكريمة توحي للسامع بصوتها ، صورة الزحزحة المعروفة كاملة متحركة من خلال هذه اللفظة المفردة . ولفظة أخرى طويلة في حروفها لكنها جميلة بصوتها مثل قوله تعالى : ﴿فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ﴾ [4] فكلمة (كبكبوا) يحدث جرسها صوت الحركة التي تثم بها ويصورها للسامع أدق تصوير ، ومن الواضح أن وضع هاتين اللفظتين اللغوي هو الذي يمنحها هذا البعد الصوتي ، وليس على استعمال القرآن الخاص لها ، كما هو الشأن في (اثاقلتم) أي ان مثل هذه الكلمات تعتمد قوة الجرس الذاتية في بنائها اللفظي ، أداة للتعبير والإيحاء ، وتحفل لغة الشعر بالكثير من هذه الألفاظ ، وهكذا نجد عدداً وفيراً

---

[1] المثل السائر : 110/1 ، ينظر : جرس الألفاظ : 168 .

[2] الطراز : 110/1 ، ينظر : جرس الألفاظ : 168 .

[3] البقرة : 96 ، التوبة 38 .

[4] الشعراء : 94 ، ينظر : التصوير الفني في القرآن : 79 .

من الكلمات التي تبدو ثقيلة الصوت تؤدي وظيفة فنية في تشكيل الصورة وابراز معالمها على نحو يتعذر معه الحكم عليها بمقتضى معيار البلاغيين . [1]

يقول المتنبي : [2]

ان الكـــــريم بـــــلا كـــــرام مـــــنهم مثـــــل القلـــــوب بـــــلا ســـــويداواتها

سويداء القلب حبته ، وجمعه سويداوات ، يقول الكرام من الخيل إذا لم يكن عليها فرسان من هؤلاء الممدوحين كالقلب إذا لم يكن فيه سويداء ، وقال : أنّ لفظة (سويداواتها) ، طويلة فلهذا قبحت.[3]

يقول ابن الأثير والذي يرد دائماً على بعض شواهد ابن سنان ، " وليس الامر كما ذكره ، فأن قبح هذه اللفظة لم يكن بسبب طولها ، وإنمّا هو لأنها في نفسها قبيحة ، وقد كانت وهي مفردة – حسنة فلما جمعت قبحت ، لا بسبب الطول" . [4]

ولا شك ان مثل هذه الكلمات ان صحت روايتها مما يثقل على اللسان وتنفر الاذن لطولها أولاً وتضمنها من الحروف ما يتطلب جهداً أكثر ، ولهذا تعد رديئة الموسيقى وهذه ظاهرة صوتية تعرض لها أهل البلاغة في كتبهم . [5]

المبحث الثالث : موسيقى الألفاظ :

تحدثنا في المباحث السابقة عن نعوت الألفاظ وتناغم أصواتها وعلاقاتها فيما بينها ومما تؤديه هذه الأصوات من وظائف لغوية مفهومة لدى المستمع .

فقد عرف الخليل بن احمد الفراهيدي (175هـ) أن اللغة العربية لغة موسيقية ذات أنغام خاصة ، وأن أدراك موسيقى اللغة يتوقف على توفير حس موسيقي وملكة موسيقية ، وهو ما توفر له ، فقد عرض للإيقاع والنغم ، ووفق على أصولها المعروفة حتى يكاد المؤرخون يجمعون على ان له كتاباً في النغم وآخر في الإيقاع .[6]

---

[1] التعبير البياني : 5 ، 6 .

[2] ديوانه : 230/1 ، في مدح أبي أيوب .

[3] ينظر / المثل السائر : 265/1 .

[4] سر الفصاحة : 78 .

[5] موسيقى الشعر : 34 ، ينظر : جرس الألفاظ : 168 .

[6] الخليل بن احمد الفراهيدي : 185 .

شغف العرب بموسيقى الألفاظ وجمال وقعها ، وما الإعلال والإبدال والإدغام وعدم جواز الابتداء بالساكن ، إلا مظاهر لعناية العرب المفرط يجعل الكلمة وحدة منسجمة تخف على اللسان ، ويعذب وقعها في السمع .[1]

وكما شغفوا بموسيقى اللفظة واجتهدوا في تخليصها مما يفقدها التلاؤم أو التكافؤ بين حروفها وحركتها ، كذلك حرصوا على موسيقى العبارات واهتموا بأن تنسجم الكلمات في داخلها من الناحية الصوتية ، بحيث تؤلف بمجموعها نغماً تطرب له الأذن وتقبل عليه النفس ، وكان البيان القرآني قد أهتم بموسيقى اللفظة ، وحرص أشد الحرص على تحقيقها ، فوافق ذلك هوًى في نفوس العرب وهم المولعون بسحر الكلمة ، الناشدون لخفتها وعذوبة وقعها ، وحين مرّنوا على صناعة المنثور والمنظوم ، ورشحت أقدامهم فيها ، كان أحب شيء إلى نفوسهم أن تصدر عنهم العبارات المتناغمة التي تتعادل وحداتها الصوتية وتتوافق من حيث الأوزان .[2]

إنّ هذا التلذذ الذوقي في اللغة من حسن جرس الألفاظ ورنينها ووزن لحنها الموسيقي، كان دأباً ود يدنا للعرب ، منذ عهد سحيق ، ففيما قبل الإسلام كان الخطيب إلى جانب الشاعر في مقام عظيم ، إذ كان صاحب الكلمة العليا في القبيلة ، ولكن كما يحوط النغمة الرئيسة السائدة في الموسيقى إيقاع دائم مستقل ، بين إنصاف الأصوات وأرباعها ، ومع ما في ذلك من تعاقب مختلف الأوزان والألحان وتنوع نغمات الختام .[3]

فهناك موسيقى لفظية واضحة كاللون الفاقع تسهل محاكاتها ، وهذه ليست بأعمق الموسيقى ولا خيرها ولا اشدها أصالة ، بدليل أن محاكاتها سهلة ميسورة . وإما الموسيقى العميقة فهي موسيقى النفس لا موسيقى اللفظ ، وكثيراً ما تخفى على القارئ العادي ولكنها دائماً أصيلة كعز محاكاتها وتفعل في النفس فعلا لا يعيه غير القليل من القراء .

نجد النقاد والبلاغيين العرب كانوا بسبيل كشف قوانين الجمال في العنصر الزماني للصورة الجميلة ، يركزون على المعاني التي تحتملها الألفاظ بما هي أصوات دالة ومفهوم ان يكون في الصوت إيقاع ويتمثل هذا في اللغة من حيث إنها أصوات ، ومن حيث هي دلالات .[4] ويشكل التلاؤم الصوتي بين الألفاظ ضرباً من التناغم أمسه القدماء في بحثهم لتركيب ، الحروف فميزوا

---

[1] النقد الجمالي : 132 .

[2] ينظر / النقد اللغوي عند العرب : 294 .

[3] ملامح من تاريخ اللغة العربية : 191 .

[4] نقد الشعر : 141 ، ينظر : الأسس الجمالية : 232 .

ما يتألف من الحروف وما يتنافر ، ووجدوا لهذا التناغم بين الألفاظ " إيقاعاً يطرب الفهم لصوابه وما يرد عليه من حسن تركيبه واعتدال أجزائه" [1]

وفي حسن اللفظة المؤلفة من الحروف المتباعدة في العلة في حسن النقوش إذا مزجت من الألوان المتباعدة . وهو ما يؤكد صواب نظرة ابن سنان حين اتبع هذا المقياس بمقياس أخر هو : أن تجد لتألف اللفظة في السمع حسناً ومزية على غيرها وان تساوياً في التأليف من الحروف المتباعدة .[2]

فلا يكفي تباعد مخارج الحروف بجمال اللفظة ، إنمّا هو شيء يتعلق بالتأليف المخصوص ويمثل لذلك بلفظة (عذب) فأنها جميلة ولكنك لو قدمت الذال أو الباء لم تجد الحسن على الصفة الأولى في تقديم العين على الذال لضرب من التأليف في النغم يفسده التقديم والتأخر .[3]

وإيقاع اللفظ المفرد ، والمراد به جرس الكلمة ونغمة اللفظ وموسيقى الصوت وما يجلبه ذلك من وقع الأذن ، وأثر عند المتلقي في أثارة المنبهات النفسية عند الإنسان وقد صرح بهذا إبن الأثير بقوله: " فالذي يستلذه السمع منها ، ويميل إليه هو الحسن ، والذي يكرهه وينفر منه هو القبيح " [4]

ومع أن موسيقى الشعر الجاهلي عالية وصارمة ، إلا أنها تتلون داخل القصيدة بإختلاف أغراضها عند الشعراء الكبار ، وهذا ما نجده عند عنترة ، فحين يفخر بنفسه في الحرب نسمع دقات طبول ، وحين يتحدث عن المرأة المثال ، نسمع صوت ناي مليء بالشجن ، ونصل إلى ما يمكن أن يسمى (بالهيكل الموسيقي) في المذهبة ، وقيمة هذا البناء لا تقف عند حد ما يمكن أن يسمى (الإشباع الموسيقي) وإنمّا يتعداه إلى الإحساس بوجود هيكل موسيقي أساساً من مضمون القصيدة .[5]

إنّ الحديث عن القيم الصوتية للألفاظ ودلالتها الإيحائية عند البلاغيين تقسم إلى :

1- الموسيقى الداخلية ، والمقصود بها جرس اللفظة المفردة ووقعها على السمع الناشئ من تأليف أصوات حروفها وحركاتها ، ومدى هذا الإيقاع الداخلي مع دلالة اللفظة ووقع تأليف أصوات

---

[1] ينظر / سر الفصاحة : 55 .

[2] ينظر : المثل السائر : 206/1 .

[3] سر الفصاحة : 54 ، ينظر : النقد البلاغي عند العرب : 98 .

[4] المثل السائر : 114/1 .

[5] الأدب وروح العصر : 32 ، 33 .

حروفها وحركاتها على الأذن وللموسيقى الداخلية أثر مهم في إثارة الانفعال المناسب ، فالإيقاع الداخلي للألفاظ والجو الموسيقي الذي يحدثه عند النطق بها .

وقد عالج البلاغيون ذلك وهم يتحدثون عن فصاحة اللفظة المفردة ، فقد ربط البلاغيون بين الجو الموسيقي الداخلي الذي يشيعه جرس اللفظة وإيقاعها وبين حسن اللفظة المفردة وقبحها وقد أخذت تعبيرات البلاغيين من هذه الظاهرة الصوتية ، صيغاً شتى ، فوصفوا ذات الجرس الكريه عن السمع بالغثاثة والاستكراه .[1] واللفظ الذي يستلذه السمع ويطرب له : " أن يكون سمحاً ، سهل مخارج الحروف من مواضعها عليه رونق الفصاحة مع الخلو من البشاعة "[2]

قال الشاعر :

يعيد مدى التطريب أول صوته تحيك وأدناه شحيح مخرج[3]

2- الموسيقى الخارجية ، والمقصود بها الموسيقى التي تتألف من ارتباط الألفاظ مع بعضها البعض في البيان العربي . والإيقاع عبارة عن تردد ظاهرة صوتية بما في ذلك الصمت على مسافات زمنية متساوية أو متقابلة .

والإيقاع موجود في النثر كالشعر مع فارق جوهري واحد هو : أنه في النثر تتطابق الوحدات الإيقاعية مع الوحدات اللغوية ، وأما في الشعر فضرورة المساواة بين الوحدات الإيقاعية كثيراً ما تفضي بأن تنتهي في وسط اللفظ دون تكملة الجملة .[4]

وفن الموسيقى قد يكون سهلاً ، لأنه في هذه الحالة تكون هناك صورة تشغل حيزاً واضحاً من المكان أو من الزمان وبأصواتها المعروفة ، ويكون موضوع الصورة أو اللفظة الموسيقية هو ما يمثل الصورة الثابتة في الفعل الفني لموسيقى الألفاظ .

الإيقاع على المستوى الصوتي :

وهذا الإيقاع يعني اثر الصوت في اللفظة المفردة وتألفه مع الأصوات المجاورة له وما يتركه من أثر في المتلقي ، وهذا ما يمكن ملاحظته من خلال معرفة الصفات الأساسية التي يبسطها

---

[1] ينظر : عيار الشعر : 14 ، العمدة : 128/1 ، سر الفصاحة : 54 ، دلائل الاعجاز : 117 .

[2] نقد الشعر : 26 ، 27 .

[3] محشرج : فيه حشرجة وهي تردد صوت الحمار ، في حلقه وقيل : هي صدره ، وهذا يوصف به الحمار الوحش : نقد الشعر : 31 .

[4] الاسس الجمالية : 173 ، ينظر : موسيقى الشعر : 49 ، في الادب والنقد : 25 التصوير الفني في القرآن : 88 .

الصوت داخل المفردة الواحدة كالشدة والرخاوة والهمس واللين وغيره ، وهذا ما يطلق عليه باللغة التعبيرية للصوت ، إذ يشترك الصوت في الدلالة على المعنى .

وعلى هذا الأساس يمكن اعتبار العمل الفني ، هو أولاً نظام للأصوات ثم انتقاء من النظام الصوتي لغة ما ، وهذا ما أشار إليه ابن الأثير بقوله : " فالذي يستلذه السمع منها ويميل إليه هو الحسن ... " [1]

وقد لاحظ البلاغيون أن الطبيعة النغمية في الإيقاع ، لها أثر في حسن اللفظة وفي إكسابها وقعاً موسيقياً ، وهذه الطبيعة النغمية هي التي تحدد جمال إيقاع اللفظ الموسيقي وأثره الصوتي ومما تؤديه من انفعالات نفسية .[2]

وقد قرر إبن الأثير أيضاً أن بعض الحروف إذا دخلت في بناء اللفظة حسنه كالحروف الشجرية مثل (الجيم) أو (السين) وضرب ذلك مثلاً لفظة (جيش) المكونة من هذه الحروف .[3]

وهذا الذي قرره البلاغيون في كتبهم البلاغية ، ينطبق تماماً مع ما جاء في النص القرآني من ألفاظ ألقت ظلالاً موسيقية من خلال ما يمتلكه الصوت من طبيعة نغمية خاصة .

ثم يرى إبن الأثير ، أنه إذا مكنا حروف لفظة (ملع) صارت (علم) وهي لفظة حسنة الجرس لا مزيد على حسنها .[4]

وهو بهذا يشير إلى خاصية الانسجام بين أصوات المفردة لتتناسب الخاصة بالأصوات بعضها مع البعض الآخر ، وقد سبق إبن الأثير إلى ذلك الجاحظ ، وهو يتحدث عن اقتران الحروف في الكلمة ، فيرى : أن بعض الحروف لا ينسجم مع بعض فيقول : " فإنّ الجيم لا تقارن الظاء ولا القاف ولا الطاء ولا الغين بتقديم ولا بتأخير " [5]

وهذا الإيقاع الصوتي لا يتم في المفردة إلا بانسجام أصوات حروفها في الكلام .

ولو نظرنا إلى مفردات النص القرآني لوجدنا التناسق والانسجام الصوتي بينها وبين أصواتها ظاهراً ، فلا نعثر إطلاقاً على تشكيلاته لأصوات متنافرة من ناحية الجرس الموسيقي كما قرره الجاحظ والبلاغيون من بعده ، بل العكس نجد الانسجام واضحاً بين طبيعة الصوت النغمية لكل

---

[1] المثل السائر : 114/1 .

[2] ينظر : عيار الشعر : 14 ، المثل السائر : 225/1 ، منهاج البلغاء : 222 .

[3] المثل السائر : 225/1 .

[4] نفسه : 225/1 .

[5] البيان والتبيين : 69/1 ، ينظر : رسالة ماجستير الإيقاع دلالته وأنماطه : 106 ، 128 .

من الأصوات المكونة للفظة ، فالجرس الذي يحدثه الصوت داخل اللفظة وبتناسقه مع أجراس الأصوات الأخرى ، ليشكل البعد الصوتي للفظة كلها .

فالجرس يشكل خصيصة ذاتية محسوسة في بناء اللفظة من خلال تباين أجراس حروفها التي بقيت عليها وتشكيل هذه الحروف في ائتلافها وتنفر نغم الألفاظ وقيمها الحسية ، مفردة كانت أو منظومة في سياق التعبير الأدبي ، وكما تتغير أحوال الألفاظ في صيغها المختلفة تتغير بطبيعة أنغامها.[1]

ولا تحصل موسيقى الألفاظ بتأليف أصواتها وتنويعها في اللفظة فحسب ، بل أن للحركات الفتحة والضمة والكسرة ، أثراً كبيراً في إضفاء البعد الصوتي للألفاظ ، فالحركة كما لبقية الأصوات نغمية خاصة وبتناسق الحركة مع الصوت تكتسب اللفظة إيقاعاً موسيقياً واضحاً .[2] كما أن " بعض الحروف لطبيعته النغمية الخاصة يكون أكثر انسجاماً مع بعض الحركات دون بعض ، بصرف النظر عن صفتها أو ثقلها ، ويختلف هذا الانسجام وعدمه من حرف إلى حرف ومن حركة إلى حركة وما يؤد به من إيقاع صوتي في المفردة .

وتكون حدة الصوت أو غلظه ، وعلى حسب غنى الموجات الداخلية للإيقاع الصوتي لتلك الصفة المميزة للأصوات الموسيقية عن الأصوات غير الموسيقية المشابهة لها في درجة الإيقاع والشدة ، والتي يمكن أن تعبر عنها بثراء الصوت الموسيقي ، ونحسها في امتلاء الصوت الموسيقي بنغمات ثانوية تستخدم معه ، أي إن بينها وبينه علاقة تدركها بالأذن ويمكن أن تعبر عنها بالقياس وشدة الصوت هي التي تصاحب ما يسميه اللغويون بالبر ، وقد تتميز بعض المقاطع عن البعض بالشدة أو اللين أو الإنخفاظ ، ويكون هذا الإيقاع الصوتي ناشئاً عن إحتشاء الجهاز الصوتي عند إخراج بعض المقاطع الصوتية دون بعض ، أما درجة صوت فيترتب على اختلافها اختلاف المقطع الصوتي حدة وغلظاً ، ويعبر عن ذلك في الاصطلاح الموسيقي بالارتفاع والانخفاظ ولذلك يجب ان نحترس من الخلط في معنى الشدة ومعنى الدرجة من خلال ما يؤديه الإيقاع الصوتي في الألفاظ .

التنغيم الصوتي ، The phonetic Transcription :

---

[1] ينظر : البيان والتبيين : 75/1 ، المثل السائر : 125/1 / دلائل الأعجاز : 37 ، 47 / نهاية الإيجاز في دراسة الأعجاز : 57 ، جرس الألفاظ : 50 / لغة الهمس : 108 .

[2] ينظر : سر الفصاحة : 11 .

الصوت له قيمة سمعية في اللغة العربية ، فكل حرف له صوت ترفع طبقته من التنغيم إلى مخرجه من جهاز النطق ، والنغم في اللغة : " النغمة : جرس الكلمة وحسن الصوت في القراءة وغيرها ، وهو حسن النغمة ، والنغم ، الكلام الخفي والنغمة الكلام الحسن ، وقيل هو الكلام الخفي"[1]

وعني العلماء العرب بنغمات لغتهم في تحسين الكلام ومنذ وقت مبكر ، وهذا الذي لاحظه البلاغيون وذكره الخليل (175هـ) من قبل وذهب إلى أن لكل حرف من حروف الهجاء طبيعة نغمية خاصة ، وأن بعضها إذا دخل بناء اللفظة حسنه ، والأخر أن دخله قيمه بصرف النظر عن مخارج أصواته ، فمن ذلك مثلاً (العين) و (الكاف) ، فيقول : كما نقل عنه فخر الدين الرازي (606هـ) : " العين والقاف لا يدخلان في بناء إلا حسناه لأنها أطلق الحروف ، فإما العين فانصع الحروف جرساً ، فإذا كانتا أو إحداهما في بناء حسن البناء لنصاعتهما ، فأن كان البناء لزمته السين والدال مع لزوم العين او القاف ، لان الدال لانت عن صلابة الطاء وكزازتها وارتفعت من فنون الثاء فحسنت وصارت حال السين بين مخرج الصاد والزاي كذلك"[2]

إذن التنغيم intonation ، هو تغيرات تنتاب صوت المتكلم من صعود إلى هبوط ومن هبوط إلى صعود لبيان مشاعر الفرح والغضب والنفي والإثبات والتهكم والاستهزاء والاستغراب ، وتسمى النغمة صاعدة ، والنغمة هابطة .[3]

ومعظم اللغات يمكن ان تسمى لغات تنغيمية لأنها تستخدم التنوعات الموسيقية في الكلام بطريقة تميزية تفرق بين المعاني والى اختلاف التنغيم يرجع الفضل أن نعبر عن كل مشاعرنا ، وحالاتنا الذهنية من كل نوع ، ويمكن في معظم اللغات أن تغير الجملة من خبر إلى استفهام إلى توكيد إلى انفعال إلى تعجب ، دون تغير في شكل الكلمات المكونة ومع تغير فقط في نوع التنغيم [4].

وسمى الدكتور إبراهيم أنيس ، التنغيم موسيقى الكلام موجود في معظم اللغات ومن أمثلة التنغيم في العربية ولهجاتها من النوع غير التمييزي الذي يعكس إما خاصة لهجية أو طبيعة نطقية للأفراد .[5]

---

[1] لسان العرب : مادة (نغم) ، 3 /682 ، ينظر : سر الفصاحة : 14 .

[2] نهاية الإيجاز في دراسة الأعجاز : 57 .

[3] ينظر / البحث الصوتي عند العرب : 63 .

[4] دراسة الصوت دراسة لغوية : 195 .

[5] ينظر : دلالة الألفاظ : 195 ، الأسس الجمالية في النقد العربي : 270 / 272 أبحاث في أصوات العربية : 19 .

لقد جمع القرآن الكريم بين موسيقى الشعر ، إذ نغمة الوزن ، والاهتزاز النفسي وموسيقى النثر حيث الإيقاع العميق الذي يحدثه دقة التوزيع وحسنه بين الحروف ذاتها والكلمة والعبارة والآية والسورة ، وموسيقى الحس . أن نظم القرآن يجمع إلى جمال عزه وعذوبة صوته .

قال تعالى : ﴿ ن ، ص ، ق ﴾ [1] هذه ثلاثة أحرف جاءت مفردة في بدء السور التي بدئت بالحرف وتلاحظ كل منها ، (ن) و (ص) و (ق) نغماً موسيقياً متكاملاً له مطلع وله قرار ، ومطلعه يلتقي مع قراره ، كأنه نبع ماء يتدفق في غدير .

هذا ما تجده أذنك للحرف الكريم ، (ن) وللحرف الكريم ، (ص) مطلع رائع وقرار مكين يلائم الفم من أقصى الحلق إلى ملتقى الشفتين والشأن في ذلك الحرف الكريم (ق) ولو تخيرت بنفسك حروف المعجم كلها فانك لن تعثر على حرف رابع يشارك هذه الحروف مكانها في أداء هذا النغم الموسيقي الذي يؤديه كل منها بمفرده .

إن هذه الحروف الصامته الناطقة بأبلغ بيان وأروع معنى ، فأن مهما يذهب المرء في كل مذهب ومهما يغير ويبدل من أوضاع الحروف ، فلن يجد غير ما صنع القرآن في هذه الحروف وغير ما أختار منها ، إذ ليس وراءها شيء يصلح لأن يكون إزاءها ، أو يحل مكانها .

فلو اجتمع علماء الأصوات وأرباب الموسيقى ، لاختيار حروف اللغة العربية في ميزان النغم ، فإن استقام منها حرف أو حرفان على نغم موسيقى يتوازن مع تلك الحروف التي تخيرها القرآن لمطالع سوره .[2]

إن نظم القرآن ونغمه ينبعث من كلماته وحروفه وأسلوبه ، فحروفه متآخية ، في كلماته لها موسيقى ونغم تهتز لها المشاعر وتسكن عندها فتطمئن النفوس والكلمات في تآخيها في الألفاظ تنتج موسيقى ونغماً يختص به القرآن واحدة ، وان أي كلام مهما يكن علو صاحبه في البيان لابد أن يكون مختلفاً عن القرآن .[3] هذا شيء من فيض فسور القرآن وكلماته وانسجام حروفه لها نغم خاص لا يضاهيه أي نغم آخر في الكون .

فقد كان التنغيم مجال دراسة الجملة لدى تعبيرها عن اكثر من حالة نفسية وأسلوب البيان لدى تعبيره عن المعنى الواحد بصور متعددة ، وهذا وذاك جزء هاماً في علمي المعاني والبيان نحواً وبلاغة وهي معالم أشبعتها الدراسات البلاغية بحثاً وتمحيصاً ، فهذا الذي ذكر هو امتداد للصوت ونغماته .

---

[1] ن : 1 و ص :1 وق : 1 / ينظر / سر الفصاحة :89 ، من بلاغة القرآن : 56 .

[2] ينظر : دلائل الأعجاز : 362 ، نقد الشعر : 15 ، الأعجاز القرآني : 19 .

[3] البناء الصوتي في البيان القرآني : 22 .

الباب الثاني : التناسق الصوتي

الفصل الأول : التلاؤم الصوتي في كتب البلاغة العربية .

المبحث الأول : التلاؤم الصوتي وجمالية الصوت .

المبحث الثاني : التكرار الصوتي والفاصلة الصوتية .

المبحث الثالث : الفضاء الصوتي في الشعر والقافية الصوتية .

الفصل الأول : التلاؤم الصوتي في كتب البلاغة العربية .

المبحث الأول : التلاؤم الصوتي وجمالية الصوت .

المبحث الثاني : التكرار الصوتي والفاصلة الصوتية .

المبحث الثالث : الفضاء الصوتي في الشعر والقافية الصوتية .

المبحث الأول : التلاؤم الصوتي :

أما التلاؤم ، أو الموسيقية ، فهو كلمة جامعة لكل وصف لابد منه في اللفظ ليكون الكلام خفيفاً على اللسان ، مقبولاً في الأذن ، موافقة لحركات النفس ، والتلاؤم يكون في الكلمة بائتلاف الحروف والأصوات وحلاوة الجرس ويكون في الكلام بتناسق النظم وتناسق الفقرة وحسن الإيقاع .

وإن فصيلة التلاؤم هي في أصوات الألفاظ والحروف ، لا ألفاظها تقوم أساساً على إطلاق هذه الأصوات والحروف ، وان العرب قد درسوا الأصوات ومخارج الحروف وطرق النطق ، وفطنوا إلى وجود أفعال وأسماء وأصوات ترتبط فيها المعاني بوقع تلك الأصوات وتساهم في نقل المعنى أو الإحساس ، وعلى الرغم من أنهم درسوا تلاءم الأصوات في علم الفصاحة من حيث الخصائص السلبية لها ، من انتقاء التنافر والتعقيد ، وأن بعض من علم اللغة قد فطن إلى وجود علاقة إيجابية بين بعض الأصوات ومعانيها .

وكان بشر بن المعتمر من أقدم من عرض لهذا القياس ، فقال في صحيفته المشهورة " ومن أراع معنى كريماً فليلتمس له لفظاً كريماً فأن حق المعنى الشريف اللفظ الشريف" [1]

ويعد الرماني (386هـ) من ابرز الدارسين صوتاً ، وأقدمهم سبقاً إلى الموضوع وأولهم تمرساً فيه ، لأنه بالضرورة قد مزج بين دراسة الأصوات وعلم المعاني مطبقاً تجاربه في باب التلاؤم تارة ، ومتخصصاً لدراسة الفواصل للآيات البلاغية المتلائم صوتياً تارة أخرى .

أما التلاؤم الصوتي عند الرماني ، فهو نقيض التنافر ، والتلاؤم تعديل الحروف متجانسة تماماً ، فأن القرآن كله متلائم في الطبقة العليا ، والفرق بين القرآن وبين غيره من الكلام في تلاؤم الحروف على نحو الفرق بين المتنافر والمتلائم في الطبقة الوسطى ، وبعض الناس أشد إحساساً بذلك وفطنة له من بعض ، كما أن بعضهم أشد إحساساً بتمييز الموزون في الشعر من المنثور واختلاف الناس في ذلك من جهة الطباع كاختلافهم في الصور والأخلاق ، والسبب في التلاؤم تعديل الحروف في التأليف ، فكلما كان أعدل كان أشد تلاؤماً ، وأما التنافر فالسبب فيه ما ذكره الخليل من البعد الشديد أو القريب الشديد ، وذلك أنه إذا بعد البعد الشديد كان بمنزلة الطفر ، وإذا قرب القرب الشديد كان بمنزلة مشي المقيد لأنه بمنزلة رفع اللسان ورده إلى مكانه ، وكلاهما صعب على اللسان .[2]

---

[1] البيان والتبيين : 135/1 ، ينظر : الحيوان : 39/3 .

[2] ثلاث رسائل في أعجاز القرآن : 94 ، 95 ، ينظر : العمدة : 213/1 / النقد اللغوي عند العرب : 130 / الصوت اللغوي في القرآن الكريم : 77 .

ويأتي موقف الرماني (386هـ) الذي رأى أن : " الفائدة في التلاؤم حسن الكلام في السمع ، وسهولته في اللفظ وتقبل المعنى له في النفس لما يرد عليها من حسن الصورة وطريق الدلالة ، ومثل ذلك مثل قراءة الكتاب في أحسن ما يكون من الخط والحرف ، وقراءته في اقبح ما يكون من الحرف والخط ، فذلك متفاوت في الصورة وان كانت المعاني واحدة " [1]

وذكر الرماني التلاؤم الصوتي على مخارج الحروف فيقول : " ومخارج الحروف مختلفة فمنها ما هو من أقصى الحلق ، ومنها ما هو من أدنى الفم ، ومنها ما هو في الوسط " [2].

والتلاؤم في التعديل من غير بعد شديد او قرب شديد ، وذلك يظهر بسهولته على اللسان وحسنه في الأسماع وتقبله في الطباع "[3] والتلاؤم الصوتي عند الرماني ، يريد به حسن النظم والرصف ، واستمد في هذا النعت من كلام الجاحظ في بيانه عن تنافر الحروف وتلائمها وما ينبغي أن يكون في الكلام من تلاحم حتى كأنه سبك سبكاً واحداً . وبذلك يعذب النطق به ويحلو في الأسماع .

ونراه يقسم الكلام على ثلاث طبقات ، متنافر يستثقله اللسان وتمجه الأذان ، ومتلائم في الطبقة الوسطى ، وتدخل فيه بلاغة البلغاء ، ومتلائم في الطبقة العلياء هو أسلوب القرآن الذي تصغي له الأذان كما تصغي له القلوب والأفئدة .[4]

قال ابن سنان (466هـ) في كتابه سر الفصاحة : " وقد ذهب أبو الحسن علي بن عيسى الرماني إلى أن التأليف على ثلاثة أضرب ، متنافر ، ومتلائم في الطبقة الوسطى ، ومتلائم في الطبقة العليا ، قال : والمتلائم في الطبقة الوسطى كقول الشاعر : [5]

رمتني وستر الله بيني وبينها عشية آرام اكناس رحيم

ألا رب يوم رمتني رحيتها ولكن عهدي بالنضال قديم

قال : والمتلائم في الطبقة العليا كله ، وذلك بين لمن تأمله ، والفرق بينه وبين غيره من الكلام في تلائم الحروف على نحو الفرق بين المتنافر والمتلائم في الطبقة الوسطى ، وهذا الذي ذكره غير صحيح ، والقسمة فاسدة ، وذلك أن التأليف على ضربين ، متنافر ، ومتلائم ، وقد يقع في التلاؤم مع بعضه أشد تلاؤماً من بعض على حسب ما يقع التأليف عليه ، ولا يحتاج أن يجعل

---

[1] ثلاث رسائل في أعجاز القرآن : 96 .

[2] نفسه : 96 .

[3] نفسه : 97 ، ينظر : البلاغة تطور وتاريخ : 105 .

[4] نفسه :

[5] سر الفصاحة : 88 ، ينظر : ثلاث رسائل : 181 .

ذلك قسماً ثالثاً ، كما يكون من المتنافر سما بعضه أشد في التنافر وأكثر من بعض ، ولم يجعل الرماني ذلك قسماً رابعاً ، فأما البيتان فليسا في هذا الموضع بأحق من غيرهما ، وأما قوله – إن القرآن من المتلائم في الطبقة العليا وغيره في الطبقة الوسطى – وهو يعني بذلك جميع كلام العرب ، فليس الأمر على ذلك ، ولا فرق بين القرآن وبين فصيح الكلام المختار في هذه القضية ، وحتى رجع الإنسان إلى نفسه وكان معه أدنى معرفة بالتأليف المختار وجد في كلام العرب ما يضاهي القرآن في تأليفه ، ولعل أبا الحسن يتخيل أن الأعجاز في القرآن لا يتم إلا بمثل هذا القول الذي ينفر عنه كل من شدا من الأدب شيئاً ، أو عرف من نقد الكلام طرفاً:[1]

فقد أشار ابن جني (392هـ) إلى أن مذهب العرب في مزج الحروف منه ما يجوز ومنه ما يمتنع ومنه الخفيف والثقيل ومنه الحسن والقبيح فقال : " فأخف الحروف عندهم وأقلها كلفة عليهم الحروف التي زادوها على أصول كلامهم ، وتلك الحروف العشرة المسماة حروف الزيادة وهي : الألف ، والياء ، والهاء ، والسين ، واللام ، وقال في أثر الهمزة في بقاء الألفاظ ، فإن مخرجها مجار لمخرج أخف الحروف وهو الألف ، وأيضاً فأن لتباعدها عن الحروف ما يستروح إلى مزج المقارب مما بعد عنها ، ثم قال : " أن أقل الحروف تألفاً بلا فصل حروف الحلق "[2] ويتضح لنا من هذا كله أن أصوات الحروف يجب أن تكون متلائمة من حيث مخارجها وغير متباعدة ، وهذا ما انصبت عليه جهود الرماني وابن سنان الخفاجي الصوتية في معالجتها لتلائم الحروف وتقاربها .

ثم أشار عبد القاهر الجرجاني بقوله : " هذه اللفظة فصيحة ، ألا وهو يعتبر مكانها من النظم وحسن ملائمة معناها لمعاني جارتها وفضل مؤانستها لأخواتها " [3]

وقد أشار أبو هلال العسكري (395هـ) بحسن تأليف الكلام وتلائمه الصوتي وجمال رصفه إذ يقول : " وحسن التأليف يزيد المعنى وضوحاً وشرحاً ، ومع سوء التأليف ورداءة الرصف والتركيب شعية من التعمية فإذا كان المعنى سبباً ورصف الكلام رويا ، لم يوجد له قبول ولم تظهر عليه طلاوة... وحسن الرصف أن توضع الألفاظ في مواضعها "[4] وقال حازم القرطاجني : " ومن ذلك حسن التأليف متلاؤمه ، والتلاؤم يقع في الكلام على أنحاء ، من هنا أن تكون حروف الكلام

---

[1] سرّ الفصاحة : 88 ، 89 .

[2] سرّ صناعة الأعراب : 240/1 .

[3] دلائل الأعجاز : 45 .

[4] كتاب الصناعتين : 167 .

بالنظر إلى ائتلاف بعض حروف الكلمة مع بعضها وائتلاف جملة كلمة مع جملة كلمة تلاحقها منتظرة في حروف مختارة متتابعة المخارج مرتبة الترتيب الذي يقع فيه خفة وتشاكل ما ، ومنها إلا تتفاوت الكلم المؤلفة في مقدار الاستعمال فتكون الواحدة في نهاية الابتذال والأخرى في نهاية الحوشية وقلة الاستعمال ، ومنها أن تتناسب بعض صفاتها ، العبارات الحسنة يجتمع في العبارات أن تكون مستعذبة جزلة ذات طلاوة ، فالاستعذاب فيها بحسن المواد والصيغ والائتلاف والطلاوة تكون بائتلاف الكلم من حروف صقيلة "[1] فان هذا التلاؤم الصوتي إذا كان اكثر انسجاماً في ألفاظه عذبت أصواته ، وذلك أنهم قد يضيفون إلى اختيار الحروف وتشبيه أصواتها بالأحداث المعبر عنها بها ترتيباً وتقديم ما يضاهى أول الحدث وتأخير ما يضاهي آخره وتوسيط ما يضاهي أوسطه سوقاً للحروف على سمت المعنى المقصود والغرض المطلوب .

وهكذا أجمع البلاغيّون على أن من مقاييس جودة اللفظ هو التلاؤم الصوتي بينه وبين المعنى المراد تقديمه ، فإذا فقد اللفظ ملاءمته للمعنى ، كان ذلك سبب رداءته والقدح فيه ، وإذا شئنا أمثلة للألفاظ التي فقدت هذا التلاؤم فنال منها البلاغيون وعدوها من الرديء فأنها كثيرة من ذلك لفظة (الطحال) التي استعملها الشعراء في الغزل ، فكانت لفظة تابية في صوتها لا تنسجم والموضوع الذي سيقت له . [2] فالتلاؤم الصوتي يشغل تفكير النقاد والبلاغيين ويتعاملون معه بحذر ، لأن أي إخفاق فيه يؤدي إلى تخلخل المعنى وتشويه اللفظ .

ومما يثير الانتباه ان اغلب النقاد والبلاغيين قد ذكروا الآية القرآنية الكريمة : ﴿**وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ**﴾ ([3] في باب التلاؤم الصوتي وحللوها تحليلاً دقيقاً موضحين فيها الجوانب البلاغية وبنائها الصوتي ، وخاض بعض كتاب الإعجاز في هذا الجانب وتوسعوا فيه ، وفتحوا الباب بعدهم لمن اراد ان يدرس اللفظة من هذا الجانب أو يحكم عليها في شوء تأليفاً ، وطبيعة الأصوات التي تترتب منها وما بين الأصوات من تلاؤم وانسجام ، تنافر وتناكر .

لقد فطن الرماني (386هـ) مثلاً وهو أحد كتاب الأعجاز ، إلى أن من خصائص اللفظة القرآنية ، تلاؤم حروفها ، وانسجام الأصوات المؤلفة لها ، فتكلم على ذلك وتوسع في ضرب الأمثلة ، كما تكلم على ما بين ألفاظ الآية من تلاؤم صوتي يجعلها سهلة النطق خفيفة الجري على اللسان ، فحين وازن الرماني بين قوله تعالى : ﴿ **وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ** ﴾ وقول العرب

---

[1] منهاج البلغاء : 222 ، 225 .

[2] النقد اللغوي عند العرب : 245 ، ينظر : التفكير اللساني : 83 ، النظرية اللغوية الحديثة : 183 .

[3] البقرة : 179 .

(القتل أنفى للقتل) انتهى إلى أن الآية ابلغ من المثل العربي ، وقرر أن أحد الأسباب التي أعطت للآية هذا الحكم ، هو انسجام ألفاظها مجتمعة وائتلافها وعدم تنافرها قال : " وإما الحسن بتأليف الحروف المتلائمة فهو مدرك بالحس ، وموجود في اللفظ ، فأن الخروج من (الفاء) إلى (اللام) إلى الهمزة لبعد الهمزة من اللام ، وكذلك الخروج من (الصاد) إلى (الحاء) اعدل من الخروج من (الألف) إلى (اللام) " [1] وهذا الفضل يعود كله إلى انسجام وتلائم حروف الآية القرآنية .

إما أبو هلال العسكري (395هـ) الذي كان معاصراً للرماني فقد ذكر في الصناعتين متحدثاً عن الآية القرآنية ﴿**وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ** ﴾ بقوله : " فالقصر تقليل الألفاظ وتكثير المعنى ... إذا قرنته بما جاء عن العرب في معناه وهو قولهم : (القتل أنفى للقتل) .

فصار لفظ القرآن فوق هذا القول لزيادته عليه في الفائدة ، فأن الذي هو نظير قولهم (القتل أنفى للقتل) إنما هو (القصاص حياة) وهذا أقل حروفاً من ذلك ولبعده من الكلفة بالتكرير ، وهو قولهم (القتل أنفى للقتل) ولفظ القرآن بريء من ذلك ، وبحسن التأليف وشدة التلاؤم المدرك بالحسن لأن الخروج من (الفاء) إلى (اللام) أعدل من الخروج من (اللام) اعدل من الخروج من (اللام) إلى الهمزة: [2]

إنّ ابتعاد لغة القرآن عن تنافر الحروف داخل المفردة الواحدة ، وداخل العبارة المشتقة ، قد أحدث نوعاً من الانسجام والتناغم الصوتي المستمد من التلاؤم بين الأصوات ، إذ يشكل التلاؤم الصوتي بين أصوات المفردة ضرباً من التناغم يؤدي إلى إيقاع يجعل المفردة توحي بدلالتها من خلال الأصوات المكونة لها ولا يقتصر مفهوم التلاؤم في المفردة القرآنية على مسألة تعديل الحروف وعدم تنافرها داخل المفردة فحسب بل يرتبط ، كما لاحظنا بالدلالة الوظيفية للصوت داخل المفردة .

الانسجام الصوتي :

كان لعلمائنا عناية خاصة بقضية الانسجام الصوتي ، مؤكدين بذلك أثره في جمال الشكل والمضمون ، فجهود الخليل بن احمد الفراهيدي (175هـ) معروفه لدى الجميع عندما نقل إلينا أهمية الحروف الحلقية والذلقية في تركيب السياق وجرس القول ، منتهياً إلى أن (العين) و(القاف)

---

[1] ثلاث رسائل في أعجاز القرآن : 277 ، 78 ، ينظر : النقد اللغوي عند العرب : 130 .

[2] كتاب الصناعتين : 181 ، ينظر : البرهان في علوم القرآن : 222/1 .

حين يدخلان النسيج التركيبي للأصوات يكونان اكثر الحروف حسناً لأنهما أطلق الحروف وأضخمها جرساً.[1]

وان الأصوات اللغوية ليست عناصر متناثرة وإنما هي نظام منسق تحكمه علاقات خاصة في هذه اللغة أو تلك ، فهناك قواعد تتجاوز النسيج المقطعي القائم على توالي الصوامت والصوائت هي التي تحدد ذلك الانسجام .[2]

لقد نظر علماء البلاغة إلى المماثلة والإيقاع انهما انسجام صوتي وتظهر الموسيقى في الارتباط المتناسق بين الألفاظ ومعانيها ، إذ يتلاقى جرس حروفها مع إيحاء مدلولها ، فالترتيب المتقارب المنسجم يؤدي إلى موسيقية فريدة في القرآن الكريم ، تؤكد جلباً أعجازه الصوتي ، كالحروف مثل (الباء ، والتاء والثاء) يجعل تقاربهما المخرجي تقارباً في النسق والشكل والجرس [3].

نعني بالتناسق الصوتي في العربية ، بناء المفردة العربية بأصوات متلائمة ومنسجمة يعانق الصوت منها الصوت الأخر حتى نهاية البنية ، ولقد أشار علماء البلاغة إلى أن ثمة أصواتاً لا تتناسق مع أصوات أخرى في بناء الكلمة العربية ، كصوت (القاف) و(الكاف) وهما صوتان لهويان ، إلا إذا كان أحدهما في آخر الكلمة والثاني أول الكلمة التي يعدها في التنظيم ، وليست هذه الظاهرة الصوتية إلا مثالاً على الحس المرهف والذوق السليم في انسجام الأصوات.[4]

فذهب الجاحظ (255هـ) إلى القول : " فأما في اقتران الحروف ، فأن (الجيم) لا تقارن (الظاء) ، ولا (القاف) ولا (الطاء) ولا (الغين) ، بتقديم ولا تأخير ، و(الزاي) لا تقارن (الظاء) ولا (السين) ولا (الضاد) ولا (الذال) بتقديم ولا بتأخير "[5] ويستدل من كلام الجاحظ أن العرب قد عنوا بهذا الباب وقد عالجوا قضية التوازن والانسجام بين الأصوات في تأليفهم وجهود الجاحظ معروفة للجميع في هذا الخصوص أثناء حديثه عن أصوات الحروف ، فقال : " وهذا باب كبير ، وقد يكتفي بذر القليل حتى يستدل به على الغاية "[6] وقد ذكر ابن وهب (335هـ) أن : " الحروف

---

[1] ينظر / مقدمة معجم العين : 3/1

[2] ينظر / مبادئ اللسانيات – احمد قدورة : 123

[3] التنغيم اللغوي في القرآن الكريم :95 .

[4] أبحاث ونصوص : 206 .

[5] البيان والتبيين : 69/1 .

[6] نفسه : 96/1 .

التي تقترن وتأتلف في هذه اللغة مع كل حرف من حروف المد واللين وهو الواو والألف والياء ... ثم قال : "ومن شأن العرب استعمال ما خف وتجنب ما ثقل ، وكذلك لا يكادون يجمعون بين حرفين من مخرج واحد أو مخرجين متساويين ، وإذا اجتمعا ادغموا إحداهما في الأخر "[1] ولصعوبة الانسجام الصوتي في حروف الحلق قال ابن وهب : " لا تأتلف ولا تقترن الهمزة والألف منهما لأنهما من حروف الزوائد " [2] وهذا يعتمد على انسجام أصوات الحروف أثناء الكلام وطبيعة مخرج كل واحد .

إن الحروف من حيث هي أصوات لغوية ، كما التفت الى ذلك البلاغيون تحمل طبيعة نغمية خاصة بكل منها ، وهذا ما أشار إليه الفراهيدي ، وعلى هذا الأساس ، أن يجد الساجع انسجاماً مع بعض الحروف دون البعض ، بالنظر لتلك الطبيعة النغمية الخاصة في انسجام أصواتها . [3]

ولما كان نقل صوت من أصوات الحروف طبيعة نغمية ، فمن الطبيعي أن ينسجم مع بعض الأصوات دون بعض ، ولذا فأن ترتيب حروف اللفظة الواحدة يجب أن يراعى فيه انسجام حروفها ويكون بناؤها على هذا الأساس .

وهذا ما سبق إليه الجاحظ يتحدث عن اقتران الحروف وهذا ما تم الإشارة إليه في بداية حديثنا .

ومتى أقتصر أمر اللغة على السمع وعلى الإنشاد ، فلابد لها أن تعنى بالانسجام الصوتي ، لأنه حزب من المماثلة الحركية أو التقريب الصوتي .[4]

ان الأصوات بأنغام بعضها الى البعض تشكل مفردات تلك اللغة وبتأليفها تمثل الكلام في اللغة ، والقدرة على تناسق هذا الكلام وتألفه ، من مهمة الأصوات في تناسقها وتألفها ، وتنافر الكلمات وتهافتها قد يعود على الاصوات في قرب مخارجها أو تباعدها ، أو في طبيعة تركيبها وتماسكها ، ولغتنا العربية مثل لغات العالم ، عبارة عن أصوات متألفة ، وهذا ما أشار إليه علماء البلاغة في كتبهم والذي تم ذكر بعض منه من خلال هذه الدراسة .

لقد افرد ابن جني (392هـ) للتناسق الصوتي مع معناه أبواباً خاصة ومن ذلك ما أثبته في باب التعاقب ، وحديثه في صلة الصوت الشديدة بالدلالة أو ضعف هذه الصلة في إشارته إلى

---

[1] البرهان في وجوه البيان : 430 .

[2] نفسه : 432، 433 .

[3] الأسس النفسية والبلاغية العربية : 120 .

[4] البحث الصوتي عند العرب : 77 .

المشاكلة بين الصوت والمعنى إذ قال : " إما مقابلة الأصوات بما يشاكل أصواتها من الأدوات ، فباب عظيم واسع ومنهج متلئب عند عارفيه مأمون ، وذلك انهم كثيراً ما يجعلون أصوات الحروف على سمة الأحداث المصير بها عنها فيعد لونها ويتخذونها عليها نحو : خضيم وقضيم ، فالخضم لأكل الرطب ، والقضم للصلب اليابس " [1]

فتناسق الحروف على نوع من التشاكل النغمي هو من طبيعة اللغة العربية في تقسيم حروفها ، وأن تقارب الحروف في النسق يشبه التقارب بينها في اللفظ ولغتنا العربية من هذا النوع ، فهي لغة إنسانية ناطقة يستخدم فيها جهاز النطق الحي أحسن استخدام يهدي إليه الافتنان في الإيقاع الموسيقي وليست هناك أداة صوتية ناقصة تحس بها الأبجدية العربية . [2]

وهناك خاصية للكلمات ينظر فيها إلى كل كلمة على حدة وتأثير أصواتها ، ولكن هناك ناحية لتأثير الكلمات وهي التي ينظر منها إلى الكلمات متتالية متعاقبة ، وهذا ما يعبر عنه بالانسجام أو موسيقى اللفظ (rhythm) فهنا لا ينظر إلى الأصوات المقطعية ونوعها بل إلى تموجات الأصوات ، والى مقدارها في عدة جمل ... وهذه الموسيقى اللفظية المنسجمة الأصوات هي بلا شك أهم وسائل الانتفاع بالأصوات في فن الأدب ، لأن هذا الانسجام هو أكبر عامل في الإيحاء بذلك الجزء من العاطفة والشعور يمكن أن تحيا التجارب به .[3] وبهذا الانسجام الصوتي يمكن ان يحس الإنسان بالسعادة .

وذكر ابن أبي الإصبع (654هـ) ضربين من الانسجام الصوتي ، وهما ضرب يأتي البديع الذي لم يقصد كقوله تعالى : ﴿ **قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ** ﴾ [4]

وعلق على الآية فقال : " أنت ترى سهولة هذا النظم ، وعذوبة هذه الألفاظ وما في هذا الكلام من الانسجام ما وقع فيه من التعطف في قوله تعالى (إلى الله)[5]

وهناك التناسق الذي يبلغ الذروة في تصوير القرآن ، والتناسق ألوان ودرجات ، ومن هذه الألوان ما ذهب إليه بعض الباحثين التنسيق في تأليف العبارات بتخير الألفاظ ، ثم نظمها في

---

[1] الخصائص : 145/2 ، 157/2 ، ينظر : عيار الشعر : 15 / ثلاث رسائل في أعجاز القرآن : 78 / الصوت اللغوي في القرآن الكريم : 74 .

[2] اللغة الشاعرة : 14 ، ينظر : الصورة السمعية في القرآن الكريم : 42 .

[3] قواعد النقد الأدبي _ كرومبي : 39 .

[4] يوسف : 86 .

[5] ينظر / بديع القرآن : 160 ، ينظر : أثر القرآن في النثر الفني عند الجاحظ – رسالة ماجستير : 88 .

نسق خاص يبلغ في الفصاحة أرقى درجاتها ، والإيقاع الموسيقي الناشئ من تخير الألفاظ ونظمها في نسق خاص والتناسق ذلك كله مع الجو الذي تطلق فيه هذه الموسيقى ووظيفتها التي تؤديها في كل سياق فأنها لا تزال أولى مظاهر التناسق التي يلمحها الباحث في القرآن ، وراءها أفاق أخرى لم يتعرضوا لها أصلاً .[1]

وقد يستقل لفظ واحد – لا عبارة كاملة برسم صورة شاخصة لا بمجرد المساعدة على إكمال معالم الصورة ، وهذه خطوة أخرى في تناسق التصوير ، أبعد من الخطوة الأولى ، وأقرب إلى قمة جديدة في التناسق ، خطوة يزيد من قيمتها ان لفظاً مفرداً هو الذي يرسم الصورة تارة بجرسه الذي يلقيه في الأذن ، وتارة بظله الذي يلقيه في الخيال ، وتارة بالجرس والظل جميعاً .[2]

تسمع الأذن لفظة (اثاقلتم) في قوله تعالى : ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ**﴾ [3]

فتصور ذلك الجسم (المثّاقل) يرفعه الرافعون في جهد يسقط من أيديهم في ثقل ، أن في هذه اللفظة (طناً) على الأقل من الأثقال ، ولو أنك قلت : تثاقلتم لخرف الجرس ، ولضاع الأثر المنشود ولتوارث الصورة المطلوبة التي رسمها هذا اللفظ واستقل برسمها . [4]

وبعد أن وضعت الحروف في قوالبها والكلمات في مكانها في نسق صوتي جميل يبرز لنا من خلاله جمالية الصوت الذي سنتعرف عليه لاحقاً .

جمالية الصوت :

تحدثنا في بدء هذا البحث عن التلاؤم والانسجام الصوتي ورصف الكلمات والحروف من خلال بنائها الصوتي في نسيج محكم ، فقد أثر عن العرب عنايتهم بالبيان وجمال الكلام واستدلوا

---

[1] التصوير الفني في القرآن : 76 .

[2] نفسه : 76 .

[3] التوبة : 38 .

[4] التصوير الفني في القرآن : 76 .

على ذلك بما روي عن النبي صلى الله عليه وسلم عندما سئل : فيم الجمال ؟ قال في اللسان ، يريد البيان.[1]

وفضل اللسان على البيان ، أنه يظهر صوت اللفظة ويبينه ، فنستطيع في ضوء ذلك ان نحكم الحس والذوق في تمييز صوت الألفاظ ومعرفة جمالها الصوتي ونغمها واستجلاء قيمتها الجمالية ، فقالوا : لفظ جزل وسهل ورقيق وعذب ووحشي وغريب من خلال تحسسهم للوحدات الصوتية في تلك الألفاظ أو ما اصطلح عليه في علم الصوت (Phonemes) ، وهي ذرات اللغة التي تحول تدقق الأصوات إلى كلام الإنسان .[2] وهذا الربط بين اللفظ والصوت يؤكد على أهميته في حسن اللفظة وقبحها.

وطبيعي أن العربي في جاهليته ، كان يعرف الجمال بصورة أو بأخرى ، ولكنها كانت المعرفة الأولية الساذجة التي يشترك فيها جميع الناس ، وإذ نحن التمسنا الموطن الذي تتضح فيه هذه الأنفصالات في الشعر الجاهلي وجدنا ان شعر الغزل هو الميدان الذي يتعرض فيه الشاعر لتصوير انفعاله الجمالي .[3]

وإن البلاغة تصلح أن تكون صفة للكلمة وهي مفردة ، وصفة لها وهي (مؤلفة) أو (منظومة) فبلاغتها وهي مفردة (جمال ذاتي) وبلاغتها وهي في سلك الجملة أو العبارة نابع من حسن استغلال هذا الجمال ، الذاتي بحسن اختيار المكان الملائم والتناسق والتنسيق فيما بينها وبين جارتها ، فتم جمال للكلمة لا يعلن عن نفسه إلا والكلمة في إطار متناسق ، وهذا ما عبر عنه عبد القاهر الجرجاني بنظرية النظم محاولاً كشف كل طاقات الكلمة وهي في حال تعايش مع جارتها .[4] ، ومن هنا يتضح أن جمالية الصوت مرتبط في نظم الكلمة ، فكلما أحلولى الكلام وعذب ورق وسهلت مخارجه كان اسهل ولوجاً في الأسماع واشد اتصالاً بالقلوب وخف على الأفواه ، ولا سيما إذا كان المعنى البديع مترجماً بلفظ مونق شريف ومعبراً بكلام مؤلف رشيق به .[5]

يقول الجاحظ (255هـ) : " الكلمة إذا خرجت من القلب وقعت في القلب ، وإذا خرجت من اللسان لم تتجاوز الآذان "[6] وتحدث أبن طبابا (323هـ) فقال : " واليد تنعم بالملمس اللين الناعم

---

[1] سر الفصاحة : 52 ، ينظر : العمدة : 214/1 ، البيان والتبيين : 97/1 .

[2] أصوات واشارات : 200 .

[3] الأسس الجمالية في النقد العربي : 131 .

[4] بلاغة الكلمة – الدكتور منير سلطان : 33 .

[5] الرسالة العذراء : 37 ، ينظر : جرس الألفاظ : 82 .

[6] البيان والتبيين : 327/3 .

، وتتأذى بالخشن المؤذي ، والفم بأنس من الكلام بالعدل الصواب الحق ، والجائز المعروف المألوف ويتشوق إليه ويتحلى له ويستوحش من الكلام الجائر "[1] وقد دعا قدامة بن جعفر (337هـ) إلى ان يكون اللفظ سهل مخارج من مواضعها ، عليه رونق الفصاحة مع الخلو من البشاعة .[2] قالوا : وقد توجد لبعض الكلام عذوبة في السمع وهشاشة في النفس لا توجد مثلها لغيره منه ، والكلامان معاً فصيحان وما يتحلى به من الرونق والبهجة التي يباين بها سائر الكلام حتى يكون له هذا الصنيع في القلوب ، والتأثير في النفوس فتصطلح من أجله الألسن على أنه كلام لا يشبه كلام .[3] فإنك لا تسمع كلاماً غير القرآن منظوماً ولا منثوراً إذا قرع السمع خلص له إلى القلب من اللذة والحلاوة في حال ومن الروعة والمهانة في أخرى ، ما يخلص منه إليه ، تستبشر به النفوس وتستبشر به الصدور حتى إذا أخذت حظها منه عادت مرتاعة قد عراها لوجب والقلق وتخشاها الخوف والفرق . [4]

يقول ابو هلال العسكري (395هـ) : " والنفس تقبل اللطيف وتنبو عن الغليظ وتقلق من الجاسي البشع "[5] وقد نقل ابن رشيق (456هـ) رأي بعض النقاد أن : " الألفاظ في الأسماع كالصور في الأبصار "[6] وقد ذكر ابن سنان الخفاجي (466هـ) بقوله : " التأليف اللفظة في السمع حسناً وميزية على غيرها ، وأن تساويا في التأليف من الحروف المتباعدة ، كما أنك تجد لبعض النغم والألوان حسناً يتصور في النفس ويدرك بالبصر والسمع دون غيره مما هو من جنسه ، كل ذلك لوجه يقع التأليف عليه " [7] ويقول إبن الأثير (637هـ) : " ومن له أدنى بصيرة يعلم أن للألفاظ نغمة لذيذة ، كنغمة أوتار ، صوتاً منكراً ، كصوت الحمير ، وأن لها في الفم حلاوة كحلاوة العسل ومرارة كمرارة الحنظل "[8] وهذا كله مرتبط يتماسك الحروف وتجانسها لتؤدي ميزة جمالية أثناء نطقها .

وعليه ، فأن وظيفة جمالية الصوت تنطق من دراسة هذه المخارج وتلك الصفات فالنقطة التي يجري عندها اعتراض الهواء ، وذلك عند التقاء عضوين من أعضاء النطق أو اقترابهما

---

[1] عيار الشعر : 14 .

[2] نقد الشعر : 74 .

[3] ثلاث رسائل في أعجاز القرآن : 25 .

[4] نفسه : نفس الصفحة .

[5] كتاب الصناعتين :

[6] العمدة : 128/1 ، ينظر : الأسس النفسية لأساليب البلاغة العربية : 43 .

[7] سر الفصاحة : 55 .

[8] المثل السائر : 150/1 ، ينظر : التنغيم اللغوي في القرآن الكريم : 83 .

وانفلاتهما يعرف بالمخرج ، وهذا يعني أن أعضاء النطق هي التي تحدد نوع الأصوات في هيأة حروف ، تعطيها جرساً ونغماً معيناً يختلف عن نغمة الأصوات الأخرى ، وفي ذلك يذهب ابن جني (392هـ) إلى القول : " تختلف أجراس الحروف بحسب اختلاف مقاطعها "[1]

وقد حاول ابن سنان (466هـ) أن أصوات الألفاظ وان يحدد عناصر الجمال الصوتي ، يبدو إنما انتهى إلى أن حسن الألفاظ يرجع إلى بعد مقاطعها . [2]

يقول ابن الأثير (637هـ) : " أنّ هذه من الأمور المحسوسة التي شاهدها من نفسها ، لأن الألفاظ داخلة في حيز الأصوات فالذي يستلذه السمع منها ويميل إليه هو الحسن ، والذي يكرهه وينفر عنه هو القبيح ، إلا ترى أن السمع يستلذ صوت البلبل من الطير ، وصوت الشحرور ويميل أليها ، ويكره صوت الغراب وينفر عنه ، وكذلك يكره نهيق الحمار ولا يجد ذلك في صهيل الفرس والألفاظ جارية هذا المجرى ... فأن كل عارف بأسرار الكلام ، من أي كانت من اللغات يعلم أن إخراج المعاني في ألفاظ حسنة رائقة ، يلذها السمع ولا ينبو عنها الطبع ، خير من إخراجها في ألفاظ قبيحة مستكرهة ينبو عنها السمع "[3]

وقد اختلف النقاد والبلاغيون عندما حاولوا أن يكشفوا لنا السر الكامن وراء استحسان السمع لإيقاع بعض الألفاظ ونفوره من الأخر ، فالذي عليه ابن سنان ، أن ذلك راجع إلى مخارج حروف الكلمة من حيث تباعدها أو تقاربها والى طول الكلمة من حيث عدد حروفها ، فكلما تباعدت مخارج حروف اللفظة حسن وقعها على السمع وكلما تقاربت قبح ويعلل ذلك بقوله : " إن الحروف وهي أصوات تجري من السمع مجرى الألوان من البصر "[4]

إما إبن الأثير فهو في البدء يبدو مخالفاً لما ذهب إليه ابن سنان ، إذ يقرر أن مخارج أصوات الحروف التي تتألف منها اللفظة المفردة غير معتبر في حسن جرسها وقبحه ... فأن حاسة السمع هي المحاكمة في هذا المقام ، يحسن ما يحسن من الألفاظ ، وقبح ما يقبح ، فحسن الألفاظ أذن ليس معلوماً من تباعد مخارج الحروف وإنما علم قبل العلم بتباعدها . [5]

---

[1] سر صناعة الأعراب : 6/1 .

[2] سر الفصاحة : 9 .

[3] المثل السائر : 115/1 ، 120 .

[4] سر الفصاحة : 54 .

[5] ينظر / المثل السائر : 224/1 .

وهذا الربط بين اللفظ والصوت يؤكد على أهميته في حسن اللفظة وقيمتها وامتاز البيان والتعبير الأدبي عندهم بخصيصة جمالية يتوخاها الخطيب والشاعر بصيغة ألفاظه وقوة صوتها حتى أنهم ميزوا هذا الحسن والقبح في ذات الحروف قال إبن الأثير : " واعلم انه يجب على الناظم والناثر ان يجتنبا ما يضيق به مجال الكلام في بعض الحروف ، كالثاء ، والذال ، والخاء ، والشين ، والصاد ، والطاء ، والظاء ، والغين ، فأن هذه في الحروف الباقية مندومة عن استعمال ما لا يحسن من هذه الحروف " [1]

والواقع أن جرس الحروف صوتها منغم ، وهي تختلف في صفاتها بحسب مخارجها ، نغمة صوتها عندما ينطق بها ، ولذلك قيل : حروف الهمس وحروف الذلاقة ، وحروف الصفير وحروف التفخيم .

وإبن الأثير في مقاييسه هذه بين الألفاظ والأصوات ، فأن هذا لا يعني أن الألفاظ هي أصوات محضة لا تدل على معنى ، وإنما يؤكد على جمالية اللفظة من خلال سياق الكلام وموقعها في الجملة . وهذا لا يأتي من فراغ لأن ابن الأثير قد أفاد من جهود البلاغيين الذين سبقوه ، ويرجع الكشف عن قيمة اللفظة وحسنها وجمالها إلى الذوق الحسي السمعي ويربطها ربطاً وثيقاً وهذا ما أشرنا إليه سابقاً في إظهار جمالية الصوت .

وتظهر جمالية الصوت في لفظة "الألباب" فأنها لا تحسن في الاستعمال مجموعة في القرآن الكريم . يقول السيوطي (911هـ) : " الألباب " جمع لب ، وهو العقل الخالي عن الهوى ، وهذا اللفظ جمعه أخف من مفرده ، ولهذا وقع في القرآن ، وفي غير القرآن ، استعملت مفردة عندما تكون مضافة أو مضافاً إليها ، نحو : لا يعلم ذلك إلا ذو لب ، وأن في ذلك لعبرة لذي لب .[2] إما في القرآن الكريم فأنها لم تأت مفردة حسبما جاء في قوله تعالى :

---

[1] المثل السائر : 253/1 ، 115/1 ، ينظر : سر الفصاحة : 62 .

[2] المثل السائر : 284/1 ، ينظر : قطف الأزهار : 232 .

﴿ **إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ** ﴾[1] وقوله : ﴿**وَلِيَذَّكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ** ﴾ونحوهما لم تجيء لفظة "اللب" الا مجموعة ، وإذا أريد ان تجيء مفردة جاء مكانها "القلب" وذلك لأن صوت الباء شديد مجتمع ، ولا يفضي إلى هذه الشدة إلا من اللام الشديدة المسترخية ، فلما لم يكن ثم فصل بين الحرفين يتهيأ معه هذا الانتقال على نسبة بين الرخاوة والشدة .

ولمجيء "الألباب" على صورة الجمع في القرآن الكريم ، تعليل صوتي آخر ، يتعلق بسهولة إخراج صوت "الباء" وصفاء وقعه على السمع مع صوت "الباب" وتأثر صوت الباء في "لب" بصوت الضمة قبله مما يولد صوتاً أقل صفاء ووضوحاً ، فأن النطق بالضمة قبل الباء في " لب " يجعل الشفتين تستديران فلا يحصل انطباق تام لهما إلا بالضبط عليهما مما يولد انفجاراً شديداً عند الانفراج يخالف طبيعة صوت الياء الانفجاري الخفيف ، أما خفة لفظة " الألباب" فلأن صوت الفتحة الطويلة — أو الألف — قبل الباء الأخيرة في " ألباب " تسهل من عملية انفراج الشفتين وانطباقهما عند نطق الباء ، ثم أن صوت الفتحة الطويلة أوضح من صوت الضمة ، فأصوات اللين ، ذات نسب مختلفة في الوضوح السمعي ، فالفتحة أوضح من الضمة والكسرة .[2]

وذهب ابن جني ، إلى أن الفتحة والسكون أخف من الضمة والكسرة فقال : " إنك لا تجد التتالي على قلة حروفه ما أوله مضموم إلا القليل ، وإنما عامته على الفتح "[3] وهذا كله مرتبط في إظهار جمالية الصوت وتحكمه في اللفظة وأصوات الحروف .

إن الذي يميز جمال صوت لفظة من لفظة هو النغم ، أي أن لكل لفظة صوتاً من الحسن أو القبح تعرف عن طريق ذلك النغم ، لذلك استخدم العرب في شعرهم ، القلب والفؤاد ، والكبد والسحر ، والنحر ، والجيد ، والترائب ، والصدر ، والثغر ، والعيون ، والثنايا ، والإخراس وفي

---

[1] الزمر : 21 .

[2] أعجاز القرآن والبلاغة النبوية : 100 .

[3] الخصائص : 59/1 ، ينظر : موسيقى الشعر : 265 .

القرآن الكريم ألفاظ تستحسن في السمع ليس لما تؤديه من معان دقيقة فحسب وإنما لما للفظة من حسن في ذاتها يظهر عند استخدام القرآن لها في أسلوبه .

وللعرب في هذا استعمالات كثيرة ، فمن هذه الألفاظ ما تكون حسنة الجرس وهي مفرده ولا تكون كذلك في حالة التثنية أو الجمع وهذا الذي أشرنا إليه في الفقرة السابقة ، أو غير ذلك من الصيغ الاشتقاقات .

والقرآن كما يقول الجاحظ : " إذا ذكر الأبصار لم يقل الأسماع ، وإذا ذكر سبع سموات ، لم يقل الأرضين ، الا تراه يجمع الأرض ، أرضين ، ولا السمع أسماعاً " [1]

وعلل إبن الأثير (637هـ) اختيار الألفاظ على هذه الصورة وحسن وقعها في السمع بأن حكم ذلك " حكم اللآلئ المبددة فأنها تتخير وتنتقي قبل النظم لئلا يجيء الكلام قلقاً نافراً عن مواضعه ، وحكم ذلك حكم العقد المنظوم في اقتران لؤلؤه منه بأختها المشكلة لها " [2]

والجمال اللفظي بين من جوانب عدة ، يقول السكاكي (626هـ) : " وإما النظر فيها من جانب الفصاحة ، فالنظم للمعاني لطيف ، وتأدية لها ملحضة مبنية ، لا تعقيد يعثر الفكر في طلب المراد ، ولا التواء يشيك الطريق إلى المرتاد ، بل إذا جربت نفسك عند استماعها ، وجدت ألفاظها ، فما من لفظة في تركيب الآية ونظمها تسبق إلى أذنك إلا ومعناها اسبق إلى قلبك ... فألفاظها سليمة عن التنافر ، بعيدة عن البشاعة عذبة على العذبات ، سلسة على الاسلات ، كل منها كالماء في السلاسة ، وكالعسل في الحلاوة وكالنسيم في الرقة " [3]

لذا يبقى جمال الصوت سراً يشغل بال النقاد والبلاغيين وكل من أجتهد منهم كان له رأيا في ذلك ، ويكون تمييز النغم وبيان قيمته الإيحائية أمراً صعباً بل شديداً كما وصفه أبو هلال العسكري.[4]

أي تحسس جمالية الصوت من بين ألفاظ اللغة الواسعة أمر ليس بالهين ، لأنه يحتاج إلى الحس المرهف للناقد في القيمة التعبيرية له وقدرته على الإيحاء والتصور لاستخراج اللآلئ من قعر هذا البحر الواسع ، لأن الإحساس السمعي للجمال لابد من مشاركة الذوق له في تقدير

---

[1] البيان والتبيين : 20/1 .

[2] المثل السائر : 210/1 .

[3] نفسه : 421 .

[4] ينظر : كتاب الصناعتين : 74 .

الجمال وتمييزه ، وهذا ما يراه عبد القادر الجرجاني (471هـ) عندما قال : "قد يخضن على السامع الاعتيادي ولا سيما أن المزايا التي تحتاج تعلمهم مكانها وتصدر لها شأنها ... والفروق أن تعرض فيها المزية على الجملة ، وممن إذا تصفح الكلام وتدبير الشعر فرق بين وقع شيء منها وشيء "[1]

ويقول حازم القرطاجني (684هـ) في كتابه منهاج البلغاء : " فالترتيب يتبين ما يصح ويحسن من المبالغة ، وما لا يصح منها ولا يحسن ، فأن علماء البلاغة متفقون على أن ما أدى إلى الإحالة قبيح ، وقد خالف في هذا جماعة ممن لا تحقيق عنده في هذه الصناعة ولا بصيرة له بها ، فاستحسنوا من المبالغة ما خرج عن حد الحقيقة إلى حيز الاستحالة واحتجبوا بمطالبة النابغة حسان بن ثابت بالمبالغة في أوصافه حين انشد قوله :

لنـــا الجفنـــات الغـــر يلمعـــن بالضـــحى واســـيا فنـــا يقطـــرن مـــن نجـــده دمـــاً[2]

فقال له " قللت جفانك وسيوفك ، ولو قلت الجفان والسيوف لكان ابلغ ، والبصراء بضاعة البلاغة والعارفون بما يجب فيها يقولون : إنما طالب النابغة حساناً بمبالغة حقيقية وهي تكثير الجفان والسيوف فاستدرك عليه التقصير عما يمكن فيما وصف .[3]

وهذا يعتمد أساساً على وضع الألفاظ في أماكنها لمعرفة جمال أصواتها ، فأي أخلال فيها يؤدي إلى بعثرة المعنى وتشويه الصورة ونشاز في الصوت .

والحديث عن الجمال الذي ترتاح له النفوس وتطمئن له الأفئدة يأخذ منا مساحة أوسع ووقتاً أطول ، لأن الكلام عن جمالية الصوت لا ينتهي عند هذا الحد .

---

[1] دلائل الأعجاز : 343 ، 344 .

[2] ديوانه : 123 .

[3] منهاج البلغاء : 134 ، ينظر : خصام ونقد : 102 الأسس الجمالية في النقد العربي : 120 ، تطور البحث الدلالي : 82 ، قضايا النقد الأدبي – الدكتور بدوي طبانه : 162 .

المبحث الثاني : التكرار الصوتي :-

تناول علماء البلاغة التكرار الصوتي في مباحثهم البلاغية ، لأنه صورة من صور التناسق الجمالي والانسجام الصوتي في تكرار الوحدات الجزئية المكونة للكل .

والتكرار في اللغة ، بمعنى الإعادة ، فكرر الشيء ، إعادة مرة بعد أخرى ، وكررت عليه الحديث ، إذا رددته عليه .[1] والتكرار الصوتي هو من الأساليب السائقة في العلوم البلاغية . أما التكرار الصوتي في التعبير الأدبي ، فهو تناوب الألفاظ وأعادتها في سياق التعبير بحيث تشكل نغماً موسيقياً يتقصده الناظم في شعره أو نثره .

أما تكرار باللفظ أو بالمعنى أو بهما معاً ، أو تكرار حرف أو فعل أو ضمير ، وقد أولى الجاحظ (255هـ) التكرار الصوتي عناية كبيرة ، ونقل بعض الأقوال فيه ، وهو يرى أن التكرار يكون على مقتضى الحال فيقول : " وجملة القول في التردد أنه ليس فيه حد ينتهي إليه ويؤتى

---

[1] لسان العرب : مادة (اكرر) ، 360/3 .

على وصفه ، وإنما ذلك على قدر المستمعين ومن يحفره من العوام والخواص ، وقد رأينا الله عزوجل ردد ذكر قصة موسى وهود وهارون وشعيب وإبراهيم ولوط وعاد وثمود ، وكذلك ذكر الجنة والنار ، وأمور كثيرة لأنه خاطب جميع الأمم " [1] وما ذكره الجاحظ في التكرار الصوتي يفسر لنا السبب الكامن من وروده في الكلام .

والتكرار في الفن القولي يمكن ان نلحظه في ثلاثة أشكال .

1- التكرار اللفظي : وهو إعادة اللفظ نفسه ويسمى المشاكلة .

2- التكرار الذي يعتمد على إعادة اللفظ مع اختلاف المعنى ، ويسمى المجانسة أو الجناس .

3- التكرار المعنوي : وهو إعادة المعنى بألفاظ مختلفة ويسمى المناسبة .

ومن الدارسين المحدثين من يصف التكرار الصوتي من خلال وصنعه لصوت الراء ويكون اللسان معه مسترخياً في طريق الهواء ، ولذا يحدث انسداداً وانفتاح مفاجئان ، ويرفرف اللسان ويضرب طرفه ضربات مكرره معه بتذبذب الوترين الصوتيين .[2]

أرى أن وصف المحدثين للتكرار الصوتي لم يختلف عن وصف القدماء ، إلا أن المحدثين جاء وصفهم دقيقاً لأنهم وصفوا آلية التكرار ، وثمة أمر أختلف فيه القدماء والمحدثون ، " وهو أن الراء صوت شديد عند سيبويه ومن تابعه ، ولكنه عند المحدثين من الأصوات المتوسطة التي تجمع بين الشدة والرخاوة "[3]

وتوالت جهود النقاد والبلاغيين تعلل وتفسر أهمية التكرار الصوتي في الكلام يقول ابن رشيق القيرواني (456هـ) : " وأكثر ما يقع التكرار في الألفاظ دون المعاني ، ويجب للشاعر أن للشاعر أن يكرر أسماً إلا على جهة التشوق والاستعذاب إذا كان في تغزل او تسبب "[4] وواصل وصفه للتكرار الصوتي فقال : " وللتكرار مواضع يحسن منها ومواضع يقبح فيها ، (ما عدا القرآن الكريم) فإذا تكرر اللفظ والمعنى جميعاً فذلك الخذلان بعينه " [5]

واللفظ المكرر الجيد عند ابن رشيق ما كان الباحث عليه ، وفي الغزل ذكر قيس بن ذريح:

إلا ليت ليلى لم تكن لي خلة ولم لتقني لبني ولم أدر ماهيا

---

[1] البيان والتبيين : 105/1 ، ينظر : معاني القرآن للفراء : 287/3 .

[2] الأصوات اللغوية : 94 .

[3] المصطلح الصوتي : 124 .

4 العمدة : 73/2 .

5 المصدر نفسه : 74/2 .

وابن رشيق يعد اكثر تحمساً للتكرار الصوتي الذي يفيد تقوية النغم في الكلام وهو مرادنا في باب الصوت ، وهو الأكثر شيوعاً في الشعر والنثر ، فقال : " وهو في المعاني دون الألفاظ أقل" [1]

أن التكرار الصوتي المبني على إعادة الألفاظ هو الذي يفيد تقوية النغم في الكلام لما له تأثير في نفس المتلقي وذهنه لفائدة الإبلاغ والتفكير ، لهذا يقول ابن فارس (395هـ) : " ومن سنن العرب التكرار والإعادة إرادة الإبلاغ بسبب العناية بالآمر ... " [2]

كما أن التكرار يفيد قوة في قرع الأسماع وإثارة الأذهان ، وخاصة إذا كان الانسجام الصوتي فيه ظاهراً ومتناسقاً .

وعاب على أبي تمام قوله :

فالمجد لا يرضى بأن ترضى بأن يرضى المؤمل منك إلا بالرضا

وحكي أن إسحاق الموصلي سمع الطائي ينشد ويكثر من هذا الباب وأمثاله عند الحسن بن وهب ، فقال ، يا هذا لقد شددت على نفسك . [3]

وذكر ابن رشيق أبياتاً لا يجب للشاعر أن يكرر اسماً إلا على جهة التشوق لذلك أو الاستعذاب إذا كان في تغزل او نسيب كقول أمرئ القيس : [4]

ديار لسلمى عافيات بذي خال ألح عليها كل أسحم هطال
وتحسب سلمى لا تزال ترى طلاً من الوحشي او تبيضا بميناء مجلال
وتحسب سلمى لا تزال كعهدنا بواد الخزامي او على رس أو عال
ليالي سلمى إذ تريك متصدراً وجيد كجيد الريم ليس بمعطال

وقالت الخنساء [5]

وإن صخراً لمولانا وسيدنا وإن صخراً اذا نشتو النحار

---

[1] المصدر نفسه : 74/2 .

[2] الصاحبي : 77 ، ينظر : النقد اللغوي عند العرب : 274 .

[3] ينظر / العمدة : 79/2 .

[4] ديوانه : 46 .

[5] ديوانها : 123 .

وأن صـــــخراً لتـــــأتم الهـــــداة بـــــه كأنـــــه علـــــم فـــــي رأســـــه نـــــار

فتكرير اسم الممدوح هنا تنويه به ، وإشارة بذكره ، وتفخيم له في القلوب والأسماع . [1]

ويعد التكرار الصوتي ، هو الفاصل والمعيار النقدي في قصائد الشعراء وما يذكرونه من أسماء النساء ربما تكون حقيقة أو خيالية وهذا ما أشار إليه ابن رشيق القيرواني عندما قال : " وأما عزة وبثينة فقد حماهما كثير ، حتى كأنما حرما على الشعراء ، وربما الى الشعراء بأسماء كثيرة في القصيدة أقامة للوزن وتحليله للنسيب .

قال جرير :

إذا ســـــايرت أســـــماء يومـــــاً طعائنـــــا فأســـــماء مـــــن تلـــــك الظعـــــائن املـــــح

طللـــــن حـــــوالي قـــــدر أســـــماء فـــــاتحي بأســـــــماء حـــــــوار المـــــــواطعين أروع

صـحا القلـب عـن اسـماء وقـد برحـت بـه ومـــا كـــان يلقـــى مـــن تماضـــر ابـــرح

وإنما قوم وزنه وحلاه (بتماضر) على أن تكرار لفظة " أسماء " قد شغل الآبيات بنغم لا يسمح بانصراف الذهن الى سواه .[2] وهذا كله لا يخرج عن نطاق التكرار الصوتي في القصيدة وانما يضيف إليها إيقاعاً موسيقياً جميلاً .

وفي السياق نفسه الذي ذكره ابن رشيق يذكر لنا ابن سنان الخفاجي (466هـ) فيقول : " وأجاز لنا في بعض الأيام شيخنا أبو العلاء وقول الشاعر .

إلا طرقتنـــــا بعـــــدما هجمـــــوا هنـــــد وقـــد ســـرت خمســـاً واتـــلاب بنـــا نجـــد

اميـــــذا هنـــــد وارض بهـــــا هنـــــد وهنـــد اتـــى مـــن دونهـــا التـــأي والبعـــد

وقال ابن سنان : " من حبه لهذه المرأة لم ير تكرير اسمها عيباً ، ولأنه يجد التلفظ باسمها حلاوة " [3]

وكان التكرار الصوتي لمواضع في الشعر مالتكرار أسماء النساء من السحر والإثارة ، تقصدها الشعراء بعد ذلك ليضيفوا على شعرهم تلك النغمة الصوتية التي ألفها الشاعر هذه جاء تقريره القول . [4]

---

[1] العمدة : 73/2 .

[2] ينظر / العمدة : 122/2 .

[3] سر الفصاحة : 93 .

[4] معلقته : 186 ينظر : جرس الالفاظ : 248 ، 265 .

ونشـــرب ان وردنـــا المـــاء صـــفواً ويشـــرب غيرنـــا كـــدراً وطينـــاً

وهذا التكرار الصوتي في الضمير ، وكأنه رسوخ لذلك التناغم في ذهن السامع وحسبك روعة في إبداع هذا الشاعر أنه ختم ضجة الجرس الخطابية في ألفاظ معلقته بتخلص يعد من جماليات الأسلوب .

ولعل تكرار أصوات القافات والراءات من أقدم الشواهد التي ساقها الجاحظ وهو الذي صور للناس أنه من كلام الجن : [1]

وقبـــر حـــرب بمكـــان قفـــر ولـــيس قـــرب قبـــر حـــرب قبـــر

ونقل ابن رشيق القيرواني عن ابن المعتز (296هـ) أبياتا ورد فيها تكرار صوتي جميل ، قال ابن المعتز :

لســـاق لســـرى كتـــوم كتـــوم ودمعـــي بحيـــي نـــوم نمـــوم

ولـــي مالـــك شـــفي حبـــه بـــديع الجمـــال وســـيم وســـيم

لـــه مقلتـــا شـــادن أحـــور ولفـــظ ســـحور رخـــيم رخـــيم

فـــدمعي عليـــه ســـجوم ســـجوم وجســـمي عليـــه ســـقيم ســـقيم

ذكر ابن المعتز ان الجاحظ سمي هذا النوع المذهب الكلامي ، وذكر ابن رشيق أن ابن المعتز وهذا باب ما علمت اني وجدت منه في القرآن شيئاً ، ويقول ابن رشيق القيرواني (456هـ) : " غير أن ابن المعتز قد ختم بهذا الباب أبواب البديع الخمسة التي ضمنها بهذه التسمية ، وقدمها على غيرها"[2]

وإذا رجعنا إلى الأبيات الشعرية نرى ان ابن المعتز قد كرر صوت الميم أكثر من أثنتي عشرة مرة بأسلوب جميل وشيق وغير ممل ، ولم يحدث خللاً في مضمون القصيدة

وقال زهير بن أبي سلمى : [3]

---

[1] سر الفصاحة : 88 ، زعموا أن هذا البيت لبعض الجن وقد صاح على حرب بن أمية في فلات فمات بها .

[2] العمدة : 79/2 .

[3] ديوانه : 88 .

إذا لقحـــت حـــرب عـــوان مضـــرة ضـــروس تهـــر للنـــاس أنيابهـــا عصـــل

نجد ان هناك علاقة قوية بين تكرار صوت حرف الراء والمد والتشديد وما يلابس الحرب من جلجلة وضجيج ، رفده بمولد معنوي بتكرار الضاد في (مضروضروس) والتشديد في مضرة وثهر" وفي صوت السين في (ضروس والناس) وبالتنوين في قوله (حرب عوان) ، مضرة ضروس ، فجعل متغيرات الأصوات في الحروف تحاكي اختلاط الأصوات وتعددها في ساحة الحرب ، وفيما هو مقرر في دلالة ألفاظ المصاقبة وهو تقارب أصوات الحروف لتقارب المعاني . [1] وهذا التكرار في الحروف يعزز ويقوي من بنية القصيدة العربية .

ورود التكرار الصوتي في القرآن الكريم دليل على قيمة أدائه في التعبير البياني والقرآن الكريم يعد قمة للبلاغة العربية والمباحث الصوتية ، فقد خاطب العرب بما يألفون من الأساليب ، وبكلام يدركون مواقعه ومراميه ، قال تعالى : ﴿ **الْقَارِعَةُ * مَا الْقَارِعَةُ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ** ﴾ ([2] لأن الكلام مستمر في ذكر القيامة والقارعة البلبلة التي تقرع القلب ، وأنت تسمع لفظة القارعة تتكرر ثلاث مرات كأنها صوت الضرب بالمقرعة واشتملت اللفظة على القاف والعين وهما من حروف الطلق وهما عند الفراهيدي من طلق الحروف وأضخمها جرساً.[3] لأن المقام يقتضي جرساً عالياً يقرع بشدة هذا الكفر الذي تقدم ذكره .

يقول إبن الأثير (637هـ) ، قال : وقد ورد في القرآن الكريم واستعمل في فصيح الكلام ، فمنه قوله تعالى : ﴿ **وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ رِجْزٍ أَلِيمٌ** ﴾ [4] والرجز هو العذاب .

وقد أصاب إبن الأثير حين وضع التكرار من علم البيان ووصفه بدقة المآخذ ويرى التكرار يفيد قوة قرع الأسماع وإثارة الأذهان نحو قوله تعالى : ﴿**فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ * وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ** ﴾ [5]

قال : فأنه قد كرر ذلك في السورة كثيراً وفائدته ان يجدوا عند استماع كل نبأ من أنباء الأولين.[6]

---

[1] الأسلوبية الصوتية – بحث للدكتور ماهر هلال أفاق عربية العدد السابع عشرة /1992 .

[2] القارعة : 1 ، 3 .

[3] العين : 53/1 .

[4] سبأ : 5 .

[5] القمر : 39 ، 40 .

[6] المثل السائر : 19/2 ، 20 ، ينظر : جرس الألفاظ : 262 .

وقد كان للبلاغيين العرب رأي في تكرار العبارة هذه ، فأبن الأثير ، يرى أنه يفيد تقوية المعنى ، وسبيل هذه التقوية ، قرع الأسماع وأيقاظ الأذهان ، وإنما يقرع السمع من الألفاظ جرسها وإيقاعها ... إذا سمعوا الحث على ذلك والعبث إليه ، وأن تقرع لهم العصا مرات لئلا يغبلهم الهو وتستولي عليهم الغفلة . [1] فتظهر في القرآن الكريم جمالية التكرار الصوتي فكلما تكررت لفظة ولمرات عدة تتشوقها الأذن وتصفي لها الأسماع وتخضع لها القلوب وتطمئن لها النفوس .

والتكرار الصوتي في القرآن الكريم ، وجه من وجوه البلاغة العربية ، لم ينطق به قبل القرآن لسان فيجيد به تلك الحلاوة ، وكذلك التكرار الذي جاء في سورة الرحمن في قوله تعالى: ﴿ **فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ** ﴾ [2] وهي التي تكررت إحدى وثلاثين مرة ورددها مرات متتابعة . يقول الخطابي (387هـ) : " إذا كان المعنى في تكرير قوله : وقوله تعالى : ﴿**فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ** ﴾ تحديد ذكر النعم " [3] ولكن السكاكي (626هـ) يرى أن نحو ﴿ **فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ** ﴾ وقوله تعالى: ﴿**وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ**﴾ كان قد وفق حقاً ، على قيمة التكرار ، فيرى ان جوهر التكرار إعادة اللفظ بعينه ، وليس إعادة المعنى بصياغات مختلفة ، إنما هو رديف وترجيع نغمي فيقول : " ان نحو فبأي آلاء ربكما تكذبان ، وويل يومئذ للمكذبين " مذهوب به رديف يعاد في القصيدة مع كل بيت ، أو مذهب ترجيع القصيدة يعاد بعينه مع عدة أبيات او ترجيع الافكار وعائب الرديف او الترجيع ، أما دخيل في صناعة تغنين الكلام أو ما وقف بعد على لطائف أفانينه "[4] فأين الأثير يرى ان التكرار بفيد تقوية المعنى ، ولكن السكاكي وقف على قيمة التكرار .

ففي الآية الثانية : : ﴿**وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ**﴾ فأن امتداد هذا الصوت من او السورة الى آخرها دون أن يتغير وجه الصارخ ، أو تختلف نبراته ، فيه تمكين قوي لهذا الصوت ، أن يزلزل النفوس ويملأ القلوب فزعاً وهلعاً ، ولو أن صوت هذا الصارخ تغير من موقف إلى موقف ، لما كان لهذا الصوت ذلك الوقع الشديد في التأثير على النفس ، ولوجد السامع لكل صوت حالاً تنقله من حالته التي هو فيها ، وهذه الخلخلة تذهب بكثير من الأثر النفسي للصوت الواحد الممتد

---

[1] نفسه :

[2] الرحمن : 13 .

[3] ثلاث رسائل في أعجاز القرآن : الخطابي : 53 .

[4] المرسلات : 28 .

وتجعله قطعاً ممزقة ، يجد المرء في خلالها شيئاً من الراحة والأمن ، وأن استقبل بعدها اشد الأصوات إزعاجاً وإرعاداً .[1]

هكذا تمضي الآية إلى آخر السورة على هذا النسق العجيب من النظم ، فعلى رأس كل آية أو آيتين ، تجيء الآية المكررة وكأنها خاتمة المقطع في مقاطع السمفونية الموسيقية ، وقد قسمت هذه السورة على مقاطع ، كل مقطع منها يمثل وحدة من النغم في المدرج الموسيقي ، [2] فتكرار الصوت يعني جمالية المقطع المتكرر في السورة .

ولنأخذ مثالاً من القرآن الكريم والذي جاء في قوله تعالى : ﴿ **كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ** ﴾[3]

فأن صوت (زحزح) أبلغ من (زح) لما فيه من التكرار . [4] وفيه تصوير لمعنى تراجع الخطي إن تتزلف القوم فيهوى صاحبها في النار ، إذ في تكرر صوتي (الزاي) و (الحاء) إيحاء بهذا المعنى ، فالذي يعاني من شيء ثقيل على نفسه يكرر مثل هذا الصوت ، ولا سيما صوت (الحاء) المهموس ، الاحتكاكي ، وقد تظهر هذه الدلالة على اللفظة وهي مفردة ، لكن التعبير القرآني لما بين ألفاظه من قوة انسجام صوتي ، يجعل السمع أكثر تحسساً لإدراك صورة المعنى .

ففي الآية الكريمة ، هناك صوتان متقاربان في المخرج هما ، (الحاء) و (الغين) في قوله " زحزح عن " ويومئ هذا التقارب الذي يتأنى اللسان فيه بدقة للحظة الحرجة للزح والانفراج عن حافة الهاوية . [5]

وفي سورة الناس جاء التوالي الصوتي رائعاً عندما يتكرر صوت حرف السين عدة مرات قال تعالى : ﴿**قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ* مَلِكِ النَّاسِ * إِلَهِ النَّاسِ * مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ * الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ * مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ** ﴾ [6]

فقد جاءت ألفاظ الوساوس ، يوسوس ، مشتقة من صيغة ، " فعلل " وسوس المتكررة ، وقد بقيت حروف الوسوسة مكررة في ، الوسواس ، يوسوس ، وهو تكرار صوت الواو والسين ، وباجتماعهما في هذه الصيغة إيحاء بتكرار الوسوسة ، فلما كانت الوسوسة كلاماً يكرره الموسوس

---

[1] مفتاح العلوم : 28 ، ينظر : المثل السائر : 15/3 / العمدة : 74/2 .

[2] الأعجاز القرآني ، عبد الكريم الخطيب : 380 ، 388 .

[3] آل عمران : 185 .

[4] قطف الأزهار : 670/1 .

[5] الصورة السمعية في القرآن الكريم . 120 .

[6] الناس : 1 – 6 .

، ويؤكده عند من يلقبه ، كرروا ألفاظها بازاء تكرير معناها ، فقالوا : وسوس وسوسة ، فراعوا تكرير اللفظ ليفهم منه تكرير مسماه ، وقد علم بهذا أن من جعل هذا الرباعي بمعنى الثلاثي المضاعف ، لم يصب ، لأن الثلاثي لا يدل على تكرار ، بخلاف الرباعي المكرر ... فتأمله فأنه مطابق للقاعدة العربية في الحذو بالألفاظ حذو المعنى.[1]

الفاصلة الصوتية :

عني علماء البلاغة بالفاصلة الصوتية ، وجهود علي بن عيسى الرماني (386هـ) بينة في هذا المسعى عندما قال : " الفواصل حروف متشاكلة في المقاطع توجب حسن إفهام المعاني والفواصل بلاغة والأسجاع عيب ، وذلك أن الفواصل تابعة للمعاني ، وأما الأسجاع فالمعاني لها ، وهو قلب ما توجبه الحكمة في الدلالة ، إذا الغرض الذي هو حكمة إنما هو الإبانة عن المعاني التي الحاجة إليها ماسة فإذا كانت المشاكلة وصلة إليه فهو بلاغة ، وإذا كانت المشاكلة على خلاف ذلك ، فهو عيب ولكنه ، لأنه تكلف من غير الوجه الذي توجبه الحكمة ، ومثله مثل رصع تاجاً ثم ألبسه ونجياً ساقطاً ، أو نظم قلادة در ثم ألبسها كلباً ، وقبح ذلك وعيبه بين لمن له أدنى فهم ، فمن ذلك ما يحكى عن بعض الكهان : والأرض والسماء ، والغراب واقعة بنقعاء ، لقد نفر المجد إلى العشراء ، ومنه ما يحكى عن مسيلمة الكذاب : " يا ضفدع نقي كم تنقين ، لا الماء تكدرين ولا النهر تفارقين " [2]

فهذا أغث كلام يكون ، وأسخفه ، وقد بينا علته ، وهو تكلف المعاني من أجله ، وجعلها تابعة له من غير أن يبالي المتكلم بها ما كانت .

وفواصل القرآن كلها بلاغة وحكمة ، لأنها طريق إلى إفهام المعاني التي يحتاج إليها في أحسن صورة يدل بها عليها ، وإنما أخذ السجع في الكلام من سجع الحمامة ، وذلك أنه ليس فيه من الأصوات المتشاكلة ، كما ليس في سجع الحمامة ألا الأصوات المتشاكلة ، إذا كان المعنى لما تكلف من غير وجه الحاجة إليه والفائدة فيه لم يعتد به ، فصار بمنزلة ، ما ليس فيه إلا الأصوات المتشاكلة"[3]

---

[1] ينظر : الخصائص : 544/1 ، الكشاف ، 184/2 ، البرهان في علوم القرآن : 35/3 ، 34 البناء الصوتي في البيان القرآني : 88 ، الصوت اللغوي في القرآن الكريم : 168 .

[2] ثلاث رسائل في أعجاز القرآن – الرماني : 97 .

[3] المصدر نفسه : 98 .

والفاصلة الصوتية في اللغة : " الخرزة التي تفصل بين الخرزتين في النظام ، وقد تفصل النظم"[1] واعتقد أن لها وظيفة أخرى ، وهي محطة استراحة للقارئ في تجديد نشاطه بانغام صوتية متساوية ومتصلة الواحدة بالأخرى في مقاطع صوتية منسجمة كخرز القلادة .

وقسم الرماني الفواصل على وجهين : أحدهما على الحروف المتجانسة والاخر على الحروف المتقاربة ، فالحروف المتجانسة كقوله تعالى : ﴿ **طه * مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى * إِلَّا تَذْكِرَةً لِمَنْ يَخْشَى**﴾ [2]

وقوله : ﴿**وَالطُّورِ وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ**﴾ [3]

وآما الحروف المتقاربة ، فكالميم من النون ، كقوله تعالى : ﴿**الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ** ﴾ [4] وكالدال مع الياء نحو : ﴿ **ق * وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ**﴾ [5] ثم قال : ﴿**هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ**﴾ [6] وإنما حسن في الفواصل الحروف المتقاربة لأنه يكتشف الكلام من البيان ما يدل على المراد في تميز الفواصل والمقاطع ، لما فيه من البلاغة وحسن العبارة "[7]

لم يرد أبو هلال العسكري (395هـ) راي الرماني في التفريق بين الفواصل والسجع واعتبار السجع عيباً والفواصل بلاغة ، كما قال الرماني : " الفواصل بلاغة ، والأسجاع عيب " وقد رد على هذا بقوله : " وكذلك جميع ما في القرآن مما يجري على التسجيع والازواج مخالف في تمكين المعنى وصفاء اللفظ ، وتضمن الطلاوة والماء ، لما يجري مجراه من كلام الخلف ، الا ترى قوله عز اسمه : ﴿**وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحاً * فَالْمُورِيَاتِ قَدْحاً * فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحاً * فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعاً * فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعاً**﴾[8] قد بان عن جميع اقسامهم الجارية هذا المجرى من مثل قول الكاهن : والسماء والأرض ، والقرض والفرض ، والغمر والبرض ، ومثل هذا السجع مذموم لما فيه من التكلف والتعسف ، ولهذا ما قال النبي صلى الله عليه وسلم لرجل قال له : أندي من لا شرب ولا آكل ، ولا صاح فأستهل ، فمثل ذلك يطل : اسجعاً كسجع الكهان ؟ لأن التكلف في سجعهم فاش " [9]

---

[1] لسان العرب : مادة (فصل) 1101/2 .

[2] طه : 1 .

[3] الإسراء : 58 .

[4] الفاتحة : 1 ، 2 .

[5] ق : 1 .

[6] ق : 2 .

[7] ثلاث رسائل في الأعجاز القرآني – الرماني : 97 ، ينظر البلاغة تطور وتاريخ : 155 .

[8] العاديات : 1 ، 5 .

[9] كتاب الصناعتين : 261 .

وأكثر علماء البلاغة تحمساً لهذه المسألة ابن سنان الخفاجي (466هـ) في كتابه سر الفصاحة عندما قال : " فأما قول الرماني — إن السجع عيب والفواصل بلاغة — على الإطلاق (فغلط) ، لأنه إن أراد بالسجع ما يكون تابعاً للمعنى وكأنه غير مقصود فذلك بلاغة والفواصل مثله ، وإن كان يريد بالسجع ما تقع المعاني تابعه له وهو مقصود متكلف ، فذلك عيب والفواصل مثله ، وكما يعرض التكلف في السجع عند طلب تماثل الحروف ، كذلك يعرض في الفواصل عند تقارب الحروف ، وأظن أن الذي دعا أصحابنا إلى تسمية كل ما في القرآن فواصل " [1]

وقال الرماني : " ولم يسمعوا ما تماثلت حروفه سجعاً ، رغبة في تنزيه القرآن عن الوصف اللاحق بغيره من الكلام المروي عن الكهنة وغيرهم ، وهذا غرض في التسمية قريب ، فأما الحقيقة فما ذكرناه ، لأنه لا فرق بين مشاركة بعض القرآن لغيره من الكلام في كونه مسجوعاً ، وبين مشاركة جمعه في كونه عرضاً وصوتاً وحروفاً وكلاماً عربياً ، مؤلفاً ، وهذا مما لا يخفى فيحتاج إلى زيادة في البيان ، ولا فرق بين الفواصل التي تتماثل حروفها في المقاطع وبين السجع " [2]

قيل : إنّ القرآن أنزل بلغة العرب وعلى عرفهم وعاداتهم ، وكان الفصيح من كلامهم لا يكون كله مسجوعاً لما في ذلك من إمارات التكلف والاستكراه والتصنع ، لاسيما فيما يطول من الكلام ، فلم يرد مسجوعاً جرياً على عرفهم في الطبقة العليا من كلامهم ولم يخل من السجع لأنه بحسن في بعض الكلام على الصفة التي قدمناها ، وعليها ورد فصيح كلامهم ، فلم يجز أن يكون عالياً في الفصاحة وقد أخل فيه بشرط من شروطها ، فهذا هو السبب في ورود القرآن مسجوعاً وغير مسجوع ، والله أعلم " [3]

ومهما يكن من أمر فأن السجع عند العرب مهمة لفظية تأتي لتناسق أواخر الكلمات في الفقرات وتلاؤمها ، فيكون الآتيان به أنى اتفق لسد الفراغ اللفظي ، وإما مهمة الفاصلة القرآنية فليس كذلك ، بل هي مهمة لفظية معنوية بوقت واحد ، أنها مهمة فنية خالصة ، فلا تفريط في الألفاظ سبيل المعاني ، ولا الاشتطاط بالمعاني من اجل الألفاظ ، بينما يكون السجع في البيان

---

[1] سر الفصاحة : 161 ، ينظر : ثلاث رسائل : 188 .

[2] سر الفصاحة : 167 ، ينظر : ثلاث رسائل : 190 .

[3] نفسه : 167 .

التقليدي مهمة تنحصر بالألفاظ غالباً ، لذلك ارتفع مستوى الفاصلة في القرآن بلاغياً ودلالياً عن مستوى السجع فنياً وأن وافقه صوتياً . [1]

والملحض الصوتي في فواصل الآيات القرآنية ، يتمثل بزيادة حرف ما في الفاصلة وعناية للبعد الصوتي وعناية بنسق البيان في سر اعتداله ليؤثر في النفس تأثيره الحساس حين يتواصل النغم بالنغم وبتلاحم الإيقاع بالإيقاع ، وهذا ما نجده في ألف الإطلاق ان صح التعبير بالنسبة إلى القرآن قال تعالى : ﴿**وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا** ﴾ [2] وقوله عز من قائل : ﴿**فَأَضَلُّونَا السَّبِيلا** ﴾ [3] وقوله : ﴿ **وَأَطَعْنَا الرَّسُولا**﴾ [4] يبدو أن إلحاق هذه في الظنون والسبيل والرسول ، يشكل تلقائياً ظاهرة صوتية تدعو إلى التأمل ، وألا فما يضر الفتحة لولا الملخص الصوتي : " كون فواصل هذه السور منفلة عن تنوين في الوقوف مزيد على النون الألف لتساوي المقاطع وتناسب نهايات الفواصل " [5]

ونبه الفرّاء (207هـ) من قبل في قوله تعالى : ﴿**وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ**﴾ [6] على حذف صوت الياء مراعاة التناسب الصوتي الإيقاعي مع فواصل الآيات الكريمة الأخرى إذ يقول : " وقد قرأ القراء " يسري " بإثبات الياء و " يسر " بحذفها وحذفها أحب ألي لمشاكلتها رؤوس الآيات ، ولأن العرب قد تحذف الياء وتكتفي بكسرها قبلها " [7]

قال تعالى : ﴿ **وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُون**﴾ [8] هذه الفاصلة لها قيمتها في إتمام المعنى ، وهي مرتبطة ، بالآيات تمام الارتباط ، ولها أثرها الموسيقي في نغم الكلام ، ولهذه الموسيقية أثرها في النفس ، وأسلوب القرآن فيه هذه الموسيقى المؤثرة . [9]

وقد يشتد التقارب الموسيقي في التواصل حتى تتحد الفاصلتان في الوزن والقافية كما في قوله تعالى : ﴿ **فِيهَا سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ * وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ**﴾ [1] وقوله : ﴿**إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ * ثُمَّ**

---

[1] الصوت اللغوي في القرآن الكريم : 153

[2] الأحزاب : 10 .

[3] الأحزاب : 67 .

[4] الأحزاب : 66 .

[5] البرهان في علوم القرآن : 61/1 .

[6] الفجر : 4 .

[7] معاني القرآن – للفراء : 260/3 ، ينظر : التنغيم اللغوي في القرآن الكريم : 44 .

[8] يس : 37 .

[9] المثل السائر : 62/1 ، 39/2 ، ينظر : الإتقان : 99/2 .

إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ﴾ [2] وقوله : ﴿**إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ * وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ**﴾ [3] ويسمى العلماء الفواصل المتفقة في الحرف الأخير متماثلة ، وماعداها متقاربة ، ولا تخرج الفواصل عن هذين النوعين أبداً ، وقد تنتهي السورة بفاصلة منفردة تكون كالمقطع الأخير ، نحو قوله تعالى في ختام سورة الضحى ، ﴿**فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلا تَقْهَرْ * وَأَمَّا السَّائِلَ فَلا تَنْهَرْ * وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ**﴾ [4]

إن الفاصلة القرآنية وإن كانت في ظاهرها فاصلة صوتية إلا أن لها ، ارتباطها الوثيق بدلالة الآية ، وأن المعنى مقدم على الانسجام الصوتي العام للفواصل فقد يضحى بالانسجام العام من أجل انسجام صوتي خاص يتلاءم مع الصورة الفنية التي يراد لألفاظ الآية أن توصي بها في نسق معين فضلاً عن أدراك المعنى المراد . [5]

والواقع الموسيقي في ترتيب الفواصل القرآنية ، مرادة في حد ذاتها إيقاعياً ولكنها يضاف إليها غيرها من الأغراض الفنية والتأكيدات البيانية ، مما هو مرغوب فيه عند علماء البلاغة .

---

[1] الغاشية : 14 ، 15 .

[2] الغاشية : 26 .

[3] الانفطار : 13 ، 14 .

[4] الضحى : 9-11 .

[5] أبحاث في أصوات العربية : 148 ، ينظر : الصوت اللغوي في القرآن الكريم : 147 .

المبحث الثالث : الفضاء الصوتي في الشعر :

إذا كان السمع أباً للكلمات اللسانية ، فأنه أب للشعر باعتباره بوصفه واحداً من هذه الملكات ، والارتباط الصوت بالشعر خصوصاً ، لأن الشعر في أصله إنشاد ، والإنشاد قائم على الصوت ، ولعل كثيراً من القصائد ما زالت إلى اليوم تمتاز بصفة الأناشيد ، وليس ذلك إلا لخصائصه الصوتية ، لكن الصوت ليس فقط التنغيم أو التشابه بين الحروف أو هو النظام أو الوحدة أو التناظر ، وليس هو المحسنات البديعية فقط التي تثير نوعاً من التجانس والتناغم ، أنه في الحق أبعد من ذلك بكثير ، فهو يشمل استخدام الكلمة والأفعال الثلاثية والرباعية ودلالات هذا الاستخدام ، وهو يشمل التجانس بين ألفاظ القصيدة في مفتتحها وخاتمتها .

وعلى هذا النحو يشكل الصوت ميزة جمالية ، وهذه الصفة الجمالية الإنشادية هي التي سهلت حفظ الشعر في العصر الجاهلي إذ أنه لم يصل إلينا مدوناً أو محفوظاً في كتاب .

يقول الجاحظ (255هـ) : " وأما الشعر فحديث الميلاد ، صغير السن ، أول من نهج سبيله وسهل الطريق إليه ، أمرؤ القيس ، ومهلهل بن ربيعة وكتب أرسطاطاليس ، ومعلمه افلاطون ، وفلان وفلان ، قبل بدء الشعر بالدهور قبل الدهور ، والأحقاب قبل الاحقاب ، وبدل على حداثة الشعر "[1] بل أن الشعر إلى اليوم يحافظ على هذه الميزة على الرغم من التطور الهائل في بنية الشعر وفي طريقة كتابته وألقائه ، كما أن ارتباط الشعر بالإلقاء ، جعل البعد الصوتي ملازماً له ومحلقاً معه ، ثم أن الصوت مرتبط من ناحية أخرى بالدلالة ، وهذه الدلالة صوتية يطلق عليها النبر .

يقول أبو هلال العسكري (395هـ) متابعاً الجاحظ : " والشعر كلام منسوج ، ولفظ منظوم ، وأحسنه ما تلاءم منسجه ولم يستخف ، وحسن لفظه ولم يهجن ولم يستعمل فيه الغليظ من الكلام ، فيكون جلفاً بغيضاً ن ولا السوقي من الألفاظ فيكون مهلهلاً دوناً " [2] وقال : " ومما يفضل به

---

[1] الحيوان : 74/1 ، ينظر : البيان والتبيين : 11/1 .

[2] كتاب الصناعتين : 66 .

الشعر أن الألحان التي هي أهنا اللذات ، إذا سمعها ذوو القرائح الصافية ، والأنفس اللطيفة ، لا تتهيأ صنعتها إلا على كل منظوم من الشعر ، فهو لها بمنزلة المادة القابلة لصورها الشريفة " [1]

وعلى هذا الأساس يشكل الصوت في النسق اللغوي منطلقاً للوعي والتأثير ، فالشاعر يكرر حرفاً بعينه أو مجموعة من الحروف فيكون لهذا مغزى يعكس شعوراً داخلياً للتعبير عن تجربته الشعرية ، فقد يتفوق الجرس الصوتي على منطلق اللغة فيخرج من قيد الصوت المحض الى دلالة تحرك المعنى وتقوية وأحداث التناغم بين الذات والصوت .

وقال ابن طباطبا (322هـ) في وقت مبكر : " الشعر ، أسعدك الله – كلام منظوم ، يائن عن المنثور الذي يستعمله الناس في مخاطباتهم بما خص به من النظم الذي ان عدل عن جهته مجته الأسماع وفسد على الذوق ، ونظمه معلوم محدود ، فمن صح طبعه وذوقه لم يحتج إلى الاستعانة على نظم الشعر بالعروض التي هي ميزاته ، ومن اضطراب عليه الذوق لم يستغن عن تصحيحه وتقويمه ، وللشعر الموزون إيقاع يطرب الفهم لصوابه وما يرد عليه من حسن تركيبه واعتدال اجزائيه ، فإذا اجتمع للفهم مع صحة وزن الشعر صحة المعنى وعذوبة اللفظ فصفا مسموعة ومعقولة من الكدر ، فإذا ورد عليك الشعر اللطيف المعنى الحلو الحفظ التام البيان المعتدل الوزن ، مازج الروح ولاءم الفهم وكان انفذ من نفث السحر وأخفى ديبياً من الرقى ، وأشد طرياً من الغناء " [2] وقال : " ومن الأبيات الحسنة الألفاظ المستعذبة الرائقة سماعاً ، الواهية تحصيلاً ومعنى ، وإنما يستحسن منها اتفاق الحالات التي وضعت فيها ، وتذكر اللذات بمعانيها " [3] ويضع ابن طباطبا للشعر ثلاثة أجزاء كما يسميها فان اعترى أحدها نقص ما أضل ذلك بالاعتدال الذي يطلبه ويمكن توضيح ذلك بهذه الخطاطة .

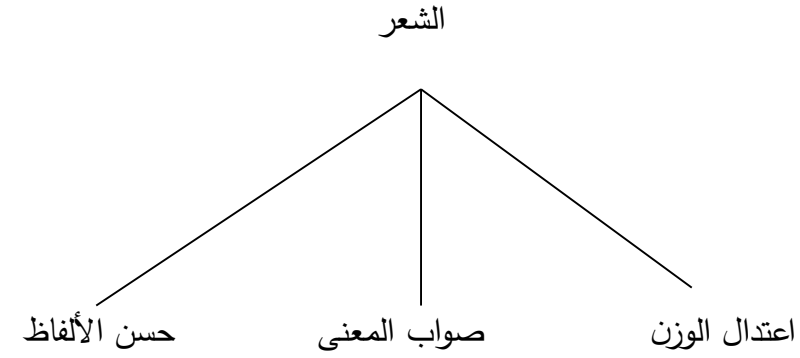

---

[1] نفسه : 144 .

[2] عيار الشعر ، 3 ، 13 .

[3] نفسه : 15 .

فان نقص جزء من أجزائه التي يعمل بها وهو اعتدال الوزن أو صواب المعنى وحسن الألفاظ ، كان إنكار الفهم إياه على قدر نقصان أجزائه ، ولحسن الشعر وقبول الفهم إياه علة أخرى وهو موافقة للحال التي يعد معناه لها كالمدح في حال المفاخرة . [1]

إلا أن النقاد والبلاغيين العرب بذلوا جهوداً كبيرة في شرح الشعر وبيان محاسنه وقبحه نتيجة إحساسهم بأهمية صوت اللفظ الناتج عن جرس الحروف وائتلافها لا سيما في الشعر الذي يعتمد على الصوت وسيلة لضبط الوزن ، فضلاً عن جمال الصوت وإيحاءاته وما يمكن أن يحدثه في النفس انطلاقاً من إحساسهم المرهف بوقع الكلمات في نفوسهم حتى صار جمال صوت الكلمة ولطف جرسها يقابل عندهم جمال الصورة الحسنة ، والدراسات الصوتية والنقدية القديمة خير مثال على ذلك.

فقد بنى قدامة بن جعفر (337هـ) معياره النقدي على الصوت في معرفة حاسية اللفظ والمعنى والقافية والوزن ، وقد برع في صناعة البلاغة واشتهر في زمانه بالبلاغة ونقد الشعر ، فقسم الشعر الى علم عروضه ووزنه وعلى علم قوافيه ومقاطعه وعلى علم معانيه والى علم جيده ورديئه ثم قال : " أنه قول موزون مقضى يدل على معنى " [2] وقال : " وكذلك معنى الوزن ومعنى التقفية ومعنى ما يدل عليه " [3]

وقد تمثل الدراسة الصوتية للقصيدة وسيلة لا بديل منها لمعرفة الصلة التي يعرفها الشاعر بين الصوت والمعنى ، وليس يعني ذلك اتباع المقاييس التي شكل منها الخليل جهازه التحليلي للبنى الإيقاعية في الشعر .

ويقرر ابن سنان الخفاجي (466هـ) خاصية البناء الصوتي للكلام بقوله : " ولما استحال ان تواجد الأصوات المقطعة على وجه مخصوص ولا تكون كلاماً ، أو الكلام من غير صوت مقطع دل على أنه الصوت بعينه " [4]

وقد كان الشعراء والكتاب يكثرون من ملاحظاتهم البلاغية ، محاولين بكل ما وسعهم أن بذلوا المادة الأدبية القديمة لتحمل عصرهم ونفوسهم وأحاسيسهم وعقولهم وأخيلتهم ، إن الأدب في رأيهم تفهم ودراسة الأمثلة القديمة حتى يتشيع بها الشاعر والكاتب ، ثم يأخذ في أن يجد نفسه ومحيطه ، ويصورها في لغة تزخر بالمحسنات أو في لغة شفافة لطيفة كالغلائل الرفيعة " هذه

---

[1] نفسه : ينظر : اللغة الشعرية في الخطاب النقدي العربي : 45 .

[2] نقد الشعر : 13 .

[3] المصدر نفسه : 22 .

[4] سر الفصاحة : 2 .

الصناعة هي تلحين الأشعار الموزونة بتقطيع الأصوات على نسب منتظمة معروفة بوضع على كل صوت منها توقيعاً " [1]

روي عن النبي (صلى الله عليه وسلم) انه قال : " إنما الشعر كلام مؤلف فما وافق الحق منه فهو حسن ، وما لم يوافق الحق منه فلا خير فيه " [2]

والشعر فن من الفنون الجميلة مثله مثل التصوير والموسيقى والنحت وهو في اغلب أحواله يخاطب العاطفة ويثير المشاعر والوجدان ، وهو جميل في تخير ألفاظه ، وجميل في تركيب كلماته جميل في توالي مقاطعه وانسجامها ، بحيث تتردد ويتكرر بعضها فتسمعه الأذان موسيقى ونغماً منظماً .

وللشعر نواح عدة للجمال أوسعها إلى نفوسنا ما فيه من جرس الألفاظ وانسجام في توالي المقاطع وتردد بعضها قدر معين منها وهذا ما نسميه بالموسيقى ، وكما ربط حازم القرطاجني (684هـ) في كتابه منهاج البلغاء ، ربطاً وثيقاً بين الإيقاع الشعري العام وحسن التخيل قال : " الشعر كلام موزون مقفى من شأنه أن يحبب إلى النفس ما قصد تحبيبه إليها ، ويكره إليها ما قصد تكريهه " [3]

وقد بذل الشعراء قصارى جهدهم في أن يوفروا الشعر هم هذا التوازن الإيقاعي في الدلالات كما وفروه في الأصوات حتى يتم لها الجمال .

وتعوّل بعض الدراسات البلاغية على الشعر في وصف المستوى الصوتي ، لأن جوهر الشعر هو الصوت ، وأن التشكيل الشعري في النظرية البنائية هو شكل صوتي متكرر ، والصوت هو العنصر الفعال في إيقاع موسيقى الشعر ، والإيقاع يشكل أساساً بنائياً للشعر ، وان فعالية الإنسان الإيقاعية تسهم بدرجات مختلفة في خلق الانطباع الجمالي ، وتنتظم الوحدات الصوتية المتواترة في البيت الشعري ، وتحدث قيم الصوتية الذاتية أثرها الأسلوبي في موسيقى الشعر بمعزل عن الوزن والقوافي ، وهذه الموسيقى ، تكمن في اختيار الشاعر للكلمات ذات النغم وتربيها متألفه [4] .

---

[1] الأغاني : 20/15 ، ينظر : البلاغة تطور وتاريخ : 17 .

[2] العمدة : 27/1 / 218 ، 239/1 .

[3] منهاج البلغاء : 282 ، 300 ، ومن يريد الاطلاع اكثر ، ينظر : نقد الشعر : 144 موسيقى الشعر العربي : 53 ، الأغاني : 20/15 ، 22 ، البرهان في وجوه البيان : 174 الخليل بن احمد الفراهيدي : 184 ، جرس الألفاظ : 112.

[4] الأسس الجمالية في النقد العربي : 235 .

ونجد النقاد والبلاغيين القدماء يحاولون جاهدين إلى كشف قوانين الإيقاع التي تجعل من الصورة جميلة ، سواء في عنصرها الصوتي أو عنصرها الدال ، وقد بحثوا ذلك فوجدوا أن هذه الصور تتمثل في الآثار الأدبية الراقية ، كالشعر القديم ، ووجدوها تتمثل في أرقى صورها البلاغية وأنغامها الصوتية في القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف ، وهكذا اتخذوا من هذه القوانين الإيقاعية أساساً للحكم على الآثار الأدبية المختلفة .

القافية الصوتية :

إن القافية هي الأخرى ظاهرة صوتية وجمالية وهي التي يقف عليها الكلام وتضبط من ناحية أخرى حركة الإيقاع داخل القصيدة ، مثل الوزن والإيقاع ، ولهذا فأن الكثيرين درسوا الظاهرة الصوتية للقوافي ضمن موسيقى الشعر .

وروى الجاحظ أن شبيب بن شيبة كان يقول : " الناس موكلون بتفضيل جودة الابتداء بمدح صاحبه ، وأنا موكل بتفضيل جودة المقطع وبمدح صاحبه وحظ جودة الابتداء بمدح صاحبه ، وانا موكل بتفضيل جودة المقطع ، وبمدح صاحبه وحظ جودة القافية ، وأن كانت كلمة واحدة ، أرفع من حظ سائر البيت أو القصيدة " [1] وقد خص قدامه القافية بقوله : " ان تكون عذبة الحرف سلسة المخرج" [2]

وقد نقل لنا ان ابن رشيق القيرواني (456هـ) بعض آراء العلماء العرب حول القافية ومكانتها الصوتية في الشعر ، قال : قال الفرّاء : إن القافية هي حرف الروي ، وأتبعه على ذلك أكثر الكوفيين ، منهم احمد بن كيسان وغيره ، وخالفه من أهل الكوفة أبو موسى الحامض ، فقال : القافية مالزم الشاعر تكراره في آخر كل بيت ، وهذا كلام مختصر مليح الظاهر ، إلا أنه إذا تأملت كلام الخليل بعينه لا زيادة فيه ولا نقصان ... وسميت القافية قافية لأنها تقفو إثر كل بين ، وقال قوم لأنها تقفو أخواتها " [3]

اختلفوا في القافية ، فهي عند الخليل ، من آخر حرف في البيت إلى أول ساكن يليه ، مع المتحرك الذي قبل الساكن .[4] وعن بعضهم إن القافية هي البيت ، وعن بعضهم هي القصيدة .

---

[1] البيان والتبيين : 106/1 ، ينظر : الحيوان : 36/1 .

[2] نقد الشعر : 51 .

[3] العمدة : 153/1 ، 154 .

[4] مفتاح العلوم : 568 .

وقال ابو هلال العسكري (395هـ) من خلال حديثه عن القوافي : " وينبغي أن تتحامى العيوب التي تعتري القوافي ، مثل السناد والإقواء والإبطاء ، وهو سهلها ، والتوجيه وإن جاء في جميع أشعار المتقدمين وأكثر أسعار المحدثين " [1]

إن النسق النغمي في السجع أشبه بالقافية لازمة النغم في الشعر فقد قالوا : " أن لاتفاق القافية وقعاً حسناً في السمع ولما كانت موسيقى اللفظ عنصراً أساسياً في الشعر كان للقافية شأن لا يستهان به في إكمال هذه الموسيقى . [2] واحسب ان هذه الموسيقى التي يسبقها اللفظ في النثر والشعر هي التي جعلتهم يرون الحسن في الكلام ما " قامت صورته بين نظم كأنه نثر ونثر كأنه نظم ، يطمع مشهوده بالسمع ويمتنع مقصوده على الطبع " [3] هكذا هي أهمية القافية الصوتية في الكلام .

والقافية الصوتية ، شريكة الوزن في الاختصاص بالشعر ، ولا يسمى شعراً ، حتى يكون له وزن وقافية ... وجميع ما يلحق القافية من الحروف والحركات ، ستة أحرف وست حركات ، فالأحرف ، الروي ، والردف ، والتأسيس ، والوصل ، والخروج ، والدخيل . والحركات : الإطلاق ، والحذو ، والرسّ ، والتوجيه ، والنفاذ ، والإشباع . والذي يجتمع منها في قافية واحدة خمسة أحرف وهي ، التأسيس ، والروي ، والصلة ، والخروج ، والدخيل ، وكلها يلزم تكراره بعينه ، إلا الدخيل ، وأربع حركات وهي ، الرس ، والإشباع ، والإطلاق ، والنفاذ .[4]

وعلى هذا ذهب ابن جني (392هـ) إلى القول : " إلا ترى أن العناية في الشعر إنما هي بالقوافي لأنها المقاطع ، وفي السمع كمثل ذلك ، نعم ... إلا تعلم كيف استجاروا الجمع بين الياء والواو رد فعين سعيد وعمرو ، وكيف أستكرهوا اجتماعها وصلين نحو قوله (الغراب الأسود) مع قوله (مفتدى) وقوله في (غدى) "[5]

وليس هذا الاستكراه إلا بسبب عثار النغم الذي يظهره حرف القافية الذي هو اللازمة الصوتية التي ترن في الأذن ، لذلك فقد تفقدوا القافية الصوتية وتتبعوا عيوبها وفصلوا القول فيها ، فعمدوا منها الزحاف والسناد والإبطاء والأكفاء ومن ذلك قول الصاحب في عضد الدولة.

ضممت على أبناء تغلب ثاءها فتغلب مآكر الجديدان تغلب

---

[1] كتاب الصناعتين : 157 .

[2] موسيقى الشعر : 13 .

[3] الإمتاع والمؤانسة : 145/2 .

[4] العمدة : 164/1 .

[5] الخصائص : 84/1 .

ومما أكد عليه القبح في هذه اللفظة التي هي قوله (تغلب) وقوعها قافية ، فأنها مقطع الكلام ، وموضوع تخلي السامع وتفرغه لتفقد ما مر على سمعه مما وقع فيها ، فالسمع اقرب عهداً به ، وهو أشد ارتساماً فيه ، ولو وردت اللفظة التي أنكرها عضد الدولة في أثناء البيت لكان الأمر فيها اسهل.[1]

وإذا كانت اللفظة ذاتها لم تتغير ومع ذلك حسنت في موضع ولم تحسن في موضع آخر لموقعها في الحالين ، فقد أشار إليها إبن الأثير (637هـ) ، تؤيد القول إن الجمال ليس في المفردات ... انك قد ترى لفظتين يدلان على معنى واحد وكلاهما حسن في الاستعمال ، وهما على وزن واحد وعدة واحدة ، إلا أنه لا يحسن استعمال هذه في كل موضع تستعمل فيه هذه ، بل يفرق بينهما في مواضع السبك .[2] فالقافية من خلال موضعها تعطي جمالية صوتية للشعر.

ارتباط الموسيقى في الشعر :

كانت الموسيقى ملازمة للشعر ، فمنذ أن عرف هذا الفن في عصور التاريخ السحيقة والموسيقى تلون الكلمات ، لكي تبدو أكثر جمالاً ونصاعة ولكي يظهر جمال أخاذ للمعنى الشعري ، وليست الموسيقى في الشعر هي محط الخلاف الواسع بين النقاد والدارسين والشعراء ، بل أن الخلاف يتعدى ذلك إلى ماهية الموسيقى ، هل تجريد محض كما في مطلق الموسيقى ،أم هي عنصر من عناصر الشعرية ، لا يقوم الشعر ولا يستوي إلا بها ، أم هي لغة وتعبير يمتزجان كما تمتزج عناصر الهواء لتشكل فن الشعر .

وعلى هذا النحو أعتقد البعض ان الشعر موسيقى ، وهكذا كان رأي أرسطو حيث لم يتناول الشعر الغنائي ، إذ عد داخل في فن الموسيقى منه الى الشعر ، وبالغ البعض الأخر فتصور ان الفرق الوحيد بين الشعر والنثر هو الوزن والموسيقى .

يقول أبن طباطبا "323هـ" : " وللشعر الموزون إيقاع يطرب الفهم لصوابه وما يرد عليه من حسن تركيبه واعتدال أجزائه ، فإذا اجتمع للفهم مع صحة وزن الشعر صحة المعنى وعذوبة اللفظة .[3] إما أبو هلال العسكري (395هـ) الذي أفاد كثيراً من ابن طباطبا ، فقد كان اقرب منه إلى بيان أثر الإيقاع العام للشعر ، فهو يرى أن الألحان وهي أهنأ اللذات في نظره قال : " اذا سمعها ذود

---

[1] منهاج البلغاء : 151 .

[2] المثل السائر : 86/1 ، 88 ، ينظر : الأسس الجمالية : 237 .

[3] عيار الشعر : 12 ، ينظر : فقه اللغة لابن فارس : 229 ، البرهان في علوم القرآن : 113/2 .

الفراغ الصافية والانفر اللطيفة لا تتهيأ صنعتها إلا على كل منظوم من الشعر فهو لها بمنزلة المادة لصورها الشريفة " [1] ويشعر المرء أن القصيدة الجاهلية بنية موسيقية متناسقة ومتكاملة ، وصور إيقاعية تعين القارئ على ترتيب وعيه لمحتوياتها ، واهم خصيصة لموسيقى القصيدة الجاهلية ، هي أنها ذات جلجلة تتناسب مع جلجلة الحرب ، أنها موسيقى القوة اللازمة للجاهلي ، والتي تلائم موضوعات الاعتزاز والتحسس ، غير ان الجلجلة الموسيقية للقصيدة الجاهلية ، لا تؤكد على اليقين ، أن الشعر قد ولد ليخدم ظروف القتال ، بل يبقى في طوقنا الذهاب الى انه ربما ولد نتيجة الإحساس بموسيقى الطبيعة في العصور المشاعية أو الرعوية ، ففي موسيقى القصيدة يثبت الشاعر ويؤكد على ذاته ، لأنها تحمل من العنف ما يكفي لتعبير الشاعر عن عنفه وعنجهيته ، أنها أشبه بإيقاعات طبول الحرب .

ومما يسع المرء يلاحظه دوما كد للذهن وهو أن فروع الشعر الجاهلي قلما تختلف فيها الموسيقى بعضها عن بعض ، إلا إذا اختلفت البحور بطبيعة الحال ، فنحن نجد أن موسيقى الرثاء ، التي ينبغي أن تكون حزينة ، لا تختلف كثيراً عن موسيقى الفخر مثلاً ، وما ذلك الا لأن الرثاء نفسه ، وشعر الخنساء خير نمط على ذلك لا يختلف كثيراً عن الفخر أو المديح . [2]

وقد ارتبط مفهوم الإيقاع عند اغلب الباحثين ارتباطاً أساسياً بالموسيقى في صورتها النغمية بالإيقاع والعمدة بالأساس على قرع السمع . قال الجاحظ : [3]

وللشعراء ألسنة حداد ... على العورات موفية دليلة

ومن عقل الكريم إذا تقاهم ... وداراهم مداراة جميلة

اذا وضعوا مكاويهم عليه ... وان كذبوا ، فليس لهن حيلة

وقال المتنبي : [4]

واسمع من ألفاظه اللغة التي ... يلذ بها سمعي ولو ضمنت شتمي

ونزوع الشاعر إلى هذا الإيقاع المتناغم سابق لوعيه علم العروض والقوافي المدون ، وان جميع الشعر الجيد المستشهد به إنما هو سابق الوضع هذا الكم . [5]

---

(1) كتاب الصناعتين : 132 ، ينظر : العمدة : 266/2 .

(2) مقالات في الشعر الجاهلي : 73 ، 74 .

(3) البيان والتبيين : 159/1 .

(4) العمدة : 122/1.

(5) نقد الشعر : 10 .

وهذا التناغم الذي يقع بين الألفاظ تلقائياً لا يمكن تعليله " ليس ذلك إلا لنسبة وتشاكل يعرض فيه التأليف إلا يعبر عن حقيقته ولا يعلم مكانته ، أنما ذلك مثل ما يقع بين الألحان وهذه النسبة والتشاكل في التأليف مردها إلى ما يصطلح عليه بالانسجام : " وهو أن يأتي الكلام منحدراً كانحدار الماء المنسجم بسهولة سبل ، وعذوبة اللفظ وسلاسة تأليف حتى يكون للجملة وللبيت من الموزون وقع النفوس ، وتأثير في القلوب ما ليس لغيره . [1]

ولعل قدامة في استدراكه بالمعنى على الوزن والقافية في الشعر أراد أن يميزه عن هذه الألحان الصوتية المحضة ، بأن ألحانه دالة على معنى ، فليس أدل على موسيقى الألفاظ في تلاؤمها وانسجامها من صلاحها للغناء والإنشاد ، وقيل : مقود الشعر الغناء به . [2]

قال إبن قتيبة (276هـ) : " ولم يقصر الله العلم والشعر والبلاغة على زمن دون زمن ، ولأخص به قوماً دون قوم ، بل جعل ذلك مشتركاً مقسوماً بين عباده في كل دهر ، وجعل كل قديم حديثاً في عصره ، وكل شرف خارجيه في أوله ... وكل علم محتاج إلى السماع وأحوجه إلى ذلك علم الدين ، ثم الشعر ، لما فيه من الألفاظ العربية ، واللغات المختلفة والكلام الوحشي"[3]

ونرى استنكار الجاحظ واعتراضه على بيتين من الشعر اعجب بهما أبو عمرو الشيباني وهما :

لا تحسبن الموت موت البلى فإنما الموت سؤال الرجال
كلاهما موت ولكن إذا أفظع من ذاك لذل السؤال

يقول الجاحظ " أنا ازعم ان صاحب هذين البيتين لا يقول شعراً أبداً " [4]

هذان البيتان ليس فيهما تنافر في الحروف ، المعنى فيهما يكاد يكون واضحاً وليس هناك خلل في النحو أو الفاظ مستكرهة ، ولا خلل في الموسيقى ، فلماذا رفض الجاحظ حكم الشيباني ؟ ان التعليل المعقول ، هو أن البيتين ابتعدا عن الشعر لا يتمادهما عن لغة الشعر ، إذ ترتبط في مخيلة الجاحظ بشيئين أساسيين هما الغرابة والمجاز ، وهو الذي يقول : " الناس موكولون بتعظيم

---

[1] بديع القرآن : 166 .
[2] نقد الشعر : 211 .
[3] الشعر والشعراء : 27/1 .
[4] الحيوان : 130/3 ، ينظر : العمدة : 137/1 .

الغريب واستطراف البعيد ، وليس لهم في الوجود الراهن وفيما تحت قدرتهم عن الرأي والهوى مثل الذي لهم في الغريب القليل وفي النادر الشاذ " [1]

ولعل النقد العربي الحديث في دراسته لظاهرة الصوت في الشعر ، يركز على الحروف وتلاؤمها وتنافرها أو تكرارها داخل النص ، باعتبار ان الحرف هو الذي يمنح الكلمة جرساً أو جزالة بحسب تعبير النقاد العرب ، كما أن الحرف هو الذي يمنح الكلمة أيضاً ما يسمى بالتنغيم والبر وهو يقع على الحرف لا على الكلمة وفي لغتنا العربية يقع في أخر الكلمة ، وفي بعض اللغات الأوربية يقع في أولها مع ملاحظة أن التنغيم ليس هو الظاهرة الواسعة في شعرنا ، ولا يعول عليه كثيراً هو النبر خاصة في قصائد العمود التي تتوالي ضرباتها الموسيقية برتابة ، وتمد الكلمة في إطار الوزن والقافية دون أن تمنح امتداداً وحرية في الحركة ، ومن الاوصاف وكما أشرنا أن القافية هي الأخرى ظاهرة صوتية وجمالية ليس إلا .

وعلى آية حال فأن الظاهرة الصوتية سواء اتصلت بالحرف أو طريقة استعمال الفعل ، جزء مكون للغة الشعر ، وأن كانت تحدث في النثر أيضاً ، إلا أنها في الشعر تكتب قيمة أخرى عنها في النثر . أن انسجام بعض الحروف وتكرارها داخل النص الشعري ، يثير انتباه المتلقي وعنايته لأن هذا الاستخدام لا يحدث معزولاً عن عناصره الأخرى ، كما يحدث في النثر ، إنما يأتي مكملاً في القصيدة ، مثل الوزن والإيقاع ، ولهذا فأن الكثيرين درسوا الظاهرة الصوتية في ضمن موسيقى الشعر ان استخدام الصوت ، دلالة جمالية ودلالة معنوية ، مختلف باختلاف الشعراء ، واختلاف مواهبهم واطلاعهم الثقافي والمعرفي . [2]

قال كعب بن زهير :

تجلــو عــوارض ذي ظلــم إذا ابتســمت كأنـــــه منهـــــل بـــــالراح معـــــول

فجمع بين الضاد والذال والظاء ، وهي متقاربة متشاكلة . ومن حسن النظم أن يكون الكلام غير مشبج ، والتشبيج : جنس من المعاظلة ومن الناس من يستحسن الشعر مبنياً لبعض على بعض ، يقول ابن رشيق : " وأنا استحسن أن يكون كل بيت قائماً بنفسه لا يحتاج إلى ما قبله والى ما بعده ، وما سوى ذلك ، فهو عندي تقصير ، إلا في مواضع معروفة ، مثل الحكايات

---

[1] البيان والتبيين : 90/1 ، ينظر : الخليل بن احمد الفراهيدي : 186 .

[2] ينظر : اللغة الشعرية في الخطاب النقدي العربي : 200 .

وماشكلها فأن بناء اللفظ على اللفظ أجود ، هنالك من جهة السرد ، ولم استحسن الأول على أن فيه بعداً ولا تنافراً ، ألا أنه إن كان كذلك فهو الذي كرهت من التشبيج " . [1]

إن الكلام المنسجم المنتظم أقل عبثاً على الذاكرة السمعية وأيسر في أعادته وترديده ، وأن تبدو الأصوات نغماً منسجماً ذا فواصل كفواصل الموسيقى ، وتلك هي القدرة على خلق النغم الموسيقي . وعلى هذا لابد لسامع الشعر أن يكثر من مقاطعه بحيث يسمعها موزونة منسجمة وان تكون له تلك الموهبة ليدرك كل ما في الكلام من موسيقى ونغم . [2]

والكلام الموزون ذو النغم الموسيقي يثير فينا انتباهاً محبباً ، وذلك لما فيه من توقع المقاطع خاصة تنسجم مع ما تسمع لتكون منها جميعاً تلك السلسلة المتصلة الحلقات والتي تنتهي بعدد معين من المقاطع بأصوات بعينها نسميها القافية .

تشير الدراسات الصوتية الحديثة اعتماد الموسيقى على الفيولوجيا وعلم الصوت ، ويعتمد الشعر على علم العروض الذي ترجع قوافيه العامة إلى علم الصوت ، يقول باركر Dewitt : " ففي الشعر نجد الألفاظ ذاتها من حيث هي مجرد أصوات ترتبط في إيقاع وانسجام ، Assonance وقافية ونغم ، وفي التصوير والعمارة نجد الأشكال الملونة متكررة ومتقابلة ومتوازنة ومنتظمة في إيقاع ، تعبر عن حالات مبهمة كما هو الشأن في الموسيقى ، وبدون هذه الموسيقى في الأداة لا يكون فن جميل ، مهما كانت أهمية المعاني المتصلة به " [3]

لا زمت الموسيقى الشعر منذ ولادته فكانت له بمثابة الروح للجسد ، هذا ما تعرفنا عليه من خلال هذا الإيضاح الموجز .

---

[1] العمدة : 261/1 ، ينظر : منهاج البلغاء : 123 ، 238 ، موسيقى الشعر : 21 ، 13 ، 9 ، جرس الألفاظ: 238.

[2] الأسس الجمالية : 117 .

[3] نفسه : 117 .

الفصل الثاني:المحسنات الصوتية في كتب البلاغة العربية.

المبحث الأول :التوازن الصوتي وأثره في البلاغة العربية.

المبحث الثاني : المقابلات الصوتية .

المبحث الثالث : الجناس الصوتي .

المبحث الأول : التوازن الصوتي

إن مهمة فن البديع هو تزيين الألفاظ والمعاني بألوان بديعية جميلة وكانت جهود علماء الفصاحة والبلاغة قد إنصبت على اكتشاف أسرار هذا الفن الرائع ، وهذا ما وجدنا في الموازنات الصوتية في التراث البلاغي العربي ، متأرجحة بين النعت اللغوي العام والاصطلاح البلاغي المحدد ، وكانت جهود قدامة بن جعفر (337هـ) سباقة في ذلك عندما أشار بقوله : " وصحة التقسيم بإتفاق المنظوم ، وتلخيص الأوصاف بنفي الخلاف والمبالغة في الوصف بتكرار الوصف وتكافؤ المعاني في المقابلة والتوازي ، وأرداف اللواحق وتميل المعاني " [1] وهذه إشارة إلى التوازن بين تكرار اللفظ وتكافؤ المعنى .

وأورد أبو هلال العسكري (395هـ) في كتابه الصناعتين مصطلح الازدواج عندما ذكر ذلك فقال : " لا يحسن منثور الكلام ولا يخلو حتى يكون مزدوجاً ، ولا تكاد تجد البليغ كلاماً يخلو من الازدواج ، ولو استغنى كلام عن الازدواج لكان القرآن لأنه في نظمه خارج من كلام الخلق ، وقد كثر الازدواج فيه حتى جعل في أوساط الآيات فضلاً عما تزواج في الفواصل مثل قوله تعالى :﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾ [2] وقوله جل ذكره : ﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا﴾ [3] وقال أبو هلال : " وينبغي واحد فيقع التعادل والتوازن كقول بعضهم " أصبر على مر اللقاء ومضض النزال وشدة المصاع "[4] ومما لاشك فيه أن أبا هلال العسكري له جهود معروفة في مجال التوازن الصوتي أشرنا إلى بعض منها من خلال هذه الدراسة ، أما ابن سنان الخفاجي (466هـ) فقد حاول أن يدرس أصوات الألفاظ ويوازن بينها وان يحدد عناصر الجمال الصوتي فيها ، ويبدو أن جهوده الصوتية قد تركزت إلى أن حسن الألفاظ يرجع إلى بعد مقاطعها . [5] لكننا نجد أبن الأثير (537هـ) لا يتفق مع ابن سنان في ذلك ، حين جعل ، حاسة السمع هي الحاكمة في هذا المقام يحسن ما يحسن من الألفاظ وقبح ما يقبح ... فحسن الألفاظ إذن ليس معلوماً من تباعد المخارج وإنما علم قبل العلم بتباعدها . [6] وكأنه كشف

---

[1] جواهر الألفاظ ، القدامة بن جعفر : 3 .

[2] الأنعام : 1 .

[3] النجم : 43 ، 44 .

[4] كتاب الصناعتين : 266 ، 169 .

[5] المصدر نفسه ، 7 .

[6] سر الفصاحة : 90 .

قانون صوتي لجمال اللفظة ، لأن بعد المقاطع أو قربها ليس هو الأساس في قبول اللفظة أو كراهيتها ، ولكن الألفة أو الغرابة والخفة على السمع أو النقل هي الأساس . [1]

وقد مال بعض البلاغيين الى رفع الموازنة الصوتية إلى مستوى الاصطلاح عندما جعلها ابن رشيق القيرواني (456هـ) جنساً وسطاً متفرعاً عن جنس أعلى هو المقابلة ، والموازنة عنده ، تضم جانباً كبيراً من الموازنات الصوتية . [2]

ومهما توسع مفهوم الموازنة الصوتية والتوازن عند البلاغيين العرب فأنه لا يعدو التعادل والتقابل ، وقد أتجه بعض البلاغيين إلى البحث عن مفهوم التوازن الصوتي في مستويات مختلفة صوتية ودلالية ، ونجد هذا الاتجاه ، بارزاً عند نقاد وبلاغيي القرن الخامس الهجري وما بعده ، نذكر منهم ابن رشيق القيرواني وابن سنان الخفاجي وعبد القاهر الجرجاني (471هـ) ومن عاصرهم ، دون أن ننكر وجود بوادر دالة سابقة هذا العصر شكلت الركيزة الاولى للجهد البلاغي ، كما هو الشأن عند قدامة بن جعفر (337هـ) وعند أبي هلال العسكري (395هـ) ومن عاصرهم من علماء اللغة والتفسير أمثال الرماني (386هـ) والخطابي (387هـ) فمع هؤلاء البلاغيين ظهرت نزعة التركيب في هذا المجال ، وتغذت فلسفياً لتصل إلى أقوى صرامة عند حازم القرطاجني

إما إذا نظرنا الى قانون التوازن الصوتي ، فإننا نجد أن هذا القانون يأخذ عدة اسماء عند النقاد العرب ، فأحياناً هو كذلك وأحياناً يطلقون عليه التعادل وفي بعض الحالات يطلق عليه التكافؤ .

وإذا رجعنا إلى قانون التوازن الصوتي ، فهو أن يراعي في الكلمتين الأخيرتين من القرينتين الوزن مع اختلاف الحرف الأخير منهما ، كقوله تعالى : ﴿**وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ**﴾ [3] فأن راعى الوزن في جميع كلمات القرائن أو أكثرها ، وقابل صوتياً الكلمة منها بما يعادلها وزناً .

ومن الموازنات الصوتية قول البحتري :

فقف مسعداً فيهن ان كنت عاذلاً وسر مبعداً عنهن إن كنت عاذلاً

---

[1] المثل السائر : 338/1 ، ينظر البيان والتبيين : 67/1 : العمدة : 257/1 .

[2] العمدة : 257/1 ينظر : الأسس الجمالية : 224 .

[3] الغاشية : 16 .

فالتوازن الصوتي إذن حدث في الصورة الصوتية للكلمات ، حين يتوازن كل لفظ صوتياً مع اللفظ المقابل له في العبارة التالية ، وقراءة البيت الشعري توضح لنا هذا الموقف ، فقد وردت عدة موازنات صوتية ، (فقف) توازن صوتياً مع (سر) ، و(مسعداً) مع (مبعداً) ، و(عاذلاً) تتوازن صوتياً مع (عادلاً) ، وبعبارة أخرى ، فأن مجموعة الأصوات وترتيبها في الشطر الأول تتمثل في الشطر الثاني ، فإذا اعتبرنا كل وحدة صوتية ، فأن هذه الوحدة تكررت في الشطر الثاني بعينها موازية الأخرى .

يورد أبو هلال العسكري (395هـ) قول بعض الكتاب : " إذا كنت لا تؤتي من نقض كرم ، وكنت لا أوتي من ضعف سبب ، فكيف أخاف منك خيبة أمل ... ثم يقول : " فهذا كلام جيد التوازن ، ولو كان يدل (ضعف سبب) كلمة أخرها (ميم) ليكون مضاهياً لقوله (نقص كرم) لكان أجود ... " [1]

تناقل علماء البلاغة العرب التوازن الصوتي في كتبهم ، والتفت القدامى إلى هذه الظاهرة الصوتية ، وهم يعللون ميلهم إلى مثل هذا القول من الفن القولي العربي ، واتسم هذا الفن شعراً ونثراً بشكل لافت النظر ، والتوازن الصوتي كما اسلفنا ، هو تعادل فقرات الكلام وجملة كما في النثر المزدوج أو شطر البيت الواحد من حيث الإيقاع والوزن .

إما التوازن الصوتي فهو أن يستمر هذا التوازن في النص كله ، كالذي نجده في القصيدة الشعرية ، حيث يتكرر إيقاع كل شطر منها في كل بيت ، ويستمر حتى نهايتها ، بحيث يكون الجناح الايمن من القصيدة الشعرية يوازي جناحها الايسر من حيث الوزن والقافية وعلى هذا الأساس تحسس النقاد والبلاغيون العرب ، أن التوازن الصوتي الذي يعتمد على توازن أجزاء البيت الواحد صوتياً ، يضفي على الكلام الرونق الحسن : " وإنما يحسن إذا اتفق له في البيت موضع يليق به ، فأنه ليس في كل موضع يحسن ولا هو أيضاً إذا تواتر واتصل في الابيات كلها بمجهود " [2]

استحدث الركب عن أشياعهم خيراً ام راجع القلب من إطرابه طرب [3]

يقول ابن رشيق (456هـ) في تعليقه على بيت ذي الرمة : " استحدث الركب ، موازن لقوله ، أم راجع القلب ، وقوله عن أشياعهم خيراً ، موازن لقوله ، من إطرابه طرب ، وكذلك ، الركب

---

[1] كتاب الصناعتين : 202 ، ينظر : الأسس الجمالية : 225 ، 226 .

[2] نقد الشعر : 46 ، 47 .

[3] ديوانه : 24 ، ينظر : العمدة : 220/2 .

موازن للقلب ، و (عن) موازن صوتياً لـ (من) والباحث يرى أن التوازن الصوتي يحدث في اللفظة بما يوازي حروفها عندما ننطق بها ، فنحس في هذه اللفظة بمجموع حروفها تكون موازية لما يقابلها من أصوات في الكفة الأخرى .

أود أن أشير هنا إلى أن ابن أبي الحديد (656هـ) جاء بفصل بلاغي في الموازنة الصوتية والسجع ، عندما تحدث عن الموازنة الكائنة في قول الإمام على بن أبي طالب (رضي الله عنه) عندما يقول : " الحمد لله غير مقنوط من رحمته ، ولا مخلو من نعمته ، ولا ميؤوس من مغفرته ، ولا مستنكف عن عبادته ، الذي لا تبرح منه رحمة ، ولا تفقد له نعمة ... " [1] فـ (غير مقنوط) فأنه وازنه صوتياً في الفقرة الثانية بقوله (ولا مخلو) وكلاهما على وزن (مفعول) وكذلك الحال في (ميؤوس) ، ثم وازن عليه السلام صوتياً بين (لا تبرح) وقوله (لا تفقد) وبين (رحمة) و (نعمة) ، فأعطت هذه الموازنات الصوتية للكلام من الطلاوة والصنعة مالا تجده عليه لو قال : " الحمد لله غير مخلو من نعمته ، ولا مبعد من رحمته ، لأن (مبعد) بوزن (مفعل) وهو غير مطابق صوتياً ولا مماثل لمفعول بل هو بناء آخر .

والحق أن مسألتي التوازن والتساوي اللذين اشترطها النقاد والبلاغيون العرب لا تتعدى إلى كونهما قضيتين صوتيتين ، استمت أصولهما مما يحدث من نشؤ واهتزاز داخل النفس إذ تتوازى أصوات الألفاظ وتتساوى ضمن وزن واحد ، وتسجيع منظم ، ومن هنا تستطيع أن تؤشر البدايات الأولى للدرس الصوتي البلاغي حينما تسلل إلى هذه الدراسات التراثية وتعمق فيها قدامة إبن جعفر (337هـ)واشترط التساوي بين أجزائها كما أسلفنا ذلك ، ومن بعده ذهب ابن الأثير (637هـ)وبعد حقبة زمنية طويلة ،عندما أشار إلى قوله صلى الله عليه وسلم:"ارجعن مأزورات غير مأجورات"يقول ابن الأثير: " إنمّا أراد موزورات ،من الوزر، فقال : مأزورات مكان مأجورات طلباً للتوازن والسجع "[2] والتوازن الصوتي حالة طبيعية في لغتنا العربية ومن لغتنا العربية وفن بلاغي جميل ، وبلا شك فأن شيوع هذه الظاهرة في العربية ،يؤكد على عنايتها بالموسيقى والانسجام الصوتي الذي يصفي الرونق الخاص بها ،لان لغتنا العربية ذات نغمة موسيقية من طراز خاص.

---

[1] ينظر : شرح نهج البلاغة – لابن ابي الحديد : 152/3 ، 153 .

[2]ينظر:نقد الشعر:141،جواهر الألفاظ : 7 ، كتاب الصناعتين : 202

المثل السائر:343/1،الطراز:138/2، النقد اللغوي عند العرب:95،الخيل بن احمد الفراهيدي:189

السجـع:

نقول : لعلنا لا نغلوا إذا قلنا إن السجع جزء أساسي في خلق ظاهرة التوازن الصوتي ، وقد بذل البلاغيون العرب جهوداً صحيحة لمعرفة فن السمع ،ويكاد الباحثون يجمعون على نزوع الفطرة إلى هذا الإيقاع الصوتي قد برز في النثر قبل الشعر ، ولعلهم أسسوا هذا القول إلى ما ذهب إليه ابن رشيق القيرواني (456هـ) في قوله : " وكان الكلام منثوراً فأحتاجت العرب إلى الغناء بمكارم أخلاقها وطيب أعرافها ،وذكر أيامها وأوطانها النازحة وفرسانها الأنجاد ، وسماؤها الأجواد ، لتهز أنفسها إلى الكرم ،وتدل أبناءها على حسن الشيم فتوهوا موازين الكلام ، فلما تم وزنه سموه شعراً"[1] وقد ورد السمع في اللغة:"سمع .يسمع سجعاً،استوى واستقام وأشبه بعضه بعضاً... والسجع له فواصل كفواصل الشعر من غير وزن وصاحبه سجاعة وهو من الاستواء والاستقامة ،وحكي أيضاً سجع الكلام فهو مسجوع ،وسجع بالشيء نطق به على هذه الهيأة".[2]

ولم يكن السجع وليد حقبة زمنية معينة ،وما روى من نثر الجاهلية كان الغالب عليه السجع ،وليس ادل على ذلك من أمثال وخطب ، فضلاً عن شاهد الجاهلية الذي تردده تلك المصادر عما يسمى بسجع الكهان ،وليس هذه الغلبة للسجع إلا لان العربي كان مفتوحاً بالوزن شديد العناية بالتنظيم في كلامه.[3]

وعلى هذا ارتبط هذا اللون من الفنون التعبيرية ،بسجع الحمام ورددوا قول الشاعر :

طربـــت فأبكتـــك الحمـــام الســـواجع تميـــل بهـــا ضـــموا غصـــون نوائـــع

وقال أخر:

والعـــيس تســـجع بـــالحنين كأنهـــا بـــين المنـــازل حـــين تســـجع مـــأتم

وعلى ما في صوت السجع من معان يقترب فيها اللغويون من القصد كقولهم ،انه مشق من الساجع ،الوجه المعتدل ،الحسن الخلقة او المستقيم الذي لا يميل على القصد لاستقامته في الكلام واستواء أوزانه ،فقد قرر بعض الباحثين ،ان ان سبب التسمية مرده إلى ما في الكلام المسجوع من حلاوة التنغيم وجمال الموسيقى ،فأشبه سجع الحمام ،وترجيع النباق في ارتفاع النفس

---

(1) العمدة:20/1

(2) لسان العرب ،مادة(سجع) 101/2

(3) فن الأسجاع :12/1 ،بنظر:النثر الفني في القرن الرابع:65/1

إليه وانعطافها نحوه وتأثرها به ،فالجامع بين السجعتين حسن الإيقاع.[1] وهذا الإيقاع هو سمة السجع الغالبة وجوهره الفني الذي يجعل إليه النفوس أميل والأذن لسماعه انشط.

قال الجاحظ (255هـ) : " قيل لعبد الصمد بن عيسى الرقاشي لم تؤثر السجع على المنثور ،وتلزم نفسك القوافي وإقامة الوزن ؟.قال : " إنّ كلامي لو كنت لا أمل الإسماع الشاهد لعل خلافي عليك ،ولكنني اريد الغائب الحاضر ،والراهق والغابر، فالحفظ إليه أسرع والأذن لسماعه انشط ،وهو أحق بالتقييد وبقلة ألتفت ،وما تكلمت به العرب من جيد المنثور اكثر مما تكلمت به من جيد الموزون فلم يحفظ من المنثور عشرة ولا ضاع من الموزون عشره"[2]

ولما كان السجع من التأثيرات بتواتر إيقاع فواصله وتناغمها فقد كانت خطب الجاهليين مسجوعة ومتوازنة .

والجاحظ يورد خطبة قس بن ساعدة الأيادي شاهداً على ذلك قال قس:" أيها الناس اجتمعوا واسمعوا وعوا ،من عاش مات ،ومن مات فات ،وكل ما هو آت آت ... ليل داج ونهار ساج وسماء ذات أبراج ، مالي أرى الناس يمنون ولا يرجعون ،ارضوا فأقاموا جسوا فأناموا"[3] وهذه الفواصل المسجوعة التي وردت في الخطبة متوازنة صوتياً ومنسجمة مع سياق الخطبة في جوها النفسي.

ويدافع الجاحظ عن أسلوب السجع في الكلام وأثره الصوتي ،ويرى إنما كره النبي (صلى الله عليه وسلم) فن السجع وما كان ليتكلفه الكهنة ،وقد يريدون به أبطال حق ، وعلى هذا قال : " قالوا : فقد قبل للذي قال : يا رسول الله ، أرأيت من لا شرب ولا أكل ولا صاح واستهل أليس مثل ذلك بطل* ، فقال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) (سجع كسجع كهان) [4] قال الرسول صلى الله عليه وسلم ، كره السجع في الكلام والدعاء لمشاكلته كلام الكهنة وسجعهم فيما يتكهنونه . [5]

---

[1] جرس الألفاظ : 225

[2] البيان والتبيين:1/287 ، بطل : أي هدر دمه.

[3] نفسه :1/309،308

* بطل : أي هدر دمه .

[4] البيان والتبيين : 1/287 .

[5] لسان العرب : مادة (سجع) 2/102 .

فأما فواصل الكلام المنظوم الذي لا يشاكل المسجع فهو مباح في الخطب والرسائل .[1] وفي تعقيب لأبي هلال العسكري (395هـ) على فن السجع قال : وإذا سلم من التكلف وبريء من التعسف لم يكن في جميع صنوف الكلام احسن منه "

ومما يحدثنا أبو هلال العسكري به ، أن الرسول محمداً (صلى الله عليه وسلم) ربما غير الكلمة عن وجهها للموازنة بين أصوات الألفاظ واتباع الكلمة أخواتها كقوله عليه افضل السلام : " أعيذه من الهامة والسامة وكل عين لأمه " [2] وإنما أراد (ملة) وقوله صلى الله عليه وسلم : " ارجعن مأزورات غير مأجورات ، وإنما أراد موزورات من الوزر فقال مأزورات مكان مأجورات قاصداً التوازن وصحة السجع "[3] وهذه الألفاظ المسجوعة تأتي منسجمة مع التوازن الصوتي .

ويحدثنا إبن سنان الخفاجي (466هـ) عن مثال آخر لقول الرسول محمد صلى الله عليه وسلم ، " خير المال سكة مأبورة ، مهمرة مأمورة "[4] فقال : مأمورة لأجل المناسبة والمستعمل مؤمرة ، أي كثيرة النتاج ، وعلى هذا قال ابن سنان : " وكما ان الشعر يحسن بتساوي قوافيه ، كذلك النثر محسن بتماثل الحروف في فصوله والمذهب الصحيح ان السجع محمود اذا وقع سهلاً متيسراً بلا كلفة ولا مشقة " [5] .

والتوازن الصوتي في الأسجاع تتردد نغماته في تكرار الألفاظ عند نهاية كل فاصلة أو صوت حرف . وعلى هذا الأساس فقد شدد أبو هلال العسكري (395هـ) في الحرص على الازدواج ، وهو فن ظاهر من لا يلتزمون السجع من أقطاب القرن الثاني والثالث الهجريين ، وجهود أبي هلال العسكري في هذا النوع من الفن البلاغي عميقة إذ يقول : " وينبغي أيضاً ان تكون الفواصل على زنه واحدة ، وأن لم يكن ان تكون على حرف واحد فيقع التعادل والتوازن كقول بعضهم : " اصبر على مر اللقاء ومضض النزال ، وشدة المصاع ، ومدامة المراس" فلو قال : على حر الحرب ومضض المنازلة ، لبطل رونق التوازن ، وذهب التعادل ،[6] ومن خلال هذه الكلمات المسجوعة المتوازنة صوتياً ، تظهر ميزة اللفظة في حلتها الجميلة .

---

[1] كتاب الصناعتين : 267 .

[2] كتاب الصناعتين : 267 ، ينظر : المثل السائر : 273/1 .

[3] المصدر نفسه : 269 .

[4] سر الفصاحة : 164 .

[5] نفسه :

[6] كتاب الصناعتين : 270 ، ينظر : النثر الفني في القرن الرابع : 93 ، جرس الألفاظ : 230 .

وأظهر إبن الأثير (637هـ) قيمة السجع وبما فيه من أصوات متوازنة وجميلة في الكلام ودافع عنه ، ولا يرى وجها لذمه إلا العجز عن الإتيان به ولا ما كان متكلفاً كسجع الكهان قال : "وإلا كان مذموماً لما ورد في القرآن الكريم ، فأنه قد أتى منه بالكثير ، حتى أنه ليؤتي بالسورة جميعاً مسجوعة كسورة القمر وغيرها " [1] فأظن أن إبن الأثير لم يفرق بين الفاصلة والسجع ، وقد خالف بذلك قول الرماني (386هـ) الذي أورده في باب الفواصل عندما قال : " الفواصل حروف متشاكله في المقطع توجب حسن إفهام المعاني والفواصل بلاغة والأسجاع عيب ، وذلك أن الفواصل تابعة للمعاني ، وأما الأسجاع فالمعاني تابعة لها ، وهو قلب ما توجبه المحكمة في الدلالة . إذا كان الغرض الذي هو حكمة إنما هو الإبانة عن المعاني التي الحاجة إليها ماسة ، فإذا كانت المشاكلة وصلة إليه بلاغة وإذا كانت المشاكلة على خلاف ذلك فهو عيب ولكنه ، لأنه تكلف من غير الوجه الذي توجبه الحكمة ، ومثله مثل من رصع تاجاً ثم البسه زنجياً ساقطاً ، أو نظم قلادة در ثم ألبسها كلباً وقبح ذلك وعيبه بين لمن له أدني فهم ، فمن ذلك ما يحكى عن بعض الكهان : (والأرض والسماء ، والغراب الواقعة بنقعاء ، لقد نفر المجد الى العشراء) [2] وفواصل القرآن كلها بلاغة وحكمة ، لأنها طريق إلى إفهام المعاني التي يحتاج إليها في أحسن صورة يدل بها عليها ، وإنما أخذ المسجع في الكلام من سجع الحمامة وذلك أنه ليس فيه إلا الأصوات المتشاكلة ، كما ليس في سجع الحمامة إلا الأصوات المتشاكلة ، إذا كان المعنى لما تكلف من غير وجه الحاجة إليه والفائدة فيه لم يعتد به ، فصار بمنزلة ما ليس فيه إلا الأصوات المتشاكلة "[3]

وطبيعة صوت السجع الذي يريده إبن الأثير : " ينبغي أن تكون الألفاظ المسجوعة حلوة حارة طنانة رنانة لا غثة ولا باردة ، قال : واعني بقولي : غثة باردة أن صاحبها يصرف نظرة إلى السجع نفسه من غير نظر إلى مفردات الألفاظ المسجوعة ، وما يشترط لها من الحسن ، إلى تركيبها ، وما يشترط له من الحسن وهو الذي يأتي به من الألفاظ المسجوعة كمن ينقش ثوباً من الكرسف ، أو ينظم عقداً من الخزف الملون ، وهذا مقام نزل عنه الأقدام ولا يستطيعه إلا الواحد من أرباب هذا الفن بعد الواحد ومن اجل ذلك أربابه قليلاً "[4] وعلى هذا يرى إبن الأثير أن السجع سرٌّ خلاصته في اختيار مفردات الألفاظ واختيار التراكيب بحيث تكون (حارة طنانة رنانة) وهو من

---

[1] المثل السائر : 271/1 .

[2] ثلاث رسائل في إعجاز القرآن : 96 .

[3] المصدر نفسه : 97 .

[4] المثل السائر : 275/1 / 276 .

هذا أن مراد إبن الأثير في السجع ، هو موسيقى الألفاظ المسجوعة ، عندما قال : " فإن عرى الكلام المسجوعة منه فلا يعتمد به أصلاً " [1]

وخلاصة ما يريد أن يتواصل إليه إبن الأثير : " أن الأصل في السجع إنما هو الاعتدال في مقاطع الكلام ، والاعتدال مطلوب في جميع الأشياء ، والنفس تميل إليه بالطبع "[2]

وموسيقى السجع كائنة في إيقاع اللفظ ذاته ، ولا تخضع لوزن عروضي وغير محصورة في عدد معين من الألفاظ وقد يقع السجع في الشعر فيكون روى والأسجاع روى القافية كقول أبي تمام :

حـــر الاهـــاب وســـجة بـــر الايـــا ب كريمـــة ، محـــض النصـــاب هيتـــه [3]

فأن أهمية الألفاظ المسجوعة في هذا البيت تظهر لنا من خلال ترابط أصواتها المسجوعة . وعلى الصعيد نفسه قال ابن أبي الإصبع (654هـ) : " والأجزاء المسجعة من هذا البيت التي بعض اجزائه غير متزنة زنة عروضية ، وإنما تماثلت في زنة بعضها البعض واتى تسجيعها على روي بيتها " [4] . ومن شروط إظهار الإيقاع في روي الألفاظ المسجعة أن تكون ساكنة الأعجاز موقوفاً عليها ، لأن الفرض أن يجانس بين القرائن ، ويزاوج بينها ولا يتم ذلك الا بالوقوف ، أي ان تباين الحركة في الألفاظ بشكل عثاراً في الإيقاع الصوتي فيختل النغم الذي يريد الساجع إظهاره ، ولذلك اختاروا الوقوف . ومن هنا نستطيع ان نتوصل ان السجع صورة نغمية يراد بها جعل الكلام بصيغته متوافقة ، كثيرة من الاتباع والمزاوجة والتوازن بين أصوات الألفاظ ، يراد بها الإيقاع المحض بين الأصوات المسجوعة والكلام المفهوم .

ويشير إبن سنان (466هـ) : أن من الكتاب المحدثين من كان يترك السجع وتجنبه ، منهم أبن العميد فكان يستعمله مرة ويتركه مرة ويرفضه أخرى بحسب السهولة والتمييز ، فأما عبد الحميد وعبد الله بن المقفع وجعفر بن يحيى ... وأبو عثمان الجاحظ وأشباههم ، فأن السجع فيما وقفت عليه من كلامهم قليل ، ولكنهم لا يكاذبون يخلون بالمناسبة بين الألفاظ في الفصول والمقاطع . [5]

---

[1] نفسه : 278/1 .

[2] نفسه : 275/1 ، ينظر : كتاب الصناعتين : 39 .

[3] ديوانه : 178 .

[4] تحرير التحبير : 300 ، ينظر : جرس الألفاظ : 231 .

[5] سر الفصاحة : 167 .

وان العرب كانوا يعتنون بالسجع إلى الحد الذي لا يرون معه ، بأساً أن يتمموا بنيته بألفاظ لا علاقة لها بالمعنى ، وهذا ما اصطلح عليه المحدثون بالقيم الموسيقية في السجع . [1] وما أبدعه علماء البلاغة العربية في فن الأسجاع سيبقى شاهداً على جهودهم في هذا المضمار .

ومن خلال هذه الخطاطة يتوضح لنا أكثر علاقة التوازن بالسجع .

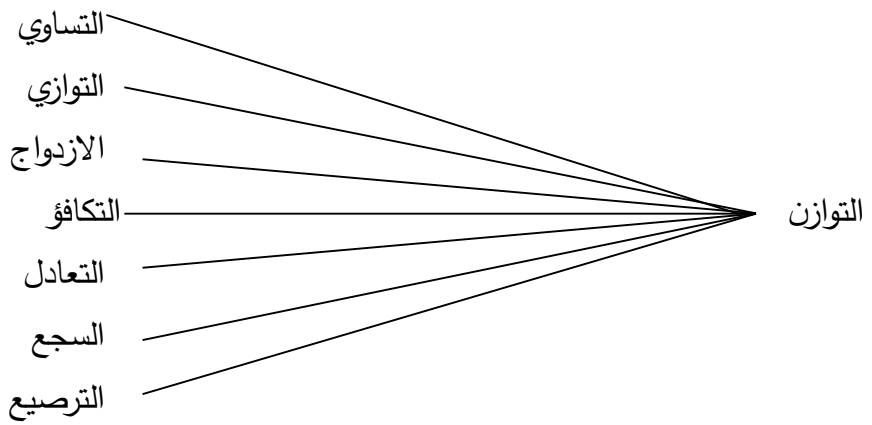

وقد تتساوى الأجزاء وتتوازن صوتياً ولكنها لا تتوازى فلا يكون كل جزء في الوحدة بازاء ما يساويه ويوازيه ، وفي هذا لا يمكن أن يحدث توازن عام وإنما وجدنا أن هناك تشابه وتداخل في هذه المصطلحات البديعية .

الترصيع :

الترصيع هو فن من فنون البديع ، وهو مأخوذ من ترصيع المعقد ، وذاك أن يكون في أحد جانبي العقد من اللآلئ مثل ما في الجانب الأخر ، والترصيع كما ورد في اللغة التركيب ، يقال : تاج مرصع بالجوهر وسيف مرصع أي محلى بالرصائع ، ورصع العقد بالجوهر نظمه فيه وضم بعضه إلى بعض . [2]

وفي هذا الخصوص نجد أن قدامة بن جعفر (377هـ) كان سباقاً في ذلك عندما تحدث عن الترصيع في كتابه نقد الشعر عندما أشار بقوله : " ومن نعوت الوزن الترصيع وهو أن يتوخى فيه تصيير مقاطع الأجزاء في البيت على سجع او شبيه به او من حين واحد في التصريف كما يوجد

---

[1] الاتباع والمزاوجة : 28 .

[2] ينظر / لسان العرب : مادة (رصع) : 174/1 .

ذلك في أشعار كثير من القدماء المجيدين من الفحول وغيرهم ، وفي أشعار المحدثين المحسنين فيما جاء في أشعار القدماء " [1]

قال أمرؤ القيس :

مكـــر مفـــر مقبـــل مـــدبر معـــاً كتـــيس ظبـــاء الحلـــب العـــدوان [2]

وقف قدامه بن جعفر عند بيت أمريء القيس قائلاً : " فأتى باللفظتين الأوليين مجموعتين في تصريف واحد وبالتاليتين لهما شبيهين لها في التصريف ، وربما كان السجع ليس في لفظة لفظه ، ولكن في لفظتين لفظتين ، وبالوزن نفسه " [3]

ويبقى إبن الأثير (637هـ) في الإطار نفسه عندما يتحدث عن الترصيع فيقول : " وهو مأخوذ من ترصيع العقد ، وذلك أن يكون في أحد جانبي العقد اللآلئ مثل ما في الجانب الآخر ، وكذلك نجعل هذا في الألفاظ المنثورة أو المنظومة من خلال سباق الكلام .

وفيما تكون هذه الظاهرة الصوتية مقياساً جمالياً وجدنا : " أكثر الشعراء المصيبين من القدماء والمحدثين قد غزا هذا المغزى ورموا هذا المرمى " [4]

ومن هنا تحسس علماء البلاغة والنقد جمال اللفظة الصوتي حال قلتها أو كثرتها " وإنما يحسن إذا اتفق له في البيت موضع يليق به ، فأنه ليس في كل موضع يحسن ، ولا على كل حال يصلح ، ولا هو أيضاً اذا تواتر واتصل في الأبيات كلها بمجرد ، فأن ذلك إذا كان دله على تعمل وأبان عن تكلف " [5] هكذا يرى قدامة الترصيع .

ويذكر لنا قدامة ، أن من الشعراء القدماء والمحدثين من قد نظم شعره كله أو والى بين أبيات كثيرة منه .[6] وحين يذكر عبارة " والى بين أبيات كثيرة منه " فإنه يشير إشارة إشارة واضحة إلى مكانه التنويع الصوتي الداخلي الذي يطرب السمع ويزيد الفهم ، وهذا في حقيقته جهد صوتي مبكر عند علماء العرب .

وحين يستمر هذا الناقد البغدادي في دراسة هذه الظاهرة الصوتية يقف عند ابيات لأبي صخر الهذلي يقول فيها :

---

[1] نقد الشعر : 39 .

[2] ديوانه : 78 .

[3] نقد الشعر : 39 .

[4] المثل السائر : 361/1 .

[5] نقد الشعر : 46 .

[6] نقد الشعر : 46 ، 47 .

وتلـــــك هيكلـــــة خـــــود مبتلـــــة ضـــواء رعبلـــة فـــي منصـــب ســـنم [1]

عـــــذب مقبلهـــــا جـــــدل مخلخلهـــــا كالـــــدعص اســـــفلها محضـــــورة القـــــدم

ســـــود ذوائبهـــــا بـــــيض ترائبهـــــا محـــــض خرائبهـــا صـــنعت علـــى الكـــرم

عيـــــل مقيـــــدها حـــــال مقلـــــدها بـــــض مجردهـــــا لغـــــاء فـــــي عمـــــم

ســـــمح خلائفهـــــا درم مرافقهـــــا يـــــروى معانقهـــــا فـــــي بـــــارد شـــــمم

خـــــالط طعـــــم ثناياهـــــا وريقتهـــــا إذا يكـــــون تـــــوالي الـــــنجم كـــــالنظم

فالشاعر " أتى من ذلك بما يكاد بحودته أن يقال فيه إنه غير متكلف " [2] وحين يريد قدامة أن يعلل هذا المسعى ويذهب إلى أنه من قبيل " المقربة بين الكلام بما يشبه بعضه بعضاً " [3] .

ويقيناً أن الترصيع ظاهرة صوتية تعتمد قانوني التساوي والتوازي ، وهذا ما تم ذكره في بداية هذا الفصل .

فأما قول من ذهب إلى أن في كتاب الله شيئاً ومثله بقوله تعالى : ﴿**إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ * وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ**﴾[4] فليس الأمر كما وقع له ، فأن لفظة (لفي) قد وردت في الفقرتين معاً ، وهذا يخالف شروط الترصيع الذي شرطناه ، لكنه قريب منه ، وقد جيء في الكلام المنثور ، إني عثرت عليه في شعر المحدثين ، ولكنه قليل جداً ، فمن ذلك قول بعضهم : [5]

مكـــــارم أوليتهـــــا متبرعـــــاً وجـــــرائم الغبتهـــــا متورعـــــاً

ف (مكارم) بازاء (جرائم) و (أوليتها) بازاء (الغبتها) و (متبرعاً) بازاء (متورعاً) مما جاء هذا النوع منثوراً كقول الحريري في مقاماته : " فهو يطبع الأسجاع بجواهر لفظة ، ويقرع الأسماع بزواجر وعظه " فأنه جعل ألفاظ الفصل الأول مساوية لألفاظ الفصل الثاني وزناً وقافية.[6] وبما ان الألفاظ هي أصوات ، فأن هذه الأصوات تكون متساوية بين صدر البيت وعجزه وكذلك في الكلام المنثور .

---

[1] ديوانه : 51/2 .

[2] نقد الشعر : 50 .

[3] نفسه : الصفحة نفسها .

[4] الانفطار : 13 ، 14 .

[5] المثل السائر : 361/1 ، 363 .

[6] نفسه :

ونقل إبن رشيق (456هـ) قول قدامة بن جعفر عن الترصيع فقال : " وقد سماه قدامة التجميع ، كأنه من الجمع بين رويّين وقافيتين ، ورأيت من يقول : التخميع (بالخاء) واشتقاق التصريع من مصراعي الباب ، ولذلك قيل لنصف البيت (مصراع) كأنه باب القصيدة ومدخلها ، والتصريع يقع فيه من الإقواء والأكفاء والسناد والتضمين ما يقع في القافية ومن الإقواء ما انشده الزجاج . [1]

مـــا بـــال عينـــك منهـــا المـــاء مهـــراق ســـــحاً فـــــلا غـــــارب منهـــــا ولا راقـــــي

ومن الأكفاء قول حسان وانشده الجاحظ .

ولســـــت بخيـــــر مـــــن أبيـــــك وخالكـــــا ولســـــت بخيـــــر مـــــن معاظلـــــة الكـــــب

إن التعامل مع اللغة في أسلوب الترصيع لا يتم على أساس التجربة وطبيعة المعنى المراد تقديمه بقدر ما يتم على أساس الحاجة إلى التلوين الصوتي ، أو القيم الموسيقية التي يرغب المنشئ في تحقيها لكلامه . [2]

لقد دفع البحث في هذا المجال الذي يمس جوهر الجمال الصوتي في القصيدة العربية إلى من يذهب : " ان الترصيع أن يكون حشو البيت مسجوعاً " [3] هذا من جهة أما من جهة الحسن والترصيع ، وهو أن تكون أصوات الألفاظ مستوية الأوزان متفقة الأعجاز ومتقاربتها كقوله تعالى : ﴿**إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ**﴾ [4] واصل الحسن في جميع ذلك أن تكون الألفاظ توابع للمعاني ، لا ان تكون المعاني لها توابع ... مثل كون الحروف منقوطة أو غير منقوطة ، أو البعض منها منقوطاً والبعض غير منقوط بالسورة) [5] ويتأتى ذلك من خلال التناغم الصوتي المنسجم مع سياق الألفاظ .

وقد سيق وأن كانت جهود ابن سنان الخفاجي (466هـ) الصوتية بينة في هذا المضمار عندما تناول موضوع الترصيع وجعله جزءاً من القافية عندما قال : " وأما التصريع فيجرى مجرى القافية وليس الفرق بينهما إلا أنه في آخر النصف الأول من البيت والقافية في آخر النصف الثاني

---

[1] العمدة : 173/1 ، 174 ، 215 .

[2] المثل السائر : 261/1 ، 264 ، ينظر : النقد اللغوي عند العرب : 297 .

[3] كتاب الناعتين : 390 .

[4] الغاشية : 25 ، 26 .

[5] مفتاح العلوم : 432 ، ينظر : المثل السائر : 338/1 .

منه ، وقد استعمله المتقدمون والمحدثون في أول القصيدة ، وربما استعملوه في أثنائها ، وممن كان يلج به من المتقدمين أمرؤ القيس فأنه صرع في أول معلقته . [1]

قفانبك من ذكرى حبيب ومنزل بسقط اللوى بين الدخول فحومل [2]

ثم قال من بعد :

إلا أيها الليل الطويل ألا انجلي بصبح وما إلا صباح منك بأمثل

أفاطم مهلاً بعض هذا التدلل وان كنت قد أزمعت صرمي فأجملي

قال ابن سنان : " التصريع بحسن في أول القصيدة ليميز بين الابتداء وغيره ويفهم قبل تمام البيت روي القصيدة وقافيتها ، فأما إذا تكرر التصريع في القصيدة فلست اراه مختاراً ، وهو عندي يدري مجرى تكرر الترصيع والتجنيس والطباق وغير ذلك ... فأن قال لنا قائل : كيف يكون الترصيع وغيره من الأصناف التي اشترتم اليها حسناً اذا قل وان كثر لم يكن حسناً قيل له : هذا غير مستنكر ولا مستطرف ، وله أشباه كثيرة ، فأن الخال يحسن في بعض الرجوه ، ولو كان في ذلك الوجه عدة خيلان لكان قبيحاً ، ويكون في بعض النقوش يشير من سواد أو حمرة او غيرها من الألوان ، فيحسن ذلك المزاج والنقش بذلك القدر من اللون ، فات زاد لم يكن حسناً ، وتستحسن غرة الفرس وهي قدر مخصوص ، فأن كان وجهه كله ابيض او زاد ذلك القدر من البياض لم يحسن " [3] وهذا كله من المحسنات البديعية .

وقال ابن سنان : ومن التناسب أيضاً حمل اللفظ على اللفظ في الترتيب ليكون ما يرجع إلى المقدم مقدماً والى المؤخر مؤخراً ، ومثال ذلك قول الشريف الرضي :

قلبي وطرفي منك هذا في حمى قيظ وهذا في رياض ربيع [4]

ومن خلال الأمثلة والشواهد التي ذكرها ابن سنان ، نتوصل إلى انه كان محللاً وناقداً ومعللاً في الوقت نفسه ، وموازناً بين هذا القول وتلك اللفظة لما فيها من انسجام صوتي عندما تتقدم او تتكرر في الشعر او النثر وقد حاول ابن سنان ان يدرس أصوات الألفاظ وان

---

[1] سر الفصاحة : 181 .

[2] ديوانه : 29 ، 26 ، ينظر : شرح المعلقات السبع للمزوزني : 7 .

[3] سر الفصاحة : 181 .

[4] نفسه : 182 .

يحدد عناصر الجمال الصوتي فيها ، ويبدو أنه انتهى إلى أن حسن الألفاظ يرجع إلى بعد مقاطعها . ان النقاد والبلاغيين العرب قد بذلوا جهوداً كبيرة في الكشف عن القوانين التي تتمثل في الفن القولي ، وقد أجملها قدامة حين قال : " واحسن البلاغة الترصيع والسجع واتساق البناء واعتدال الوزن واشتقاق لفظ من لفظ ، وعكس ما نظم من بناء وتلخيص العبارة بألفاظ مستعارة وإيراد الأقسام موفورة بالتمام ، وتصحيح المقابلة بمعان متعادلة ، وصحة التقسيم باتفاق المنظوم ، وتلخيص الأوصاف بنفسي الخلاف ، والمبالغة في الوصف بتكرير الوصف وتكافؤ المعاني في المقابلة والتوازي وأرداف اللواحق وتمثيل المعاني "

المبحث الثاني : المقابلة الصوتية :

تحدثنا في المبحث السابق عن الموازنة الصوتية التي تتداخل في بعض الاحيان مع السجع والترصيع وبعض المصطلحات البديعية الأخرى وتتداخل المقابلة مع هذه المصطلحات في الشعر والنثر ، كتقابل الألفاظ مع بعضها ، وقد أشار ابن جني (392هـ)

إلى ذلك بقوله : " فأما مقابلة الألفاظ بما يشكل أصواتها من الأحداث فباب عظيم واسع ، ونهج متلئب عند عارفيه مأموم ، وذلك أنهم كثيراً ما يجعلون أصوات الحروف على سمة الأحداث المعبر عنها فيعدلونها بها ويحتذونها عليها وذلك اكثر ما تقدره حذواً لمسموع الأصوات على محسوس الأحداث ومن ذلك قولهم : الفضح للماء والنضح أقوى من النفخ ، قال تعالى : ﴿**فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ**﴾ [1] فجعلوا (الحاء) لرقتها للماء الضعيف و (الخاء) لغلظتها لما هو أقوى منه " [2] وفي حديث قدامة عن المقابلة ، وهي كما هو معروف تؤدي مفهوم التكافؤ ، ويورد هذا المثال : " هل الرأي والنصح لا يساويهم ذوو الافن والغش ، وليس من جمع إلى الكفاية الأمانة كمن جمع إلى العجز الخيانة ... ثم يقول : " وإذا توالت هذه المقابلات وجدت في غاية المعادلة ، لأنه جعل بازاء الرأي الافن ، وبازاء النصح الغش وفي مقابلة الكفاية العجز وفي مقابلة الأمانة الخيانة " [3] فهذه المقابلات الصوتية متعادلة او متكافئة أو متوازية .

وعلى هذا الأساس قال أبو هلال العسكري (395هـ) : " والمقابلة أيراد الكلام ، ثم مقابلته في المعنى أو اللفظ على جهة الموافقة او المخالفة ، فأما ما كان منها في المعنى فهو مقابلة الفعل بالفعل

كما جاء في قوله تعالى : ﴿**فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ**﴾ [4] فحواء بيوتهم وخرابها بالعذاب مقابلة لظلهم ، وقوله تعالى : ﴿**فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ**﴾ [5] فيعقب أبو هلال على الآية الكريمة ، إذ يقول : فالمكر من الله تعالى العذاب ، جعله الله عزوجل مقابلة لمكرهم بأنبيائه وأهل طاعته " [6]

وفي المحسنات معنوية ولفظية تنسجم صوتياً في أطرافها وتتلاءم معنوياً في ألفاظها إذا كان ذلك في الشعر أم في النثر ، فقد ورد في قوله تعالى : ﴿**وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ**﴾ [7] وما أن نأتي إلى إبن رشيق القيرواني

---

[1] الرحمن : 66.

[2] الخصائص : 65/1 .

[3] جواهر الألفاظ : 5 ، ينظر : الأسس الجمالية : 232 ، 233 .

[4] النمل : 52 .

[5] النمل : 51 .

[6] كتاب الصناعتين : 224 .

[7] القصص : 73 .

(456هـ) حتى نجده يمثل بقول الأمام علي (رضي الله عنه) إذ يقول : " أين من سعى واجتهد ، وجمع وعدد ، وزخرف ومجد ، وبنى وشيد ... " [1] ويعلق عليه قائلاً : " فأتبع كل لفظة ما يشاكلها وقرنها بما يشبهها "[2] وهو في ذلك ينطلق من أن : " المقابلة بين التقسيم والطباق ، وهي تتصرف في أنواع كثيرة ، وأصلها ترتيب الكلام على ما يجب ، فيعطي أول الكلام ما يليق به أولاً ، وأخره ما يليق به أخراً ، ويأتي في المواقف بما يوافقه وفي المخالف بما يخالفه " [3] ويقول ابن رشيق : وأكثرها تجيء المقابلة في الأضداد ، فإذا جاوز الطباق ضدين كان مقابلة ، مثال ذلك ، ما أنشده قدامة لبعض الشعراء :

فيا عجباً كيف انقتاب فناصح　　　وفي وسطوي على الغل غادر

فقابل بين (النصح) و (الوفاء) و (الغل) و (الغدر) وهكذا يجب أن تكون المقابلة الصحيحة ، يقول ابن رشيق : لكن قدامة لم يبال بالتقديم وبالتأخير هذا الباب .[4]

ويبدو أن ابن رشيق يجعل مركز المقابلة هو الدلالة ، ثم يلحق بها الموازنة الصوتية بالتبعية والاشتراك في مفهوم الموافقة والمخالفة ، والمقابلة عند ابن رشيق تعني (التقسيم) فهو الأخر ذو شقين : دلالي وصوتي وكان بوسع ابن رشيق ان يدمج أحدهما في الآخر ليكونا مفهوماً واسعاً شاملاً ، ولكنه لم يفعل وربما كان له عذره فيما يخص التمييز بين المقابلة الدلالية والتقسيم الدلالي لقيام المقابلة على التضاد وما إلى ذلك في حين أن العلاقة بين أجزاء التقسيم لا تسمو إلى هذا المستوى .

وإذا كان السمع ميزان صوت الألفاظ في التعبير ، فلم يعترض السمع يوماً وهو يصغي إلى صوت القرآن إناء الليل والنهار ، ما يختلف عليه جمال تعبيره من حيث تناسب أجزائه صوتاً ودلالة ، قال تعالى : ﴿**مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَى وَالْأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ**﴾ [5] فقد وردت مقابلات صوتية في الآية الكريمة فقابل لفظة (الأعمى) وضده (البصير) ولفظة (الأصم) يناسبه السميع في المقابلة ، وفي هذا أمران : الأول التناسب الدلالي ، والثاني التناسب الصوتي ، إما

---

(1) نهج البلاغة : 212/1 .

(2) العمدة : 15/2 .

(3) نفسه :

(4) نفسه : 18/2 .

(5) هود : 34 .

الدلالي فأنه سبحانه (لما ذكر انسداد العين ، تبعه بانسداد السمع ، وبضد ذلك لما ذكر انفتاح البصر أعقبه بانفتاح السمع ، فما تضمنته للآية الكريمة هو الأنسب في المقابلة . [1] وهذه المقابلات الصوتية هي كثيرة في القرآن الكريم وواسعة .

ومن علماء البلاغة الذين تحدثوا عن المقابلة الصوتية السكاكي (626هـ) في كتابه مفتاح العلوم عندما ذكر : " هي أن تجمع بين شيئين متوافقين أو أكثر وبين ضديهما مثل قوله تعالى : ﴿**فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى * فسنُيَسِّرُه لِلْيُسْرَى * وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى * وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى** ﴾ [2]

يقول السكاكي : " لما جعل التيسير مشتركاً بين الإعطاء والارتقاء ، والتصديق ، جعل هذه ، وهو التعبير مشتركاً بين أضداد تلك وهي ، المنع والاستغناء والتكذيب " [3] .

وإنما تكون المقابلة في الكلام بالتوفيق بين المعاني التي يطابق بعضها بعضاً ، والجمع بين المعنيين اللذين تكون بينهما نسبة تقتضي لأحدهما أن بذكر مع الأخر من جهة ما بينهما من تباين او تقارب على صفة من الضوع تلائم بها عبارة أحد المعنيين ، عبارة الآخر كما لاءم كلا المعنيين في ذلك صاحبه .

وأنواع المقابلات تتشعب ، وقل من نجده يفطن لمواقع كثير منها في الكلام ، كما أن كثيراً من الناس يعد من المقابلة الصوتية ما ليس منها ، وأكثر ما يشعر به منها مقابلة التضاد والتحالف وليس يشترط تحاذي عبارتي المعنيين المتقابلتين في طرفي الكلام في الرتبة ، وإذا أمكن تقابلها فهو أحسن.[4] وهذا ناتج من المقابلات الصوتية عند الكلام . وهذا ما سنتعرف عليه من خلال دراسة الطباق .

المطابقة :

تحدثنا في الفقرة السابقة عن المقابلة الصوتية التي وردت في كتب البلاغيين العرب ولاحظنا كيف يحدث التداخل بينهما وبين الأضداد من محسنات لفظية ومعنوية "

---

[1] البرهان في علوم القرآن : 522/3 .

[2] الليل : من الآية : 5 – 10 .

[3] مفتاح العلوم : 424 .

[4] منهاج البلغاء : 52 .

فهذان المصطلحات يتداخلان في بعض الوجوه ويختلفان في البعض الآخر من ناحية المعنى ويعتمدان على الانسجام الصوتي ، والخليل بن احمد الفراهيدي (475هـ) كان من أوائل الذين أشاروا إلى قضية الطباق ، لكن ابن المعتز (296هـ) نقل لنا عن الخليل والأصمعي (216هـ) نصاً يقول فيه : " قال الخليل رحمه الله يقال طابقت بين الشيئين إذا جمعتهما على حذو واحد " [1] ولا شك أننا نفهم من هذا النص أن أبن المعتز قد فهم التطابق عند الخليل بأنه التضاد كما جاء عند الأصمعي ، ولكنني أستبعد ان يكون الخليل قد عني بالتطابق كما عناه الأصمعي ،لأن نظرة الخليل للتطابق تختلف عن الأصمعي من حيث المعنى.

وذكر لنا أبو هلال العسكري (395هـ) في كتابه الصناعتين نصاً يقول فيه : " قد جمع الناس على أن المطابقة في الكلام هي الجمع بين الشيء وضده " [2]

أما إبن رشيق القيرواني (456هـ) فينقل عن قدامة بن جعفر في قول له يعلق فيه على فهم قدامة للطباق اذ يقول : " وأما قدامة في الطباق فأنه أيضاً مساواة لفظ للفظ وهي أعني المساواة على رأي الخليل والأصمعي معنى لمعنى ، وقد يكون مطابقة اللفظ للمعنى أي موافقته"[3] وأود أن أشير هنا الى ما ذكره قدامة بن جعفر فأنه كان يأتي بأمثلة للطباق منها قول الافوه الاودي :

واقطـــــع الهوجـــــل مستأنســـــاً بهوجـــــل عيرانـــــة عنتـــــريس

فلفظة (الهوجل) في هذا البيت الشعري واحدة قد اشتركت في معنيين ، لأن الأولى يراد بها (الأرض) والثانية (الناقة) .[4]

وقد يضع الناس من صفات الشعر المطابق والمجانس ، وهما داخلان في باب ائتلاف اللفظ والمعنى ، ومعناها أن تكون في الشعر معان متغايرة قد اشتركت في لفظة واحدة وألفاظ متجانسة مشتقة .[5]

والطباق في اللغة الجمع بين الشيئين ، يقولون ، طابق فلان بين ثوبين ثم استعمل في غير ذلك ، فقيل طابق البعير في سيره ، إذا وضع رجله موضع يده . [6] والمطابقة أصوات تقابلها معان في الجهة الأخرى تؤدي إيقاعاً موسيقياً رائعاً .

---

[1] البديع : 75 ، ينظر : الخليل أبن الفراهيدي : 112 .

[2] كتاب الصناعتين : 316 .

[3] العمدة : 7/2 .

[4] نقد الشعر : 162 .

[5] المصدر نفسه :

[6] كتاب الصناعتين : 316 ، لسان العرب مادة (طابق) .

ومن المطابقة في أشعار المحدثين قال أبو تمام :

أهـــم بـــك النـــاعي وأن كـــان اســـمعا واصـــبح مغنـــى الجـــود بعـــدك بلقحـــاً[1]

وقالوا هذا احسن ابتداء في مرتبة إسلامية . [2]

وقال البحتري :

إن أيامـــــه مـــــن البـــــيض بـــــيض مـــا رأيـــت المفـــارق الســـود ســـوداً[3]

والمطابقة التي هي التلاؤم والانسجام الصوتي تؤدي غرضاً بلاغياً جميلاً ، وقد ينبغي أن أشير إلى أن المطابقة الداخلية ليست مقصورة على البديع ، فهي مما ينتظم الكلام جميعاً ، هذا إذا اردنا بالمطابقة الائتلاف الحاصل بين ألفاظ النص وتراكيبه من جهة ، وعناصره الغائبة كالمعاني والأفكار من جهة ثانية ، وقد تحدث البلاغيون أنفسهم عن ذلك ، فأشاروا إلى مطابقة لفظ للفظ أو معنى لمعنى أو معنى للفظ ... ولكن هذه المطابقة ليست مطلوبة لنفسها وإنما لتحقيق الصواب في النص ، أما المطابقة الداخلية في البديع ، فهي مطلوبة لذاتها .

لم تتحدث الدراسات البلاغية عن المطابقة ألا في البديع على نحو ما تحدثوا عنها في علم المعاني وبدرجة اقل في علم البيان ، ولعل السبب يعود إلى أن البديع لم يكن جزءاً من علم البلاغة ، وإنما هو ملحق أو تابع لا شأن له في تحقيق المعنى إلا في التحسين والزخرفة ولذلك لا يخضع في تصورهم ، لمبدأ المطابقة .

وفي تعريف علم البديع نعلم أنه "علم تعرف به وجوه تحسين الكلام بعد رعاية تطبيقه على مقتضى الحال ووضوح الدلالة "[4] ومفتاح فهم المطابقة في البديع يكمن في مفهوم التحسين والقدماء ، لسوء الحظ ، لم يحددوا المقصود بالتحسين ، وليس لدينا إلا تقسيم المحسنات إلى لفظية ومعنوية ، أما الأنواع البديعية فهي تجليات وأنماط مما يعدونه تحسيناً ، والواقع ان القدماء لم يخضعوا البديع بالتحسين ... ويريدون بالتحسين الجمال الملموس القائم في النص ، قائم في الشكل الذي تكون عليه الألفاظ والعلاقات التي تقام بين المعاني ، فالتحسين مظهر داخلي عيني ، أما الحسن فمظهر خارجي نفسي . [5]

---

[1] ديوانه : 272/1 .

[2] الصناعتين : 325 .

[3] ديوانه : 182/1 .

[4] الإيضاح : 348/2 .

[5] مجلة الأقلام : 1992 : 86 .

وبذل ابن سنان الخفاجي (466هـ) جهوداً بلاغية متميزة عندما تحدث عن التجانس والمقابلة والطباق ، فذكر أن تسمية الجميع بالطباق : " لأن الطبق للشيء إنما قيل له طبق لمساواته إياه في المقدار إذا جعل عليه أو غطى به ، وأن أختلف الجنسان ، وفي المثل : وافق شن طبقه ، ومنه طباق الخيل ما يقال : نطابق الفرس إذا وقعت رجلاه في موضع يديه في الشيء والعدو .[1] قال النابغة الجعدي :

وخيـــــل يطـــــابقن بالـــــدارعين طبـــــاق الكـــــلاب يطـــــأن الهراســـــا

ومن الطباق قول بعضهم : كدر الجماعة خير من صفوة الفرقة ، فكدر وصفو والجماعة والفرقة من الطباق المحض .

ومما يجري مجرى المطابق ان يقدم في الكلام جزء ألفاظه منظومة نظاماً ويتلى يأخره يجعل فيه ما كان مقدماً في الأول مؤخراً في الثاني وما كان مؤخراً مقدماً وقد سمى قدامة بن جعفر (337هـ) هذا الفن (التبديل) ومثله يقول بعضهم اشكر لمن انعم عليك ، وانعم على من شكرك ، ويقول الحسن البصري : إن من خوفك حتى تلقي إلا من خير لك ممن أمنك حتى تلقي الخوف .[2]

أما إبن الأثير (637هـ) عندما تحدث عن المقابلة التي تساوي لديه المطابقة وعن العلاقة بين التقابل والمطابقة يقول : " فأما الأول وهو مقابلة الشيء بضده كالسواد والبياض "[3] وعندما جاء ابن أبي الإصبع (654هـ) وضع قسمين آخرين للطباق ، سماهما الطباق الحقيقي والطباق المجازي ، وأضاف مصطلحاً جديداً وهو طباق الإيجاب يقول : " الطباق على ضربين حقيقي ومجازي وكل من الضربين على قسمين لفظي ومعنوي فما كان منه ألفاظ الحقيقة أبقوا عليه اسم الطباق وما كان بألفاظ المجاز وبعضه سموه تكافؤ "[4] ومن خلال الجهود البلاغية التي بذلت في هذا الميدان ، نرى أن كثرة المصطلحات متداخلة عند أصحاب البلاغة ولم يرسو على تحديد المصطلح بصورته النهائية وإنما بقي متأرجحاً بين المقابلة والتضاد والمخالفة والمطابقة ، وكل هذه التسميات هي محسنات بديعية في ألفاظها وأصواتها .

---

[1] سر الفصاحة : 192 .

[2] نفسه : 195 ، 196 ، ينظر منهاج البلغاء : 51 .

[3] المثل السائر : 144/1 .

[4] بديع القرآن : 111 ن ينظر : منهاج البلغاء : 49 .

ورد الطباق في القرآن الكريم وفي آيات كثيرة ، منها قوله تعالى : ﴿**ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ**﴾[1] وقوله : ﴿**هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيماً**﴾[2] وقوله عز جلاله : ﴿**وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى**﴾ [3] وقوله : ﴿**يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا**﴾[4] وقد بادر أبو هلال العسكري (395هـ) إلى ذلك فقال : " فلم يضرب أخذ لفظ القرآن في اختصار وصفائه ، ورونقه وبهائه وطلاوته ، وكذلك جميع ما في القرآن من طباق ومما جاء في كلام النبي محمد (صلى الله عليه وسلم) ، من الكلام المطابق قوله للأنصار : " إنكم لتكثرون عند الفزع وتقلون عند الطمع " [5] وقال الفرزدق :

والشيب ينهض في الشباب كأنه ليل يصبح بجانبيه نهار [6]

وكان لحازم القرطاجني (684هـ) رأي ثان في الطباق عندما ذكر : " والمطابقة تقسم الى محضة وغير محضة فالمحضة مفاجأة اللفظ بما يضاده من المعنى كقول جرير :

وباسط خير فيكم بيمينه وقابض شر عنكم بشماله [7]

فقوله باسط وقابض وخير وشر من المطابقات المحضة .

ومن إبداع ما ضوعفت فيه المطابقة وجاءت العبارة الدالة عليها في أحسن ترتيب قول المتنبي :

ازورهم وسواد الليل يشفع لي وأنثني وبياض الصبح يغرى بي

وقد اجتمع في هذا البيت صنفا المطابقة المحضة وغير المحضة : [8]

والمعروف أن الطباق هو صورة من صور المقابلة وهذا ما المحنا اليه بغض النظر عن المشكلة التي قامت حول معنى المطابقة : [9]

---

[1] الحج : 61 .

[2] الأحزاب : 43 .

[3] النجم : 43 .

[4] الروم : 19 .

[5] الصناعتين : 318 .

[6] ديوانه : 67 ، البيت في الديوان . والشيب ينهض في المواد كأنه ليل يصبح بجانبيه نهار .

[7] ديوانه : 222 .

[8] ديوانه : 122 ، منهاج البلغاء : 51 .

[9] ينظر : نقد الشعر : 161 ، الصناعتين : 104 ، المثل السائر : 429/1 ، الأسس الجمالية : 234 .

وعندما نقول : إن (التحسين) هو مفتاح فهم المطابقة في البديع فلأنه يجسدها تجسيداً حقيقياً ملموساً ، إن المطابقة القائمة في النص البديعي : –

1– مطابقة صوتية 2– مطابقة دلالية

ولسنا هنا بصدد تحليل إنما البديع للتدليل على المطابقة القائمة فيها ، غير أنه لابد من الإشارة إلى جوهر المطابقة هنا قائم في علاقات تشاكل بين الأصوات مرة وبين الدلالات أخرى ، إن معظم ما تندرج اعتيادياً تحت باب المحسنات اللفظية هو في الواقع علاقات صوتية قائمة على التكرار الصوتي ، وفي بعض الأحيان على الانتظام أيضاً ، وفي المحسنات ، المعنوية تقوم المطابقة بين الدلالات التي تنشأ عنها علاقات تتناسب أو إبهام أو غموض ... وهي مطابقة أيجاب إن صح التعبير ، أما علاقات التضاد التي يمثلها الطباق والمقابلة ، فهي مطابقة سلب ، ومن المطابقات الدلالية ما ينشأ عند ما يعتني المعنى الحاضر معنى مماثلاً أو مقابلاً غائباً .

إن ميدان البحث في هذا الجانب ، وفي جوانب البلاغة العربية رحب وواسع وما زالت أصواتها مدوية في هذا الكون الواسع والذي يمثل فيه الصوت خصوصية خاصة ، فوجدت من المفيد أن أذكر هذه المحسنات اللفظية ، لأن علم البديع علم قديم يهتم بالمحسنات اللفظية وتزويقها ويتفاعل معها بشكل كبير ، مما يضيف إليها رونقاً جميلاً ، وانسجاماً صوتياً لطيفاً ، فقد تكلم علماء البلاغة في كتبهم عن ضروب المطابقات وبسطوا القول فيها وذكروا جميع أنواعها وأغراضها ، فلا معنى للإطالة إذ قصدنا أن تتخطى ظواهر هذه الصناعة وما فرغ الناس إلى ما وراء ذلك مما لم يفرغ منه . [1]

التضاد :

تعرفنا على المصطلحين السابقين وبقي لنا مصطلح ثالث لا يقل أهمية عنهما هو مصطلح التضاد ، وأن معنى التضاد في الأصل هو عدم اجتماع الضدين معاً في شيء واحد في زمان واحد " والواقع أن أصحاب الدراسات البلاغية لم يخرجوا كثيراً عن فهمهم للتضاد عن هذا المعنى ، ولعل من ابرز الذين تناولوا معنى التضاد في كتاباتهم أبا هلال العسكري (395هـ) إذ يقول : " والتضاد أن ينتفي أحدهما عند وجود صاحبه إذا كان وجود هذا على الوجه الذي يوجد عليه كالسواد والبياض " [2] .

---

[1] منهاج البلغاء : 51 ، ينظر : مجلة الأقلام العدد (1) 1992 : 86 .

[2] الصناعتين : 229 ، ينظر : لسان العرب : مادة (ضدد) : 519/2 .

ينقسم تقابل التضاد عند أصحاب الدراسات البلاغية إلى ، (التضاد اللفظي) و (التضاد المعنوي)

أولاً: التضاد الحقيقي :

ظهرت قضيتان بارزتان عند أصحاب الدراسات البلاغية المتعلقة بالتضاد الحقيقي ، وأن بعض الدارسين لم يضعوا شروطاً على التقابل بين المتضادات فتحدثوا عنه من غير تحديد .

ولعل إبن المعتز (296هـ) من أوائل هؤلاء عندما نقل قول الخليل الذي سبق ذكره ، ويفصح الامدي (370هـ) عن حقيقة الطباق بقوله : " وارى الطباق في أشعار العرب وهو كثر وأوجد في كلامهما من التجنيس وهو مقابلة الحرف بضده " ... فهذا حقيقة الطباق ، إنما هو مقابلة الشيء لمثله هو على قدره فسموا المتضادين إذا تقابلا – مطابقين ، كقول زهير:

ليث يعثر يصطاد الرجال إذا ما الليث كذب عن أقرانه صدقاً[1]

فطابق بين قوله (كذب) وبين قوله (صدقا) وقد أشار العسكري إلى هذا المعنى في قوله : " قد اجمع الناس أن المطابقة في الكلام هو الجمع بين الشيء وضده في جزء من أجزاء الرسالة أو الخطبة أو بيت شعر ، مثل البياض والسواد ، والليل والنهار ، والحر والبرد . [2]

أما جهود ابن سنان في هذا الخصوص فأنها معروفة من خلال تعليقه على تناسب الألفاظ فقال : " فأما تناسب الألفاظ من طريق المعنى فأنها تتناسب على وجهين : أحدهما أن يكون معنى اللفظين متقاربان ، والثاني أن يكون أحد المعنيين متقاربين للأخر أو قريب من المعتاد ، فأما إذا خرجت الألفاظ عن هذين القسمين فليست متناسبة ، وقد سمى أصحاب صناعة الشعر المتقاد من معاني الألفاظ (الطباق) وسماه قدامة بن جعفر (337هـ) الكاتب (المتكافيء) وأنكر ذلك عليه القاسم الحسن بن بشر [3].

فاتفق الأخفش والامدى على مخالفة بيان الاسم في التسمية ، وسمى أصحاب صناعة الشعر ما كان قريباً من التضاد ، (المخالف) وقسم بعضهم النقاد ، فسمى ما كان فيهما لفظتان معناهما ضدان كالسواد والبياض (الطباق) وسمى تقابل المعاني والتوفيق بين بعضها وبعض حتى تأتي في الموافقة بما يوافق في المخالف بما يخالف على الصحة (المقابلة) [4] وتحدثنا في

---

[1] ديوانه : 50 .

[2] العمدة : 5/2 ، ينظر : سر الفصاحة : 191 .

[3] سر الفصاحة :191 .

[4] نفسه : 191 .

هذا المبحث عن هذين المصطلحين ولا نريد أن نزيد الى اكثر من ذلك ، ولكن الذي يهمنا في هذا المجال هو اللفظ ، لأن الألفاظ هي أصوات والمعاني تابعة لهذه الألفاظ ومن خلال هذه الألفاظ تستطيع ان تفرق بين معاني هذه الأصوات ومعرفة مصادرها والتمييز بينها .

ويذكر ابن سنان أن : أصحاب صناعة الشعر لا يجعلون الليل والصبح ضدين ، بل يجعلون ضد الليل والنهار ، لأنهم يراعون في المضادة استعمال الألفاظ ، وأكثر ما يقال الليل والنهار ، ولا يقال الليل والصبح . [1]

ويرى الباحث ان الليل والنهار ، هما يتعاقبان ولا يتضادان وهذه هي إرادة الله سبحانه وتعالى ، لأن الظلمة سبقت النور كما وردت آيات كثيرة في القرآن تذكر ذلك وهذا ما فصلنا القول فيه أثناء دراستنا عن آيات النور في القرآن الكريم في مرحلة الماجستير.

ويبدو أن الذين اهتموا بالدراسات البلاغية من المتقدمين لم يكونوا يميزون التضاد اللفظي من التضاد المعنوي ، كما وجدنا ابن المعتز ،[2] إما ابن سنان الذي أشار إلى كلا المصلحين ، فيشير إلى التضاد والمعنوي بما يقارب الضد والطباق غير المحض يقول:"ان يكون أحد المعتنيين مضاد للأخر او قريباً من المضاد ،[3] قال الحطيئة:

وأخذت اطرار الكلام فلم تدع شتماً يضر ولا مديحاً ينفع فكما نلاحظ من المثال ان التضاد قد وقع في المعنى لا في اللفظ وذلك عندما ذكر المديح ضد الهجاء لا الشتم ،ولسمة قسم أخر للطباق وهو المخالف ،وقد ذكره ابن رشيق (456هـ) في قوله وقال زهير ، وازعموا انه لاوس ابن حجر.

اذا انت ام تعرض عن الجهل والخنا لها الليل الاهو وهي من سندس خضر[4]

لما وجده خلافاً له طابق بينهما كما يفعل بالضد وان كان الخلاف مقصراً رتبة الضد في المباعدة والناس فتقعون ان جميع المخلوقات مخالف وموافق.[5] هذا القسم ابن سنان بقوله:"فأن المخالف وهو الذي يقرب من النضاد كقول أبي تمام:

ترى ثياب الموت حمراً فما اتى اصبت حليماً واصابك جاهل

---

[1] نفسه : 192 ، 193 .

[2] تحرير التجسير: 111/1

[3] سر الفصاحة:191

[4] البيت في سر الفصاحة:196

[5] العمدة: 11/2 * الصورة الفنية في آيات النور في القرآن الكريم : 130 .

فأن الحمر والخضر من المخالف وبعض الناس يجعل هذا من الطابق.بعد ان تحدثنا عن التضاد الحقيقي للألفاظ ، يأتي الحديث عن التضاد المجازي لنرى كيف فهم الدارسون البلاغيون هذا الجانب ،وان أصحاب الدراسات البلاغية كانوا على حق عندما جعلوا التضاد الحقيقي مصطلحاً يختلف عن التضاد المجازي ،ولعلهم أدركوا الفارق الأساس بين القسمين في الأصل قائم على الضدين قبل دخولهما الجملة ، في حين أن التضاد المجازي قائم داخل الجملة بما يعطيه من معانٍ مرادفة أو مجازية فاعتمدوا على السياق لتلمس الفارق الأساسي بين القسمين ، وهذا لم يأت من فراغ وإنما جاء من خلال الجهود التي بذلها أصحاب البلاغة الصوتية في كتبهم .

المبحث الثالث : التجنيس :-

بذل علماء البلاغة جهوداً كبيرة في المحسنات اللفظية وخاصة في التجنيس الذي شغل مساحات واسعة في كتبهم لكونه فن من الفنون البلاغية ، وأبن المعتز (296هـ) يعد واضع هذا العلم (البديع) أسم موضوع لفن من فنون الشعر يذكرها الشعراء والنقاد المتأخرين فهم ، فأما العلماء باللغة والشعر القديم فلا يعرفون هذا الاسم ولا يدرون ما هو ، وما جمع فنون البديع ولا يغني إليه أحد .[1]

---

[1] البديع : 57 .

وفيما نقرأ عند الجاحظ (255هـ) من مفهوم البديع اذ يقول : قوله هم ساعد الدهر إنما هو مثل ، وهذا الذي تسميه الرواة البديع ، والبديع مقصور على العرب ، ومن أجله فاقت لغتهم كل لغة واريت على كل لسان .[1]

وأهل البلاغة حين يعرضون للبديع اللفظي يرونه أقساماً منها ما يسمونه الجناس والتجنيس وفيما أسموه بالجناس التام الذي تتساوى فيه أنواع الحروف وأعدادها وهيأتها بين كلمتين ينتج عنهما صوت لفظي له إيقاعه الخاص ، وإذا أختل أحد هذه القيود بأن حدث تغاير في هيأة الحروف فقط أو في أعدادها أو في أنواعها ، فقد أطلقوا عليه الجناس الناقص ، بل أن الحرص على توفر اكبر قدر من التناسب في الإيقاع الصوتي جعل بعض البلاغيين يتوهمون لوناً من الجناس يدركه القارئ أو السامع بالإشارة والفهم . فالذي يهمنا الجانب اللفظي الذي له علاقة بالجرس الموسيقى ومن المظاهر الموسيقية الأخرى (الجناس) الذي عرفه أبو هلال العسكري (395هـ) قائلاً : " التجنيس ان يورد المتكلم كلمتين تجانس كل واحدة منهما صاحبتها في تأليف حروفها .[2] وأورد مثلاً عن فن التجنيس قوله تعالى : ﴿**قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ**﴾ [3] فالجناس مظهر موسيقي ، وهو يميل بالسامع إلى الإصغاء فأن مناسبة الألفاظ تحدث ميلاً واصغاء إليها ، لأن اللفظ المذكور إذا حصل على معنى ثم جاء والمراد به معنى آخر كان للنفس تتشوق إليه . [4] وهذا كله لم يتم إلا بانسجام أصوات الحروف والكلمات في نسق جميل متلائم .

يقول إبن المعتز (296هـ) : " التجنيس هو أن تجيء الكلمة تجانس أخرى في بيت شعر وكلام ومجانستها لها أن تشبهها في تأليف حروفها على السبل التي ألف الأصمعي كتاب الأجناس عليها "[5] والتجنيس من ألوان البديع الخمسة التي ذكرها ابن المعتز والمحسنات الصوتية كثيرة ولكن أهمها الجناس ويسميه بعضهم (التجنيس) الذي قسم إلى تجنيس تام وتجنيس التصريف ، والتجنيس المزدوج المكرر ، والتجنيس المشوش ، والتجنيس المتشابه والتجنيس المفروق ، وكذلك ما يلحق بالتجنيس من الاشتقاق . [6] وأن جوهر التجنيس اساساً يقوم على الاشتراك اللفظي ،

---

[1] البيتان والتبيين : 47/2 ، ينظر : الأسس الجمالية : 152 .

[2] الصناعتين : 249 .

[3] النمل : 44 .

[4] بديع القرآن : 27 .

[5] البديع : 25 ، ينظر : الطراز : 356/2 ، موسيقى الشعر : 45 .

[6] مفتاح العلوم : 202 ، 203 .

فالتجنيس اذن ضرب من ضروب التكرار الذي تتكرر فيه أصوات الحروف الألفاظ ، وأن التجنيس أصيل في اللغة العربية لكثرة ترادفاتها وتقارب جرس كلماتها وأولى الأمثلة التي ساقها ابن المعتز تدل دلالة ان المجانسة كائنة في ذات اللفظ وما يشتق منه من معنى مثل قول الشاعر : [1]

يـــوم خلجـــت علـــى الخلـــيج نفوســـهم غضـــــباً وأنـــــت بمثلهـــــا مســـــتام

وبه يمثل العسكري (395هـ) فقال : " فهاتان اللفظتان متفقتان في الصيغة واشتقاق المعنى "[2] وارى أن الأمر كله يجب أن يكون مرجعه إلى اللفظ الذي يتأتى من خلاله ذلك الجمال في جرس الأصوات في الكلمة أو الكلمات إلى دلالة الألفاظ نفسها لان التجنيس هو ملائمة الأصوات وعدم تنافرها.ويقيم من النص الذي أورده العسكري.ان المجانسة عنده صنف بلاغي يرجع إلى أصوات الكلمة وتأليف حروفها وانسجام هذا التأليف في النطق.

ولما كانت المجانسة اللفظية تؤدي معنى متقارباً في تقلبات الاشتقاق وتفيد الكلام قوة في جرسه ونغمه ،فلم اجمع النفاد والبلاغيون على جعل التجنيس فيما يتفق لفظه ويختلف معناه ،واغلب المصادر تسوق الشواهد في أنواع التجنيس وتناقلها من ان غير ان أفادها وكان من اقرب القدماء رأياً في هذا عبد القاهر الجرجاني (471هـ) فقد ذهب إلى بيان أفاده التجنيس من خلال الشواهد فقال:"واعلم ان النكتة التي ذكرها في التجنيس وجعلتها العلة في استجابة الفضيلة وهي حسن مع ان الصورة التكرير والإعادة".[3]

يقول ابن سنان الخفاجي (466هـ):"ومن التناسب بين الألفاظ المجانس ،وهو ان يكون بعض الألفاظ مشتقاً من بعض ان كان معناها واحداً ، أو بمنزلة المشتق ان كان معناهما مختلفاً ، أو تتوافق صيغتا اللفظتين مع اختلاف المعنى ، وهذا إنما يحسن في بعض المواضع إذا كان قليلاً غير متكلف ولا مقصود في نفسه ، وقد استعمله العرب المتقدمون في أشعارهم ، ثم جاء المحدثون فلهج به ... ويسمى المجانس ، ما توافقت فيه اللفظتان بعض الاتفاق ، وقدامة بن جعفر ، يسمى هذا الفن الجنس ويسمى المطابق المتكافئ ... وأقل طبقات المجانس ، لأنه مبني على تجانس أشكال الحروف في الخط ، وحسن الكلام وقيمة لا يستفاد من أشكال حروفه في الكتابة إذ لا علقة بين صيغة اللفظ في الحروف وشكله في الخط " [4]

---

[1] البديع : 25 .

[2] الصناعتين : 330 .

[3] أسرار البلاغة:22

[4] سر الفصاحة : 185 ، 191 .

فأين سنان ينظر إلى التجانس من ناحية اللفظ المنطوق ومن الناحية الثانية هو الصوت المكتوب الذي يمثل عنده الخط . يقول ابو هلال : " التجنيس أن يورد المتكلم ، في الكلام القصير نحو البيت من الشعر والجزء من الرسالة أو الخطبة كلمتين تجانس كل واحدة منهما صاحبتها في تأليف حروفها على حسب ما ألف الأصمعي كتاب الأجناس* فمنه ما تكون الكلمة تجانس الأخرى لفظاً واشتقاق معنى ، ومنه ما يجانسه في تأليف الحروف دون المعنى فمن التجنيس في القرآن الكريم قوله تعالى:﴿ **قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ**﴾ [1] وقوله : ﴿**فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى**﴾ [2] وقوله تعالى : ﴿**وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ**﴾ [3] ومن شعر المحدثين قول البحتري : [4]

من كل ساجي الطرف أغيد أجند ومهفهف الكشمين أحوى أحور

قالت الخنساء :

إن البكاء هو الشفاء من الحوى بين الجوانح

وفي كل هذه الأمثلة نلحظ عناية موجبة إلى تردد الأصوات في الكلام وما يتبع هذا من إيقاع موسيقي تطرب له الأذن وتستمتع به الأسماع ، ولاشك أن مثل هذه الأسلوب في نظم الكلام الموسيقي اللفظية .

وابن سنان الخفاجي اكثر انسجاماً حين رتب جميع المكونات الصوتية تحت مفهوم المناسبة بين اللفظ في معناه وبنائه الصوتي يقول في ذلك:"ومن شروط الفصاحة المناسبة بين اللفظين من طريق الصديقة والمناسبة بينهما من طريق المعنى"[5] وانطلاقاً من هذا النص ومن مجموع النصوص التي تناول فيها ابن سنان المناسبة ببعديها الدلالي والصوتي أمكن أن نضع الخطاطة الآتية.

---

* كتاب الأجناس لصاحبه الأخمص تشير المصادر إلى انه مفقود ، وذكرته من خلال وروده في المصادر .

[1] النمل : 44 .

[2] القيامة : 39 .

[3] الأحزاب : 37 .

[4] الصناعتين : 331 .

[5] سر الفصاحة:290 ،بنظر:العمدة:28/2

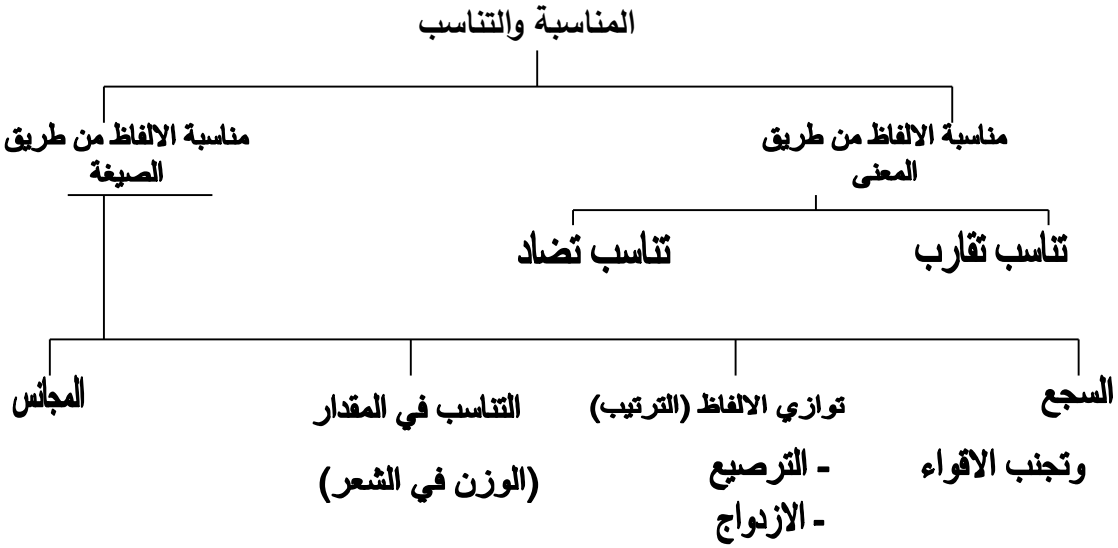

فتبين من هذه الخطاطة:

1.إن المناسبة ذات مستوين:صوت ودلالي.

2.إن المستوى الصوتي يتسع ليمثل جميع أنواع الموازنات الترصيعية والتجنيسية ومن المتناسب بين الألفاظ المجانس.[1] ، فأما تناسب الألفاظ من طريق المعنى فأنها تتناسب على وجهين أحدهما إن يكون معنى اللفظين متقارباً الثاني ، أن يكون أحد المعنيين مضاداً للأخر أو قريباً من المضاد فأما إذا خرجت الألفاظ عن هذين القسمين فليست بمناسبة.[2] ومن خلال هذا التوضح يتضح لنا انسجام الاصوات في المستوى الدلالي والصوتي.

وتجانس البلاغة هو بيان أنواع الكلام الذي بجمعه اصل واحد في اللغة على وجهين مزاوجه ومناسبة ،فالمزاوجة تقع الجزاء كقوله تعالى: ﴿**فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا**﴾ [3] أي جاوره بما يستحق طريق العدل ،إلا انه استعبر للثاني لفظ الاعتداء لتأكيد الدلالة على المساواة في المقدار ،فجاءت على مزاوجة الكلام احسن البيان...ومن المتجانس وهو المناسبة ،وهي تدور في فنون المعاني التي ترجع إلى اصل واحد ،فمن ذلك قوله تعالى: ﴿**ثُمَّ انْصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ**﴾ [4]

---

[1] المصدر نفسه:193

[2] المصدر نفسه:199 ،بنظر:الموازنات الصوتية الرؤية البلاغية:17 علماً بأن الخطاطة المثبتة في أعلاه اعتمدت عن المصدر نفسه ص17

[3] البقرة : 14 .

[4] التوبة : 127 .

فجونس بالانصراف عن الذكر صرف القلب عن الخير ، والأصل فيه واحد وهو الذهاب عن الشيء ، إما هم فذهبوا عن الذكر ، وإما قلوبهم فذهب عنها الخير.[1]

وحقيقة المجانسة عند الرماني المناسبة بمعنى الأصل نحوا قول أبي تمام: [2]

السيف اصدق أنباء من الكتب في حده الحد بين الجد واللعب

وهذه الموازنات الصوتية لها طعمها الخاص عند المتلقي عندما يسمعها فيحس بأن فيها نغم موسيقي عذب تطرب له الأذن وتستلذه الأسماع .

وفي كلام النبي صلى الله عليه وسلم " سليم سالمها الله ، وغفار غفر الله لها ، وعصية عصت الله ورسوله " .

وفي قول الأعشى :

سد بني نحوص فلم تعدهم وعامر ساد بني عامر [3]

قال الجرجاني ، هو مجانسة ، لأن أحدهما رجل والأخر قبيلة ، وقال غيره : بل معناهما واحد ، ويقول ابن رشيق : وأنا على خلاف رأي الجرجاني ويقصد القاضي الجرجاني ، لأن الشاعر قال بني عامر وأضاف بني إليه ، ولو قال ساد عامراً يعني القبيلة لكان تجنساً غير مدفوع ، قال الجرجاني وأراه يعني بيت الأعشى وقد ذكروا تجنساً مضافاً ، انشده جماعة فهم الجرجاني :

ايا قمر التمام أعنت ظلماً على تطول الليل التمام

فهذا عندهم وما جرى مجراه إذا اتصل كان تجنباً وإذا انفصل لم يكن تجنيساً وإنما كان يتمكن ما أراد لو ان الشاعر ذكر الليل وإضافة فقال : (الليل التمام) كما قال (قمر التمام) والرماني سمى هذا النوع مزاوجاً . [4]

فقد ذكر عبد القاهر الجرجاني (471هـ) في قوله : " أما التجنيس فأنك لا تستحسن اللفظتين إلا إذا كان موقع معتيهما من العقل موقعاً حميداً ، ولم يكن مرمى الجامع بينهما مرمى بعيداً ، فقد تبين لك ان ما يعطي التجنيس من الفضيلة أمر لم يتم ، الا بنصرة المعنى إذ لو كان باللفظ وحده

---

[1] ثلاث رسائل : 99 ، 100 .

[2] ديوانه : 17 .

[3] ديوانه : 93 .

[4] الصناعتين /340 / البيت في العمدة : 332/1 .

لما كان منه مستحسن ولما وجد فيه معيب مستهجن ، ولذلك ذم الاستكثار منه والولوع به "[1] والباحث يتفق مع رأي الجرجاني لأنه لو كان مستحسن لورد الكثير منه في القرآن الكريم ، وذلك لأنه يحتاج إلى دارس متمرس يفهم باللغة وأسرارها وغموض معانيها ودلالاتها حتى لا تختلط عنده الألفاظ بالمعاني وبالتالي يفقد فن البديع رونقه الجميل ونجرح عن مساره .

يقول السكاكي (626هـ) : " وإذا قد تقرر ، أن البلاغة بمرجعيها وأن الفصاحة بنوعها ، مما يكسو الكلام حلة التزيين ، ويرقيه أعلى درجات التحسن ، فههنا وجوه مخصوصة ، كثيراً ما يصار إليها ، لقصد تحسين الكلام ، فلا علينا أن نشير إلى الأعرافس منها ، وهي قسمان : قسم يرجع إلى المعنى ، وقسم يرجع إلى اللفظ " [2]

ومن القسم الثاني التجنيس : وهو تشابه الكلمتين في اللفظ والمعتبر منه في باب الاستحسان عدة أنواع :

أحدها : التجنيس التام ، وهو أن لا يتفاوت المتجانسان في اللفظ كقولك رحبة رحبة .

وثانيهما التجنيس الناقص : وهو أن يختلفا في الهيئة دون الصورة كقولك : البرد يمنع البرد ، وكقولك : البدعة شرك الشرك .

وثالثها : التجنيس المذيل : وهو أن يختلفا بزيادة حرف ، كقولك : مالي كمالي ، وجدي جهدي ، وكاس كاسب .

ورابعهما : التجنيس المضارع أو المطرف : وهو أن يختلفا بحرف أو حرفين مع تقارب المخرج ، كقولك في الحرف الواحد : دامس وطامس ، وحصب وحسب ، وكثب وكثم ، وفي الحرفين كقولهم : ما خصصتني وإنما خسستني .

وخامسها : التجنيس اللاحق : وهو أن يختلفا لا مع التقارب ، كقولك : سعيد بعيد ، وكاتب كذاب ، وعابد عائب ، والمختلفان في اللاحق اذا اتفقا كتبه كقولك : عائب عابث ، سمي تجنيس تصحيف ، والمتجانسات إذا وردا على نحو قولهم : من طلب وجد أو قولهم : من قرع باباً ولج ولج ، وعلى نحو : المؤمنون هينون لينون ، وجئتك من سبأ بنبأ .

وهنا نوع آخر يسمى : تجنيساً مشوشاً ، وهو مثل قولك : بلاغة وبراعة ، وإذا وقع أحد المتجانسين في التام مركباً ولم يكن مخالفاً في الخط كقول الشاعر :

إذا ملـــــك لـــــم يكـــــن ذاهبـــــه فدعـــــــه فدولتـــــــه ذاهبـــــــه

---

[1] أسرار البلاغة : 524 .

[2] مفتاح العلوم : 423 .

سمي متشابهاً . وإن كان مخالفاً في الخط كقوله :

كلهـــم قـــد أخـــذ الجـــام ولاجـــام لنـــا والـــذي ضـــر مـــدير الجـــام لـــو جافلنـــا

سمي مفروقاً . [1]

ومما يلحق بالتجنيس نظير قوله عزوجل : ﴿**قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ**﴾ [2] وقوله : ﴿**وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ**﴾ [3] ، وكثيراً ما يلحق بالتجنيس الكلمتان الراجعتان إلى أصل واحد في الاشتقاق ، مثل قوله عز أسمه : ﴿**فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ**﴾ [4] وقوله تعالى : ﴿**فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ**﴾ [5]

ومن جهات الحسن رد العجز إلى الصدر . وهو أن يكون إحدى الكلمتين المتكررتين او المتجانستين ، أو الملحقتين بالتجانس ، في آخر البيت والأخرى قبلها في أحد المواضع الخمسة من البيت وهي : صدر المصراع الأول ، وحشوه ، وأخره ، وصدر المصراع الثاني وحشوه ، كما إذا قلت :

مشـــتهر فـــي علمـــه وحلمـــه وزهـــده وعهـــده مشـــتهر

فـــي علمـــه مشـــتهر وحلمـــه وزهـــده وعهـــد مشـــتهر

فـــي علمـــه وحلمـــه وزهـــده مشـــتهر وعهـــده مشـــتهر

فـــي علمـــه وحلمـــه وزهـــده وعهـــده مشـــتهر مشـــتهر [6]

اختلفت جهود السكاكي في التجنيس عما سبقه من علماء البلاغة ، مثل العسكري وابن رشيق القيرواني وابن سنان وغريهم ، وأظن أن هذا أمر طبيعي وذلك للفارق الزمني بينهم وبين السكاكي ، فتقسيمات السكاكي كانت اكثر وضوحاً وأدق تشخيصاً عندما قسم التجنيس أقساماً مسمياً كل مصطلح باسمه ومعللاً له من تغير في حروفه واختلاف في موقعه ، أما الذين سبقوه من علماء البلاغة ، فقد انصبت جهودهم على علاقة اللفظ بالمعنى وانزياح مصطلح التجنيس إلى مصطلحات ، مثل الازدواج والترصيع والسجع وغيره ، وهذه الموازنات الصوتية تختلف عن

---

[1] مفتاح العلوم : 429 ، 430 .

[2] الشعراء : 168 .

[3] الرحمن : 54 .

[4] الروم 43 .

[5] الواقعة : 89 .

[6] مفتاح العلوم : 431 .

التجنيس الذي يتعامل مع المعنى ومع الكلمة وحروفها ، فأي تغير في موضع كلمة أو حرفها يتغير التجنيس بتغير التجنيس في ضوء ذلك وهذا ما لمسناه عند السكاكي .

أما إبن الأثير (637هـ) الذي عاصر السكاكي ، فيرى أنه جعل التجنيس في الألفاظ المشتركة على سبيل التحسين قال : " وإما التحسين فان الواقع لهذه اللغة العربية ، التي هي أحسن اللغات ، ننظر إلى ما يحتاج إليه أرباب الفصاحة والبلاغة فيما يصوغونه من نظم ونثر ، وأرى أن من مهمات ذلك (التجنيس) ولا يقوم به إلا الأسماء المشتركة " [1] وتحسين اللفظ ينطوي على تفسيره أشياء كثيرة لم يفصح عنها إبن الأثير وان قال : " أعلم أن التجنيس غرة شادخة في وجه الكلام " [2] ثم يسترسل إبن الأثير في كلامه عن التجنيس ويقسمه إلى أقسام كالذي فعله السكاكي لكنه قال : ما يشبه التجنس ومن العلماء من جعل له اسماً سماه به هو (الترديد) أي أن اللفظة الواحدة رددت فيه : وقسم التجنيس إلى أقسامه الستة :

الأول منها : أن تكون الحروف متساوية في تركيبها مختلفة في وزنها ، من ذلك قول النبي (صلى الله عليه وسلم) : " اللهم كما حسنت خلقي حسن خلقي " فها تبين اللفظتين متساويتان في التركيب مختلفتان في الوزن ، لأن تركيب الخلق والخلق من ثلاثة أحرف ، إلا انهما قد اختلفا في الوزن " [3] ويرى الباحث أنهما اختلفا في النطق أيضاً ، لأن مخرج الفتحة يختلف عن مخرج الضمة في الصوت وإن كان هناك انسجام بين حروفهما .

ومن المشبه بالتجنيس ، وهو أن تكون الألفاظ متساوية في الوزن مختلفة في التركيب بحرف واحد لا غير وان زاد على ذلك خرج من باب التجنيس ، مما جاء منه قوله تعالى : ﴿**وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ * إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ**﴾ [4] يقول إبن الأثير : فأن هاتين اللفظتين على وزن واحد ، الا أن تركيبها مختلف في حرف واحد " [5]. وكذلك قوله تعالى : ﴿**ذَلِكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ**﴾ [6] ورد قول النبي (صلى الله عليه وسلم) : " الخيل معقود بنواصيها الخير " [7] .

---

[1] المثل السائر : 58/1 .

[2] نفسه : 342/1 ، ينظر : جرس الألفاظ : 273 .

[3] نفسه : 350/1 ن ينظر : أسرار البلاغة : 22 ، 23 .

[4] القيامة : 22 ، 23 .

[5] المثل السائر : 350/1 .

[6] غافر : 45 .

[7] المثل السائر : 350/1 .

ومن المشبه بالتجنيس : هو أن تكون الألفاظ مختلفة في الوزن والتركيب بحرف واحد كقوله تعالى : : ﴿**وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ * إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ**﴾ [1] وقوله : ﴿ **وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً**﴾ [2] وورد عن النبي (صلى الله عليه وسلم) " المسلم من سلم الناس من لسانه ويده"[3]

ومن المشبه بالتجنيس ، ما يسمى (المعكوس) وذلك ضربان : أحدهما عكس الألفاظ والأخر عكس الحروف كقول بعضهم : " عادات السادات سادات العادات " وكقول الأخر ، " شيم الأحرار أحرار الشم " [4] وكذلك ورود قول أبي الطيب المتنبي : [5]

فلا مجد في الدنيا لمن قل ماله ولا مال في الدنيا لمن قل مجده

وكتب الإمام علي (رضي الله عنه) ، إلى عبدالله بن عباس (رضي الله عنه) كتاباً فقال : " أما بعد ، فأن الإنسان يسره درك ما لم يكن ليفوته ، ويسوره موت ما لم يكن ليدركه ، فلا تكن بما نلت من دنياك محرماً ، ولا بما فاتك منها ترحلاً ، ولا تكن ممن يرجو الآخرة بغير عمل ويؤخر التوبة بطول امل ، وكان قد ، والسلام "[6] في هذا النص فيه كثير من الحروف والأصوات المنسجمة والمتقاربة المخارج ، فهناك إختلاف في بعض معاني الكلام منها مطابق والأخر مخالف في التجنيس بأنواعه التي تم ذكرها .

جمال الجناس :

لعل السؤال الذي لابد منه هنا بعد أن أوردنا بعض اضرب هذا الفن هو : ما سر جمال الجناس وما عسى ان تكون أهميته في النص الأدبي ، وفي المحسنات الصوتية التي مر ذكرها ، لقد أجاب عبد القاهر الجرجاني (471هـ) على هذا السؤال بصورة غير مباشرة ، فقال : " وعلى الجملة فأنك لا تجد تجنباً مقبولاً ولا سجعاً حسناً ، حتى يكون المعنى هو الذي طلبه واستدعاه وساق نحوه ، وحتى تجده لا تبتغي به بدلاً ولا تجد عنه حولاً ، ومن هنا كان أحلى تجنيس نسمعه

---

[1] القيامة : 29 .

[2] الكهف : 104 .

[3] المثل السائر : 351/1 .

[4] نفسه :

[5] ديوانه : 23/2 .

[6] المثل السائر : 358/1 .

وأعلاه وحقه بالحسن وأولاه ما وقع من غير قصد عن المتكلم إلى اجتلابه وتأهب لطلبه ، او ما هو لحسن ملاءمته ، وأن كان مطلوباً بهذه المنزلة وفي هذه الصورة . [1]

ففي هذا الجمال يحرر عبد القاهر ، أربعة معايير لبلاغة الجناس وشروط حسنه .

اولها : أن يكون المعنى مقتضياً إياه وموجباً لا يراده ، وفي ضوء هذا المعيار يرفض كل جناس جيء به زخرفاً صوتياً وصناعة لفظية ، ذلك لأنه في هذه الحالة لا يتداعى مع المعاني ولا يسهم في أدائها يقصد التعبير والتأثير .

ثانيها : ان يستوي في بناء النص الفني ركناً لا يستغنى عنه ولا يستبدل بسواه ، ومعنى هذا المعيار أن الجناس إذا كان مقحماً على التعبير دخيلاً بين ألفاظه بدا غريباً متكلفاً وصوته باهتاً ، وهو في هذا الوضع لا يثير في النفس إحساساً ولا يجد في الذوق استجابة .

ثالثها : أن يطلع في كلام المتحدث عن سليقه وفطرة ، وعلى اساس هذا المعيار فأن الجناس الذي يتكلف له بجنسه ويأتي به عن إرادة لا يحمل بين طياته أية شحنة شعورية ولا يؤدي عن أية فكرة .

رابعهما : ان يتساوق مع سائر الألفاظ متلائماً معها في موسيقى أجراس الحروف ومتجاوباً في تعاطف مع أصداء أبنيتها .

ولعل هذا المعيار يؤكد بجلاء على أهمية الجناس في خلق الأصوات من خلال الموسيقى الداخلية في النص الأدبي وببناء ما بين ألفاظها من وشائج التناغم قال ابن الأثير (637هـ) : " اعلم أن التجنيس غرة شارقة في وجه الكلام "[2] ولاحظ ابن الأثير ان فائدة التجنيس البيانية لم تتضح كالتشبيه والاستعارة عند القدامى ، لكنه يتلمس طريقاً إلى إدراك جمال التجنيس وفائدته والذي عبر عنه بقوله : " غير انهم عبروا عن ذلك بشيء يشبه ان يكون فائدة للتجنيس ، فإنهم قالوا إن تشابه ألفاظ التجنيس تحدث بالسمع ميلا إليه ، فأن للنفس تشوق إلى سماع اللفظة الواحدة إذا كانت بمعنين وتتشوق إلى استخراج المعنين المشتمل عليهما ذلك اللفظ ، فصار للتجنيس وقع في النفوس وفائدة .

قال أبو تمام :

يمدون من أيد عواص عواصم تصول باسياف قواض قواضب

وقال البحتري :

---

[1] أسرار البلاغة : 10 ، ينظر : بلاغة أرسطو بين العرب واليونان ، 117 وفنون بلاغية : 233 ، 237 .

[2] المثل السائر : 342/1 ، ينظر : جرس الألفاظ : 273 .

لـــئن صـــدقت عنـــا قريـــت انفـــس صـــواد الـــى تلـــك النفـــوس الصـــوادف

وإفادة هذا من الجناس ، أنك تتوهم قبل أن يرد عليك أخر الكلمة كصوت الميم من (يمدون) والياء من عواصم والباء من قواضب ، أنها هي التي مضت وقد أرادت أن تجنبك ثانية ، وتعود إليك مؤكدة حتى إذا تمكن من نفسك تماسها .[1] فهذا التوهم هو أشبه بتداعي الألفاظ فتشابه الصوت في (عواصي) و (عواصم) و (قواضي) و (قواضب) و (صواد) و (صوادف) أفاد اللفظ وتصور المعنى الاول وساعد على توليد المعنى الثاني وبهذه المجانسة الكائنة في تركيب اللفظتين ، وليس من شك أن تعلق الشعراء بإفادة التجنيس الكلام حسناً ومزية ، نلخص من هذا كله بان الجناس ضرب من ضروب التكرار المؤكد للنغيم من خلال التشابه الكلي او الجزئي في تركيب الألفاظ ، وما يثير من انسجام بين نغم التشابه اللفظي ومدلوله على المعنى في سياق البيت .

وسر جمال الجناس كامن في انسجام حروفه وما تؤديه هذه الحروف من جمال صوتي وان اختلف معناه في سياق الكلام ، ولكن الصوت يبقى محافظاً على تواصل الكلام في بناء الجملة ، وأن جمال الجناس لا يخرج عن نظرية الألفاظ وتداعي المعاني في علم النفس فهناك ألفاظ متفقة كل الاتفاق او بعضه في الجرس ، وهنالك ألفاظ متقاربة أو متشاكلة في المعنى ، بحيث تذكر الكلمة أختها في الجرس الصوتي وأختها في المعنى ، لما يولد المعنى الأول معنى ثانياً وثالثاً ، وهذه الناحية النفسية هي التي تشرح لنا كيف يقع التجنيس للشاعر دون معاناة إذا كان ملحاً بلغته محساً بذوقها عالماً بتصاريها واشتقاقها . [2]

ومن الجناس فمن ورد في شعر أبي العلاء احمد بن عبد الله بن سليمان ، وسماه لنا – مجانس التركيب – لأنه يركب من الكلمتين ما يتجانس به الصيغتان كقوله :

مطابـــــا مطابـــــا وجـــــدلن منـــي زل عنهـــا لـــيس عنـــي بمقلـــع

وما احفظ لاحد من الشعراء شيئاً قبيله ، وهو عندي غير حسن ولا مختار ولا داخل في وصف من أوصاف الفصاحة والبلاغة . [3]

والحق فأن الإحساس بأهمية الصوت وعذوبته داخل النص هو الذي دفع بالبلاغيين العرب إلى درس كل ما ورد ذكره سابقاً ، ومن هنا فأن الوقوف على جماليات النص الأدبي يقتضي الإحاطة بما يحدثه الصوت من جمال وتعبير عن دواخل النفس الإنسانية ، بل أن البناء الصوتي الذي يتجسد في التجنيس والتوازن والمطابقة والمماثلة والسجع وغيرها ، هو أحد العناصر الإبداعية

---

[1] أسرار البلاغة : 23 .

[2] ينظر : بلاغة ارسطو بين العرب واليونان : 117 .

[3] سر الفصاحة:190 ، ينظر : ثلاث رسائل في أعجاز القرآن – الرماني:99 فن الجناس:29/1 ، فنون بلاغية:236.

سواء في النصوص الأدبية أو في بناء النص القرآني المعجز ومن هنا نسعى إلى تأسيس مصطلح في عالم الإبداع هو (البلاغة الصوتية) وندعو إلى الاهتمام بما يقع في محيطه من علوم تسهم في رسم أسرار الإبداع .

ويبقى فن الجناس ومحسناته اللفظية والمعنوية محط أنظار وعناية الكثير من عشاق البلاغة الصوتية وفن القول ، وما يؤديه تجانس الألفاظ وانسجام أصواتها من حسن الاستماع وأثره في النفس التي تتشوق إلى سماعه .

المماثلة والمخالفة : assimilation dissimulation

من السنن التي جرت عليها العربية سعياً وراء الخفة والسير على النطق والتغيرات الصوتية في أبنية الكلم بين تقريب الصوت من الصوت أو المجانسة بينهما ، أو صيرورته إلى مثله ، أو مخالفته ، لما يحدث التماثل من نقل على اللسان في بعض الأبنية ، والصبغ فيتخلص منه بالتغير الى ما يخالفه.

فالمماثلة : Assimilation ، هي تأثير الصوت بالصوت الذي يليه او الذي قبله تأثيراً يجعله مثله او قريباً منه في الصفة أو في المخرج تحقيقاً للانسجام الصوتي في الألفاظ والكلام وتوفير للجهد العضلي الذي بذله الإنسان في أثناء النطق وعالج علماء العربية القدامى هذا الموضوع تحت أسماء ومصطلحات أخرى . [1]

يعالج قانون المماثلة تأثير الأصوات المتجاورة في الكلمات والجمل وميلها إلى الاتفاق في المخارج والصفات نزوعاً إلى الانسجام الصوتي ، واقتصاداً في الجهد الذي يبذله المتكلم ، فإذا التقى في الكلام صوتان من مخرج واحد أو من مخرجين متقاربين ، وكان أحدهما مجهوراً والأخر مهموساً مثلاً ، حدث بينهما شد وجذب ، وحاول كل منهما جذب صاحبه إليه ، يتماثله معه في صفاته كل منها أو في بعضها وكما يحصل هذا الانسجام بين صامت وأخر مثله ، فأنه حاصل بين حركة وأختها أو بين صوت صامت وبين حركة .[2] ومن أمثلة التماثل الأخرى ، والتأثر بالحذف ، حين تتجاوز أصوات متماثلة أو متقاربة ، وليس هذا الحذف مقصوراً على الصوامت وحدها بل يشمل الصوامت أيضاً ، وقد يكون الصامت جزءاً سمن الشكل في بنية الكلمة ، وقد

---

[1] المصطلح الصوتي : 232 ، 233 ، ينظر ، مباحث في علم اللغة واللسانيات ، 81 .

[2] في البحث الصوتي عند العرب : 70 .

يكون ذا وظيفة إعرابية . [1] إذن المماثلة ظاهرة صوتية تنسجم من مقاربة الأصوات أو مخرج حدثت مماثلة سواء ماثل أحدهما الأخر أو لم يماثله .

قال أبو هلال العسكري (395هـ) : " إن يريد المتكلم العبارة عن معنى فيأتي بلفظة تكون موضوعة لمعنى آخر [2] ، قال امرؤ القيس :

ثيـــاب بنـــي عـــوف طهـــارى نقيـــة وأوجههـــم عنـــد المشـــاهد غـــران [3]

وقال الأصمعي : اذا قالت العرب الثوب والإزراء ، فأنهم يريدون البدن .[4]

وقد فهم البلاغيون المشاكلة الصوتية على هذا الأساس أي على أساس التماثل ، وكان الحديث عندهم في العلاقة بين إطراف التماثل هو المصاحبة وقد اشار السكاكي (626هـ) إلى المصاحبة في قوله : " ومن المشاكلة وهي أن تذكر الشيء بلفظ غيره لوقوعه " [5] .

لقد نظر العلماء إلى المماثلة والاتباع انهما انسجام صوتي ، فمن ذلك ان سيبويه (180هـ) قال : : يتحكم في مسألة الانسجام الذي هو التماثل الصوتي نزوع اللسان نحو الخفة حين النطق بالأصوات الموصوته ، لأن رفع اللسان من وضع واحد أخف عليهم " [6]

إن التماثل أو التجانس أو التقارب الذي يحدث بين صوتين متجاورين والذي يؤدي إلى تقارب مخرجي الصوتين صفاتهما ، وهو ما يعرف عند علماء الأصوات (المماثلة) ، ولهذا عني المحدثون بمصطلح المماثلة في تأثر الأصوات المتجاورة ببعضها وميلها الى التقارب فيما بينها في الصفات والمخارج ويتحقق بذلك الانسجام بين الأصوات سعياً وراء الاقتصاد في الجهد العقلي وتيسير النطق"[7]

ووجد المحدثون ان ذلك التأثير يحدث في أحد اتجاهين ، فما أن يتأثر الصوت الأول بالثاني ، وأطلق عليه تأثر مدبر أو رجوعي وأما أن يتأثر الصوت الثاني بالاول واطلق عليه تأثر مقبل او تقدمي .

---

[1] التنغيم اللغوي في القرآن الكريم : 91 .

[2] كتاب الصناعتين : 314 .

[3] ديوانه : 115 .

[4] اللسان : مادة (أزر) .

[5] مفتاح العلوم : 429 ، ينظر : تحرير التخير : 114 .

[6] الكتاب 76/2 ، 77 .

[7] الأصوات اللغوية : 179 .

وقد أشار العلوي إلى هذا التماثل في المفهوم الأتي : " فضابط المماثلة أن كل كلام كان مفتقراً الى الجواب ، فأن جوابه يكون مماثلاً "[1] ولا شك في أن هذا التعريف يرصد لنا بدقة نمط التماثل البسيط ، والواقع أن كثيراً من التماثلات الصوتية قد وردت في القرآن ن ولكن نستطيع أن نتساءل كيف تشكلت التماثلات الصوتية في الآيات القرآنية وما هي البنى الأسلوبية لمثل هذه التماثلات الصوتية وطبيعتها التركيبية التي تشكلت منها ، وأظن أن مثل هذا يحتاج وقت أطول ومعرفة اعمق في أدراك التماثل الصوتي وهذه عملية ذهنية خفية لابد من أن يعينها حدس داخلي .

وإما المعنى فهو يتراوح بين التماثل والتخالف وهما علاقتان متداخلتان كقوله تعالى : ﴿**وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنْسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ**﴾ [2] ، أن الطرف الاول في التقابل في هذه الآية هو (تنساكم) والطرف الثاني هو (نسيتم) ولا شك في أننا ندرك التماثل اللفظي بين الطرفين ، فالطرفان أخذا من أصل واحد ، ولكن العلاقات المعنوية التي تنتج من السياق لا تقع في التماثل التام .[3]

أن ثمة نقطة جوهرية في هذا التماثل الصوتي ، وهي أن أصوات الطرف الأول كان يمثل اللفظ المجاور ، في حين إن أصوات الطرف الثاني كان يمثل اللفظ الحقيقي ، وذلك ان الطرف الأول يقع في المجاز لا في الحقيقة ، أو ثمة ملاحظة أخرى وهي أن لكل طرف مرادفاً بكشف عن حقيقة مضمونة .

وقد كانت معظم التماثلات الصوتية تثير معنى المواجهة بين المتماثلين ، كقوله تعالى : ﴿**هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ**﴾ [4] فالمتماثلان يظهران معنى المواجهة ، إذ واجهت الآية الطرف الثاني (الإحسان) بالطرف الأول (الإحسان) وهذه المواجهة بين الطرفين كانت قد ظهرت في التماثلات اللفظية والمعنوية في الانسجام الصوتي .

---

[1] الطراز : 387/2 ، ينظر : الكشاف : 514/2 .

[2] الجاثية : 34 .

[3] التقابل والتماثل في القرآن الكريم : 123 .

[4] الرحمن : 60 .

الفصل الثالث : دلالة الألفاظ في كتب البلاغة العربية .

المبحث الأول : الألفاظ الدالة على الأصوات .

المبحث الثاني : الدلالة الصوتية .

المبحث الثالث : الدلالة النفسية

المبحث الرابع : الدلالة الإيحائية .

المبحث الأول : الدلالة اللفظية :

ذهب بعض من علمائنا القدماء إلى وجود مناسبة طبيعية بين اللفظ ومدلوله فالألفاظ عندهم لم تنفصل عن دلالاتها الصوتية ، في كثير من الأحيان ، كما لم تتخل عن المعاني الدالة عليها نقدياً وبلاغياً في شتى الوجوه المرتبطة بها عند الإطلاق .

لاشك أن الخليل قد أفاد الدارسين العرب في مباحث معجمه (العين) حين بحث في تراكيب الكلمات من مواردها الأولية في الجذر البنيوي الحرفي ، وقد كان الخليل الرائد الأول في التفصيلات المعنية للبحث ، لأن مهمته كانت لغوية إحصائية ولكنها على كل حال تشير إلى دلالة الألفاظ كما يفهمها المعاصرون عن قصد أو غير قصد .

أما الجاحظ (255هـ) وهو حينما يتحدث عن مناسبة الكلام لمقتضيات المقام ، وهي حالة بلاغية ، إنما يتحدث بما يحدثه معنى اللفظ عند السامع من مفهوم لا يتعدى فيه المتكلم حدود دلالة الألفاظ على المعاني لدى المتلقي فيقول : " ينبغي للمتكلم أن يعرف أقدار المعاني ويوازن بينها وبين أقدار المستمعين ، وبين أقدار الحالات ، فيجعل لكل صيغة من ذلك مقاماً حتى يقسم أقدار الكلام على أقدار المعاني ، ويقسم المعاني على أقدار المقامات " [1] والجاحظ هو أول من قسم الدلالة إلى خمسة أقسام وعبر عنها بقوله : " وكلما كانت أوضح ، كانت الإشارة أبين وأنور ، كان أنفع وأجمع ، والدلالة الظاهرة على المعنى الخفي هو البيان الذي سمعت الله عزوجل يمدحه ويدعوا إليه ويحث عليه بذلك نطق القرآن وبذلك تفاخرت العرب " [2] وجمع أصناف الدلالات على المعاني من لفظ وغير لفظ في خمسة أشياء لا تنقص ولا تزيد : " أولها اللفظ ، ثم الإشارة ، ثم العقد ، ثم الخط ، ثم الحال التس تسمى نصبه ، وهي الحال الدال التي تقوم مقام تلك الأصناف ، ولا تقتصر عن تلك الدلالة ، ولكن واحد من هذه الخمسة ، صورة بائنة من صور صاحبتها ، وحلية مخالفة لحلية إختها وهي التي تكشف لك عن أعيان المعاني الخمسة " [3]

وتعد قضية الدلالة من أقدم قضايا الفكر من حضارات مختلفة ، واسهم فلاسفة ولغويون وبلاغيون وأصوليون عرب في بحث قضايا دلالية متنوعة ، فمنهم فن راح يبررها : إنما أوقعت العرب اللفظتين على المعنى الواحد ليدلوا على أتساعهم في كلامهم ، كما راحوا في أجزاء الشعر ، ليدلوا على آن دلالة اللفظ واسعة عندهم . [4]

---

[1] البيان والتبين : 139/1 ، ينظر : تطور البحث الدلالي : 34 .

[2] نفسه : 55/1 ، ينظر : دلائل الأعجاز : 42 ، 43 .

[3] نفسه :

[4] مدخل إلى علم اللغة : 84 ، ينظر : اللغة بين العقل والمغامرة : 151 .

لقد بدأ التحليل الصلة بين اللفظ ودلالته من نبع صغير كشفته ملاحظة الخليل بن احمد الفراهيدي (175هـ) في القرن الثاني للهجرة ، ثم صار ذلك النبع معيناً ضخماً ، استمد منه المتأخرون طاقة هائلة من التحليل التفصيلي العميق ، وأول ما جدب انتباه الخليل إلى دربه كانت الألفاظ المعبرة عن أصوات مسموعات ، ورأى فيها أصواتاً محاكية للطبيعة ، ولا أقول في ذلك الاتجاه ، يستهدف إثبات نوع من الصلة الطبيعية بين أجراس الحروف ودلالاتها من جهة ، ثم بين أنغام الألفاظ ومعانيها الكلية من جهة أخرى ، وفي ذلك النظر تبدو أصوات الحروف والصيغ مترابطة مع الدلالة ، وكان هنالك نتيجة ضرورية للإيحاء من تتابع الحروف وبناء الكلمات ، قالوا : كأنهم توهموا في صوت الجندب استطالة ومد ، فقالوا صر ، وتوهموا في صوت الباز تقطعاً فقالوا صرصر . [1]

مادة (صر) في كلمة (صرّ) من قوله تعالى: ﴿**وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ**﴾[2] وردة لفظة (صرّصرّ) في القرآن وأنت تلمس فيها اصطكاك الأسنان وترديد اللسان ، فالصاد في وقعها الصارخ ، والراء المضعفة ، والتكرار للمادة في صرّصرّ ، وقد أصفى صيغة الشدة ، وجسد صورة الرهبة في لفظ (الصرّ) ذائقة الشتاء ونازلة الثلج ، وأصوات الرياح العاتية ، فأما مادة (الصرّ) إذن وكما عبر عنها الراغب الأصفهاني (502هـ) " ترجع إلى الشدة لما في البرودة من التعقد . [3]

قال الزمخشري (538هـ) : " الصر : الريح بمعنى الباردة ، نحو صرّصرّ وفيه أوجه ، منها ، أن الصرّ في صفة الريح بمعنى الباردة ، وأن يكون الصرّ مصدراً بمعنى البرد فيعود به إلى اصله"[4].

ولكننا نضع أيدينا على الحسن الصوتي في اللغة ، فيعطينا دلالة لفظية خاصة ، مواليه لسياقات الحدث في هذا الصوت ، فريح صرّ وصرّصرّ ، شديدة البرودة ، وقيل شديدة الصوت.[5]

يقول البلاغيون إن : الارتباط بين اللفظ والمعنى ، إنما هو ارتباط الدلالة فيعتبر اللفظ بالنسبة إلى المعنى من جهة دلالته عليه ، ويعتبر بالنسبة الى اللفظ من جهة ما هو مدلول اللفظ،

---

[1] الخصائص : 152/2 .

[2] الحاقة : 6 .

[3] المفردات في غريب القرآن : 279 .

[4] الكشاف : 511/1 .

[5] الصوت اللغوي في القرآن الكريم : 187 .

لذلك فمدار الأمر البلاغي على اعتبار التراكيب اللغوية ، فالألفاظ المفردة ، ولا تستعمل لافادتها مدلولاتها المعنوية إلا عند التركيب . [1]

فان فائدة الألفاظ إن تكون دالة على الأصوات في إظهار المعنى .

وقوله تعالى : ﴿**فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعاً وَأَنَابَ**﴾ [2] إن هذا اللفظ وقد جاء بصيغة واحدة في عدة استعمالات يدل بجمله على السقوط والهوى مصحوباً بصوت ما ، وهذا الصوت هو الخرير ، والخرير هو صوت الماء أو صوت الريح أو صوتهما معاً ، فالحدث على هذا مستل من جنس الصوت ، ومن هنا يستشعر الراغب الأصفهاني (502هـ) ، دلالة اللفظ الصوتية فيقول : فمعنى خرّ سقط سقوطاً يسمع منه خرير ، والخرير يقال لصوت الماء وغير ، ذلك مما يسقط من علو " [3] وقوله تعالى : ﴿**خَرُّوا سُجَّدا**﴾ [4] ، فاستعمال الخرير تنبيه على اجتماع : السقوط ، وحصول الصوت منهم بالنسيج ، ووجه الدلالة فيما يبدو ، أن الخرّ يأتي بمعنى السقوط من شاهق وأن الخرير إنما يستعمل لصوت الماء أو الريح أو الصدى محاكياً لهذا اللفظ في ترديده ، فلم يرد مجرد السقوط من (خر) وإنما أراد الصوت مضافاً إليه الوقوع والوجه في أحداث هذا الصوت وكانت هذه الإضافة الدلالية صوتية سواء أكانت في صوت الماء أم بالوقوع والسقوط ام بالتسبيح والله أعلم . [5]

فإذا جئنا إلى عبد القاهر الجرجاني (471هـ) ، فهو حينما يتكلم عن الدلالة من خلال نظرية النظم لديه ، فإنما يتكلم عن الصيغة الفنية التي خلص إليها في شأن الدلالة ليقول : " وجب أن يعلم مدلول اللفظ ليس هو وجود المعنى أو عدمه ، ولكن الحكم بوجود المعنى او عدمه " [6] فالألفاظ دالة على المعنى لاشك ، ولكن الحكم القطعي عقلياً بوجود المعاني التي تدل عليها الألفاظ ، ودلالة الألفاظ لديه مرتبطة فيما تفيد من معنى عند التركيب ، والدليل لديه على ذلك ، أنك لو فككتها ونثرتها متباعدة غير منتظمة فلا تحصل على الدلالة نفسها وهي مترابطة مركبة . [7]

---

[1] بحث الرؤية الأسلوبية ، للدكتور ماهر مهدي هلال : 41 .

[2] البقرة : 24 .

[3] المفردات في غريب القرآن : 144 ، ينظر : الخصائص : 65/1 .

[4] السجدة : 15 .

[5] الصوت اللغوي في القرآن الكريم : 186 .

[6] دلائل الإعجاز : 234 .

[7] أسرار البلاغة : 3 ، 4 ، ينظر : تطور البحث الدلالي : 43 .

وفي حصول الألفاظ دوال على المعاني ، ولذلك تسنى الجزم بطواعية الألفاظ في عبور المجالات الدلالية واحداً بعد أخر ، وبطواعية المدلولات في ارتداء الألفاظ بعضها مكان بعض ، كما تسنى البت يحكم علاقة الإنسان باللغة موقفه الفاعلي منها في أمر استحداث المركبات الدلالية أصلاً بابتكار المدلول الذي كان منعدماً ، ثم صناعة دال له فيلتحمان فيكون منهما ومن التحامها مثلث دلالي جديد .

ويتبين لنا من إستقراءات الجرجاني أن التحول الدلالي ، إنمّا هو تقدير نسبي يسلط المتكلم على اللغة وعلى سامعه فيدرك السامع أنه فعلاً تسلط من المتكلم على جهاز اللغة من خلال دلالة الألفاظ الصوتية . [1]

وإذا كانت عناية العلماء العرب بالدراسة الصوتية هي قرينة بقضايا الإعجاز القرآني حين ذهب البعض أن القرآن معجز بالمعاني ، وذهب فريق آخر إلى أنه معجز بالألفاظ ، ومن ثمّ شرعوا في التنقيب عن أسباب الجودة والتلاؤم : والتأخر والتنافر ، إذا كانت تلك هي البدايات ، فسرعان ما امتد البحث إلى عالم الشعر والى عالم اللغة وصار الوعاء اللغوي هو الميدان ، لقد استشفوا أهمية العلاقة التي تربط اللفظ بدلالته ، وما زال البحث عن ذات العلاقة هو حجز الزاوية حتى يومنا هذا .

وكان لهذه السمة في دلالة الألفاظ مكانه بارزة في الإحكام النقدية والبلاغية منذ نشأتها وتدوينها ، فقد ذهب الجاحظ إلى تخصص اللفظ بالصوت الذي هو الجوهر الذي تتميز به المقاطع في التأليف فقال : " ولن تكون حركات اللسان لفظاً ولا كلاماً موزونا ولا منثوراً إلا بظهور الصوت " [2]

إما القول بدلالة الألفاظ على الألفاظ ، أو هو من الألفاظ نفسها فلا توافق السديد من التنظير ، إلا من حيث جرس الألفاظ ، وقد بحث عبد القاهر الجرجاني هذا : " وإما رجوع الاستحسان إلى اللفظ من غير شرك المعنى فيه وكونه من أسبابه ودواعيه ، فلا يكاد يعد نمطاً واحداً وهو أن تكون اللفظة فيما يتعرفه الناس في استعمالهم ويتداولونه في زمانهم "[3] ولا غرابة أن يربط عبد القاهر بين دلالة الألفاظ وعلم النفس في جملة من أضافته القيمة .

---

[1] التفكير اللساني : 186 ، 194 .

[2] البيان والتبيين : 79/1 .

[3] أسرار البلاغة : 5 ، 8 ، ينظر : تطور البحث الدلالي : 46 .

وقال الجرجاني : " إن اللفظة تبع للمعنى في النظم ، وأن الكليم تترتب في النطق بسبب ترتب معانيها في النفس ، وأنها لو خلت من معانيها حتى تتجرد أصواتا وأصداء حروف " [1] ، ثمّ قال : " وأنت تعلم أن العرب مشتركة في اللفظة واللسان ، وأنها سواء في النطق والعبارة ، وإنما تفضل القبيلة أختها بشيء من الفصاحة ، ثم قد نجد الرجل منها شاعراً مغلقاً وابن عمه وجار جنابه ولصيق طينه بكياً مفحماً ، وتجد فيها الشاعر اشعر من الشاعر ، والخطيب ابلغ من الخطيب " [2]

إن كل الجهود التي تبذل تستهدف الوصول إلى الإدراك ، وكشف الدلالات هو غاية العناية باللغة أو بالإدارة التي تحقق الإنسان وليس بشرط أن تقبل كل ما قال به السابقون من أن اللغة ظاهرة اجتماعية ، أنها ابعد من ذلك ، تستوعب الممكن الاجتماعي وتتجاوزه بأدلة أصواتها ، ولقد نشطت مناهج مختلفة تدرس الدلالة والإمساك ببعض قوانينها . [3]

لأن الألفاظ تكتسب دلالتها من جرس أصواتها فينشأ ما يسمى بالمناسبة الطبيعية بين الأصوات والدلالات فتكون عملية التحول بالصوت دال قدرك عملية قصدته يشحنها الشاعر بالتواتر الذاتي حسب المقتضيات ، بحيث يجعل من الصوت صدى للمعنى وقد تؤدي شدة التأثير بالباعث الصوتي على توليد الكلمات إلى ما يكاد يكون اعتقاداً غامضاً في وجود مطابقة بين الصوت والمعنى .

وإن عبد القاهر قال : " فإذا وجب المعنى أن يكون أولاً في النفس ، وجب في اللفظ الدال عليه إن يكون مثله أولاً في النطق " [4]

وقد أخذ إبن الأثير (637هـ) بهذا المبدأ في اختيار اللفظ ، فإستجاد اللفظ المزيد إذا كان المعنى يقتضيه ، وعده أدق في الدلالة على المعنى الكثير من اللفظ المجرد فقال : " ومما يجرى هذا المجرى قولنا فعل وافتعل فان لفظة فعل لها موضع تستعمل فيه ، إلا ترى انك تقول : قعدت على غارب الجمل ، وأن جاز ذلك ، لكن الأول احسن ، وهذا لا يحكم فيه غير الذوق السليم ، فأنه لا يمكن أن يقام عليه دليل " [5] ويرى إبن الأثير في الألفاظ مركبة دلالة مستنبطة هي غير دلالتها مجردة .

---

[1] دلائل الإعجاز : 56 ، ينظر : من بلاغة القرآن : 58 ، الأسس الجمالية : 273 .

[2] الوساطة : 12 .

[3] اللغة بين العقل والمغامرة : 30 .

[4] دلائل الإعجاز : 43 .

[5] المثل السائر : 191/1 ، ينظر : النقد اللغوي عند العرب : 292 .

وفي دلالة الألفاظ على معانيها مسبوكة ، يشير إبن الأثير إلى موقع اللفظ من النظم والى أهمية النظم في تقويم دلالة اللفظ فيقول : " بل أريد أن تكون الألفاظ مسبوكة سبكاً غريباً ، يظن السامع أنها غير ما في أيدي الناس وهي مما في أيدي الناس " [1]

ويؤكد إبن الأثير على المعنى الدلالي بمنظور يقابل المنظور السابق ، فعندما يتحدث عن الإيجاز يقول : " والنظر فيه إنما هو المعاني لا إلى الألفاظ بحيث تعرى عن أوصافها الحسنة ، بل اعني ان مدار النظر في هذا النوع ، إنما يختص بالمعاني فرب لفظ قليل يدل على معنى كثير ورب لفظ كثير يدل على معنى قليل . [2]

ونجده يبحث تفصلات واسعة المداليل ، ولكنه لا ينسى نظريته في دلالة الألفاظ او المعنى الدلالي ، ثم يقول في موقع آخر : " فان كل عارف بأسرار الكلام من أي لغة كانت يعلم أن إخراج المعاني في الألفاظ حسنة رائقة يلذها السمع ولا ينبو عنها الطبع ، خير من اخراجها في الفاظ قبيحة مستكرهة ينبو عنها السمع " [3]

ويوضح العلوي مراد الدلالة في علم البيان فيقول : " فأن علم اللغة وعلم الفصاحة وأن كانا متعلقها الألفاظ المفردة ، لكنهما يفترقان في الدلالة " [4]

وقد أشار السكاكي (626هـ) بقوله : " وإذا عرفت أن دلالة الكلمة على المعنى موقوفه على الوضع ، وأن الوضع تعيين الكلمة بازاء معنى بنفسها ، وأن دلالة معنى على معنى غير ممتنعة ، عرفت صحة أن تستعمل الكلمة مطلوباً بها نفسها ، تارة معناها الذي موضوعة له ، مطلوباً بها أخرى ، معنى معناها بمعونة قرينة " [5]

لا تبقى دلالة المفردة على ما عرفت به في تاريخ وضع المعنى للفظ بل ان موضوع دلالة الألفاظ هي من المتغيرات التي تشهدها كل لغات العالم ، وذلك بسبب التطور الدلالي ، والاستعمالات المجازية ، وتغير المواقف النفسية والكلامية ، وبين مستعملي اللغة وانحدار المعنى أو ارتفاعه .[6]

---

[1] نفسه : 122/1 .

[2] نفسه : 265/2 ، ينظر : تطور البحث الدلالي : 49 ، 50 .

[3] نفسه : 120/1 .

[4] الطراز : 17/1 ، ينظر : جرس الألفاظ : 287 / التفكير اللساني : 118 .

[5] مفتاح العلوم : 358 .

[6] مباحث في علم اللغة واللسانيات : 167 .

وكما هو معروف فأن الدلالة هي علاقة اللفظ بالمعنى فدلالة الألفاظ معانيها التي ينصرف إليها الذهن ، وعلم الدلالة أحد فروع علم اللغة واليه تنتهي الدراسات اللغوية بمختلف مجالاتها ، وقد وجد المحدثون أن كل لغة تسير في تطورها الدلالي على هدى خطوط عامة أطلقوا عليها قوانين المعنى.

تناول المحدثون هذه المظاهر بالبحث في جملة مصادر منها : دلالة الألفاظ ، فقه اللغة وخصائص العربية ، دلالة الألفاظ العربية وتطورها ، لحن العامة في ضوء الدراسات اللغوية الحديثة. [1]

يذكر الدكتور إبراهيم أنيس ، إن الصلة بين اللفظ ومدلوله قد استرعت انتباه قدماء اليونانين : "وبدأ من سحر الألفاظ في أذهانهم وسيطرتها على تفكيرهم أن ربطوا بينها وبين مدلولاتها ربطاً وثيقاً ، وجعلوها سبباً طبيعياً للفهم والإدراك ، فلا تؤدي الدلالة إلا به ولا تخطر الصورة في الذهن إلا حين النطق بلفظ معين ، ومن أجل هذا أطلق هؤلاء المفكرون على الصلة بين اللفظ ومدلوله الصلة الطبيعية أو الصلة الذاتية "[2] .

قسم الرازي دلالة الألفاظ على المعنى إلى قسمين ، وضعية وعقلية ، وقال : " فالوضعية كدلالة الألفاظ على المعاني هي موضوعة بازائها ، كدلالة الحجر والجدار والسماء والأرض على مسمياتها ، وأما العقلية فأما على ما يكون داخلاً في مفهوم اللفظ ، كدلالة لفظ البيت على السقف الذي هو جزء مفهوم البيت ، والإشارة في كونها عقلية لامتناع وضع اللفظ بازاء حقيقة مركبة ولا يكون متناولاً لأجزائها ، وأما على ما يكون خارجاً عنه كدلالة لفظ السقف على الحائط فأنه لما امتنع انفكاك السقف على الحائط عامة . ثم يتحدث الرازي عن الدلالة الوضعية والمعنوية أو الفصلية ثم يقول : " إن المقصود من الأبحاث المتعلقة بالدلالة اللفظية فتحصر في أمرين أحدهما ، أن الفصاحة والبلاغة لا يجوز عودهما إلى الدلالة اللفظية ، والأخر ، أن الفصاحة وأن كانت غير عائدة إلى الدلالة اللفظية أن الأمور العائدة إلى جوهر اللفظ ودلالته الوضعية ما يقيد الكلام كمالاً وزنة وجمالاً . [3]

ومن المتأخرين الذين تحدثوا عن الدلالة اللفظية حازم القرطاجني (684هـ) نجده يؤكد الحقائق الدلالية السابقة لعصرة ، وعنده أنها من الطلسات حتى أنه لتقاربت بين دلالة المعاني والألفاظ ويعير عنها بصورة ذهنية ، وهو إنما يحقق في ذلك من أجل أن يتفرغ لإتمام اللفظ

---

[1] اللغة بين العقل والمغامرة : 60 ، 61 .

[2] دلالة الألفاظ : 62 .

[3] فخر الدين الرازي بلاغياً : 110 ، 117 .

بالمعنى وإتمام المعنى باللفظ إذ يقول : " إن المعاني هي الصور الحاصلة في الأذهان على الأشياء الموجودة في الأعيان ، فكل شيء له وجود خارج الذهن ، وأنه إذا أدرك حصلت له صورة في الذهن تطابق لما أدرك منه ، فإذا عبر عن تلك الصورة الذهنية الحاصلة عن الإدراك أقام اللفظ المعبر به هيأة تلك الصورة في إفهام السامعين وأذهانهم " [1] قال النابغة :

فأنك كالليل الذي هو مدركي وان خلت ان التماي عليك واسع

يقول الجرجاني : " ولو اقتصرنا في رصد الدلالة على ما يفهم من الليل باعتبار الإظلام لفاتت الفائدة ، فمن الخطأ اعتبار السواد هو الخاصية المطلوبة على أساس أن الشاعر يقع بهذا تحت غضب الملك بحيث يرى كل شيء اسوداً " [2] وأن كلمة الليل توضح إبعاداً دلالية أخرى يصيغها السياق وتركيب الكلام .

وما قال به النحاة من الزيادة فأن عبد القاهر يتلقفه ليحيله إلى تحليلات إبداعية فلا يتصور أن تسلب الكلمة دلالتها وتعول بزيادتها ثم لا تعطيها دلالة أخرى ، وأن تخليها من أن يراد بها شيء على وجه من الوجود لأن وصف اللفظ بالزيادة يفيد ان لا يراد بها معنى وان يجعل كان لم يكن لها دلالة قط . [3]

والجانب المحسوس من اللغة وهو الصوت بوصفه وسيط الدلالة في عملية التوصيل والإبلاغ والقناة الحاملة للمعنى بأقرار ، أن الدال وسيط مادي للمدلول بحكم المؤثرات الحسية التي تشجنها اللغة على مستوى اللفظة بوصفها رمزاً دالاً وعلى مستوى التركيب المتسم بالتردد الصوتي المولد للإيقاع .

وان الدلالة عند العرب واضحة ، لأن الفروق التعبيرية بين الحالتين عند المحدثين من الأوربيين والقدماء من العرب ، تتجلى في نتائج البحث الدلالي ، فكأنك لا تلمس شيئاً محسوساً في التعبير الحديث ، بينما تضع بصماتك على الأثر الجلي في المدرسة الدلالية عند العرب .

---

[1] منهاج البلغاء : 18 ، ينظر : كتاب الصناعتين : 13 .

[2] أسرار البلاغة 221 .

[3] نفسه : 362 ، ينظر : تطور البحث الدلالي : 26 ، التفكير اللساني : 181 ، من بلاغة القرآن : 186 ، الثورة التكنلوجية واللغة : 8 .

المبحث الثاني : الدلالة الصوتية : –

الدلالة الصوتية في البحث اللغوي قديمة راسخة أطرها ابن جني واقر صلاحها عندما قال: " وذهب بعضهم إلى أن اصل اللغات كلها إنمّا هو من الأصوات المسموعات ، كدوي الريح ، وحنين الرعد وخرير الماء ، وشحيح الحمار ونعيق الغراب ، وصهيل الفرس " [1] وذكرنا هذا في التمهيد ، ولعل ما ذهب إليه ابن جني قد هيأ لأبن الأثير الأساس الذي أقام عليه المفاضلة بين الألفاظ باعتبارها داخلة في حيز الأصوات ، ووضع لها مقايسات الحسن والقبح من خلال ما يستحسب ويستقبح من الأصوات .

---

[1] الخصائص : 46/1 .

ولا يسلم للفظة مدلولها الصوتي دائماً لأنها لا تحد بالتعاريف التجريدية التي تحددها به المعجمات إذ يحيط المعنى المنطقي لكل كلمة جو عاطفي ينفذ فيها ويعطيها ألواناً مؤقتة على حسب استعمالاتها هي التي تكون قيمتها التعبيرية ، فقيمة اللفظ عندما ينقطع مدلولها .

لم تكن الألفاظ التي يطلقها الإنسان أصواتاً محضة وإنما هي أصوات دالة ، وهذه الأصوات التي تصدر عنا ليست هدفاً لذاتها وإنما هي وسيلة تتخذها للتعبير عن الدلالات أو الخواطر التي تجول في أذهاننا ، وقد جعل الجاحظ اللفظ أول أصناف الدلالات أو الخواطر التي تجول في أذهاننا ، وقد جعل الجاحظ اللفظ أول أصناف الدلالات على المعاني ، وقال : " والدلالة الظاهرة على المعنى الخفي "[1] وفي كلام العرب ما يقع كالإيحاء ، كما يقول المبرد : فغني عند ذوي الألباب كشفه ، كما قيل : لمحة دالة .[2]

وذهب الأصفهاني أن الأصل في الألفاظ تكون مختلفة بحسب اختلاف المعاني وحصر دلالة اللفظ على المعنى في خمسة أحوال ، قال : " فالمعنى الواحد قد يدل عليه بأشياء كثيرة أما باسمة نحو إنسان أو آدمي وولد حواء ، أو يأخذ خصائصه اللازمة له ، كالمنتصب القامة أو الماشي برجليه ... ويرى الأصفهاني أن حدود الدلالة كائنة في الأشياء إما لأن الشيء لا يمكن إبرازه في نفسه إلا بالعبارات الدالة على وصافة ، وأما لأن الشيء له تركيبات وأحوال فيجعل له بحسب كل واحد منها اسم " [3]

ويعد فخر الدين الرازي من أوائل البلاغيين الذين ادخلوا الدلالة في بحث البيان وعقلية والتزاميه ، وسبق الحديث عن ذلك في المبحث السابق .

وإن العرب القدماء تفننوا في طرق ترديد الأصوات في الكلمة حتى يكون لها نغم وموسيقى ليسترعي القلوب والعقول بمعانيه وترددات ، وهذا ما يدل على مهارتهم في نسج مدلول الكلمات وبراعتهم في ترتيب الحروف وتناسقها والهدف من هذا كله ، هو العناية بحسن جرس الكلمة ووقع دلالتها الصوتية في الأسماع ، فالصوت أشبه بفاصلة موسيقية متعددة النغم مختلفة الألوان .

وقد ترددت الدلالة الصوتية عند القدماء من البلاغيين واللغويين ، فالفراء (207هـ) في كتابه معاني القرآن إشارات إلى دلالات صوتية في القرآن الكريم ، من غير أن يقيدها بمصطلحات ، فقد نبه على الإيقاع في آيات القرآن وفواصل الآيات أو رؤوس الآيات ، من ذلك تعليله الفاصلة في

---

[1] البيان والتبيين : 75/1 .

[2] الكامل : 17/1 ، نقد الشعر : 151 .

[3] المفردات في غريب القرآن : 580 ، ينظر : الكشاف : 242/2 / أساس البلاغة : 134 معجم المصطلحات البلاغية وتطورها : 93 .

قوله تعالى : ﴿**وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ**﴾[1] ، لو قيل ، والله أعلم بما يعون ، لكان صواباً لكنه لا يستقيم في القراءة . [2] وهذه إشارة إلى الدلالة الصوتية .

وأبو عبيدة (210هـ) في كتابه مجاز القرآن ، مهد الطريق لمعرفة كثير من الألفاظ القرآنية المتنوعة الدلالات عن طريق خاصية الصوت ودلالته فتحدث أبو عبيدة في كتابه عن المجازات القرآنية ودلالتها الصوتية ، ومن ذلك مثلاً وصفه دلالة التعبير في قوله تعالى : ﴿**اعْمَلُوا مَا شِئْتُم**﴾[3] كما تعرف من نغم الكلام الموحي بالدلالة الصوتية عن الغرض . [4]

ولا شك أن استقلالية آية كلمة بحروف معينة ، يكسبها ذائقة صوتية وسمعية منفردة ، تختلف ، دون شك ، عما سواها من الكلمات التي تؤدي المعنى نفسه ، مما يجعل كلمة ما دون كلمة ، وأن اتحدا بالمعنى ، لها استقلاليتها الصوتية ، أما في الصدى المؤثر ، وأما في البعد الصوتي الخاص ، وأما بتكثيف المعنى بزيادة المبنى ، وأما بإقبال العاطفة ، وإما بزيادة التوقع فهي حيناً تصك المسمع ، وحيناً تهيئ النفس ، وحيناً تضفي الصيغة التأثير فزعاً من شيء ، أو توجها لشيء أو طمعاً في شيء من خلال دلالته الصوتية . [5]

وإبن قتيبة (276هـ) قد تكلم عن الدلالة الصوتية بإشارات إلى انه قد يتغير المعنيات المتقاربات صوتياً بتغير حرف في الكلمة حتى يكون تقاربه ما بين اللفظتين كتقارب ما بينهما كقولهم : " للماء المالح والذي لا يشرب إلا عند الضرورة (شروب) ولما كان دونه مما قد يتجوز به (شريب) ثم عرض ابن قتيبة لما خفي على الناس الذين لا يعرفون إلا اللفظ الظاهر ودلالته على معناه ، وأن للقرآن من القوة والجمال ، ما قد يخفى على غير أهل الذوق وأرباب البصيرة بالفن البلاغي لذلك يقول : " لا يعرف فضل القرآن إلا من كثر نظره واتسع علمه وفهم مذاهب العرب وافتتانها في الأساليب " [6]

وهذا المناخ الحافل تضيفه الدلالة الصوتية للألفاظ ، وهي تشكل في القرآن الخاص المتجلى بكلمات مختارة دالة ، تكون من حروف مختارة فشكلت أصواتاً مختارة ، وهذه السمات في القرآن

---

[1] الانشقاق : 23 .

[2] معاني القرآن : 252/3 .

[3] فصلت : 40 .

[4] مجاز القرآن : 197/2 .

[5] الصوت اللغوي في القرآن الكريم : 164 ينظر : لغتنا الجميلة : 165 ، الصورة الفنية في آيات النور : 60 .

[6] تأويل مشكل القرآن : 16 ، 10 .

بارزة الصيغ في مئات التراكيب الصوتية في مظاهر شتى ، ومجالات عديدة ، تستوعبها جمهرة هائلة من الألفاظ في ظلال مكثفة في الجرس والنغم والصدى والإيقاع .

وجهود العلماء العرب معروفة في هذا الاتجاه ، فالرماني (386هـ) في كتابه (النكت في إعجاز القرآن) يشير إلى قضايا صوتية بتقسيمه البلاغة إلى عشرة أقسام وأولى اللفظ الذي هو أصوات ، أهمية خاصة ، وهو يتكلم على ما يخص اللفظ كالتلاؤم والفواصل والتجانس واثر ذلك في النفس ، وعن أي طريق تنفذ إليها ، من طريق حاسة السمع أم حاسة البصر ، أم الذوق، لأن البلاغة عنده ، ليست مجرد إفهام المعنى ودلالته الصوتية وإنما : " في إيصال المعنى إلى القلب في احسن صورة من اللفظ . [1]

ويقصد بهذا ما يتعلق بالدلالة البلاغية وتأثيرها في النفس ، وإيصال المعنى إلى القلب والجانب الأخر متعلق بالأسلوب أو الصورة البلاغية المسموعة من اللفظ والصياغة أو النظم.

أمّا الخطابي (388هـ) الذي عاصر الرماني والمستفيد من جهود علماء البلاغة القدماء قال : " إن الكلام إنما يقوم بأشياء ثلاثة : لفظ حاصل ، ومعنى به قائم ، ورباط لهما ناظم وإذا تأملت القرآن وجدت هذه الأمور منه في غاية الشرف والفضيلة ، حتى لا ترى شيئاً من الألفاظ أفصح ، ولا أجزل ، ولا أعذب من ألفاظه " [2]

وهذا مما ينطبق على استيحاء الدلالة الصوتية في القرآن بجميع الأبعاد يضاف إليه الوقع السمعي للفظ والتأثير النفسي للكلمة من خلال مدلول صوتها .

وذهب إبن سنان الخفاجي (466هـ) إلى تقرير دلالة الصوت على إنها دلالة ذاتية لأنه : " لا يجوز وجود الصوت إلا في محل ... ولأنه يختلف ، باختلاف حال محله فيتولد من الصوت في (الطلست) خلاف ما يتولد في (الحجر) فالصوت حادث من أثر المصاككة الموضعية لذات الشيء المحدث له وكذلك أصوات الألفاظ فهي ساذجة غفلة تحدث لها في الحلق والفم والشفتين مقاطع تثنيها عن امتدادها فتخرج الحروف ومنها الألفاظ دالة على جهات الكلام كحروف الشيء وجهاته " [3] وهذه الدلالة الصوتية هي التي تستمد من طبيعة الأصوات نغمتها وجرسها ، فتوحي بوقع موسيقي خاص ، يستنبط من ضم الحروف بعضها إلى البعض الأخر .

---

[1] النكث في إعجاز القرآن : 75 .

[2] ثلاث رسائل في أعجاز القرآن : 27 .

[3] سر الفصاحة : 11 ، ينظر : دلالة الألفاظ : 46 ، المثل القرآني : 277 .

وحكاية الأصوات في الشعر العربي ، ظاهرة ناجمة عن نزوع المبدع إلى محاكاة الواقع وتصويره ، قال أمرؤ القيس :

على العقب جياش كأن اهتزامه اذا جاش فيه حميه على مرجل [1]

تجد فيه كلمتي (جياش) و (واهتزامه) تحكيات تردد أنفاس الحصان وحركته حتى اذا قرنتها (يغلي المرجل) تحول المعنى بدلالة صوت الغليان الذي يدل على الحركة والاضطراب إلى معنى ثان قصده الشاعر ، وهو بسرعة حصانه ، وقد ولد ذلك في ذهن المتلقي قدرة ضيقة المبالغة التعبيرية والمصدر بدلالته الصوتية .

وأول من أشاره إلى المناسبة بين اللفظ ومدلوله او الصوت وما يدل عليه من علماء اللغة العربية هو الخليل بن احمد الفراهيدي (175هـ) ، الذي يرى أن هناك اتفاقاً بين الصوت وما يدل عليه ، لقد بدأ تحليل الصلة بين اللفظ ودلالته الصوتية من منبع صغير كشفته ملاحظة الخليل في القرن الثاني للهجرة ، ثم صار ذلك النبع معيناً ضخماً ، استمد منه المتأخرون طاقة هائلة من التحليل التفصيلي العميق ، وأول ما جدب انتباه الخليل إلى ذلك كانت الألفاظ المعبرة عن أصوات مسموعات ، وأرى فيها أصواتاً محاكية للطبيعة ، ولا قول في ذلك الاتجاه يستهدف إثبات نوع من الصلة الطبيعية بين أجراس الحروف ودلالاتها من جهة ، ثم بين أنغام الألفاظ ومعانيها الكلية من جهة أخرى ، وفي ذلك النظر تبدو الحروف والصيغ مترابطة مع الدلالة ، وكان هنالك نتيجة ضرورية للإيحاء من تتابع الحروف ، أو بناء الكلمات .

قال الخليل : " كأنهم توهموا في صوت الجندب استطالة ومر ، فقالوا (صرّ) وتوهموا في صوت الباز تقطعاً ، فقالوا ، (صرّصرّ)[2] .

لقد ذهب بعض من علمائنا القدماء إلى وجود مناسبة طبيعية بين اللفظ ومدلوله ، من الألفاظ عندهم لم تنفصل عن دلالتها الصوتية في كثير من الأحيان ، كما لم تتخل عن المعاني الدالة عليها نقدياً وبلاغياً في شتى الوجوه المرتبطة بها عند الإطلاق .

لاشك أن الخليل قد أفاد الدارسين العرب وغيرهم في مباحث معجمه الأصيل (العين) حين يتحدث في تراكيب الكلمات من مواردها الأولية في الجذر البنيوي الحرفي وقد كان الخليل الرائد

---

[1] ديوانه : 37 .

[2] الخصائص : 152/2 ، ينظر : لسان العرب مادة (صرر) ، الكشاف : 206/3 .

الأول في التفصيلات المضنية للبحث ، لأن مهمته كانت لغوية إحصائية ولكنها على كل حال تشير إلى دلالة الألفاظ الصوتية كما يفهمها المعاصرون عن قصد أو غير قصد . [1]

أما الجاحظ (255هـ) وهو حينما يتحدث عن مناسبة الكلام لمقتضياته وهي حالة بلاغية إنما يتحدث عما يحدثه معنى اللفظ عند السامع من مفهوم لا يتعدى فيه المتكلم حدود دلالة الألفاظ الصوتية على المعاني لدى المتلقي فيقول : " ينبغي للمتكلم أن يعرف أقدار المعاني ويوازن بينها وبين أقدار المستمعين وبين أقدار الحالات فيجعل لكل طبقة من ذلك مقاماً حتى يقسم أقدار الكلام على أقدار المعاني " [2]

وهو بهذا يريد أن يتحدث عن الدلالة في أبعادها المخصصة لها ، فلا تتعدى حدودها ولا تتجاوز مفهومها ، وأن ربط بينها وبين عقلية المتلقي في مطابقة المقام المقتضى الحال كما يقول البلاغيون ، ومطابقة الكلام لمناسبة المقام .

إن موضوع دلالة الألفاظ الصوتية ، هو من المتغيرات التي تشهدها كل لغات العالم ، وذلك بسبب التطور الدلالي ، والاستعمالات المجازية ، وتغير المواقف النفسية والكلامية وبين مستعملي اللغة وانحدار المعنى أو ارتفاعه ، فترتيب الألفاظ في النطق يكون بترتيب المعاني في الذهن ، وأن مزية دلالة الألفاظ ليست في سماعها بالأذن ، بل حيث ترتيب الألفاظ بأصواتها على ترتيب المعاني في النفس . وفي صحيفة يشر بن المعتمر ، ذكر للبلاغة وحديث عن مظان الكلام فصاحته يقول فيها : " خذ من نفسك ساعة فراغك ، وفراغ بالك وأجابتها إياك وأن قليل تلك الساعة جوهراً ، واشرف حسباً ، وأحسن في الإسماع ، وأحلى في الصدور واسلم من فاحش الخطأ ، وأجلب لكل عين وغرة من لفظ شريف ومعنى بديع ... وكن في إحدى ثلاث منازل : فأن أولى الثلاث أن يكون لفظك رشيقاً عذباً ، وفخماً سهلاً ، ويكون معناك ظاهراً مكشوفاً وقريباً معروفاً ، فأن أمكنك أن تبلغ من بيان لسانك وبلاغة قلمك ، ولطف مداخلك ، واقتدارك في نفسك على أن تفهم العامة الخاصة وتكسوها الالفاظ المتوسطة التي لا تلطف عن الدهاء ولا تجفو عن الإلقاء ، فأنت البليغ التام . [3]

وكان لهذه السمة في الألفاظ مكانة بارزة في دلالتها الصوتية ، وفي الأحكام النقدية والبلاغية ، منذ نشأتها وتدوينها ، فقد ذهب الجاحظ إلى تخصيص اللفظ بالصوت الذي هو الجوهر الذي تتميز به المقاطع في التأليف .

---

[1] تطور البحث الدلالي : 34 .

[2] البيان والتبيين : 139/1 .

[3] نفسه : 135/1 ، 136 ، ينظر : العمدة : 213/1، تطور البحث الدلالي 39 ، اللغة بين العقل والفكر : 54 .

ومن هنا نلحظ أهمية الصوت عند الجاحظ وبدونه لا يتم الكلام بشكله السليم والمفهوم ، ولم تكن الألفاظ التي يطلقها الإنسان أصواتاً محضة وإنما هي أصوات دالة وهذه الأصوات التي تصدر عنها ليست هدفاً لذاتها وإنما هي وسيلة تتخذها للتعبير عن الدلالات أو الخواطر التي تجول بأذهاننا ، وقد جعل الجاحظ اللفظ أول أصناف الدلالة على المعنى وقال : " والدلالة الظاهرة على المعنى الخفي " [1]

وفي كلام العرب ما يقع كالإيحاء ، كما يقول المبرد ، فغني عند ذوي الألباب كشفه ، كما قيل . لمحة دالة "[2] وذهب الأصفهاني (502هـ) أن الأصل في الألفاظ تكون مختلفة بحسب اختلاف المعاني وحصر دلالة اللفظ على المعنى في خمسة أحوال ، قال : " فالمعنى الواحد قد بدل عليه بأشياء كثيرة أما باسمه نحو إنسان أو آدمي وولد حواء ، أو بأحد خصائصه اللازمة له كالمنتصب القامة أو الماشي برجليه .. "[3] ويرى الأصفهاني حدود الدلالة كائنة في الأشياء أما لأن الشيء لا يمكن إبرازه في نفسه ، ألا بالعبارات الدالة على أوصافة ، وإما لأن الشيء له تركيبات وأحوال فيجعل له بحسب كل واحد منهم اسم .

ويعد فخر الدين الرازي (606هـ) من أوائل البلاغيين الذين أدخلوا الدلالة في بحث البيان وجعلها مقدمة لبحث علوم البلاغة ، وقد فصل الرازي القول في الدلالات وقسمها إلى : وضعية وعقلية والتزامية . [4]

وقال الرازي : " فالموضعية كدلالات الألفاظ على المعاني هي موضوعة بازائها ، كدلالة الحجر والجدار والسماء والأرض على مسمياتها ، وإما العقلية فأما يكون داخلاً في مفهوم اللفظ ، كدلالة لفظ البيت على السقف ، الذي هو جزء مفهوم البيت ، ولاشك في كونها عقلية ، لامتناع وضع اللفظ بازاء حقيقة مركبة ولا يكون متناولاً لأجزائها ، وإما على ما يكون خارجاً عنه كدلالة لفظ السقف على الحائط ، فأنه لما امتنع انفكاك السقف على الحائط عادة ... أن المقصود من الأبحاث المتعلقة بالدلالة اللفظية ، منحصر في أمرين أحدهما : أن الفصاحة والبلاغة لا يجوز عودهما إلى الدلالة اللفظية ، والأخر ، أن الفصاحة وأن كانت غير عائدة إلى الدلالة اللفظية . وأن الأمور العائدة إلى جوهر اللفظ ودلالته الوضعية ما يقيد الكلام كمالاً وزنه وجمالاً . [5] فإذا

---

[1] نفسه : 75/1 .

[2] الكامل : 17/1 .

[3] المفردات في غريب القرآن : 58 .

[4] نهاية الإيجاز : 8 ، ينظر : جرس الألفاظ : 287 .

[5] نهاية الإيجاز : 8 ، ينظر : فخر الدين الرازي بلاغياً : 110 ، 117 .

جئنا إلى عبد القاهر الجرجاني (471هـ) فهو حينما يتكلم عن الدلالة من خلال نظرية النظم لديه ، فإنما يتكلم عن الصيغة الفنية التي خلص إليها في شأن مدلولها الصوتي .

يقول : " وجب أن يعلم مدلول اللفظ ليس هو وجود المعنى أو عدمه ، ولكن الحكم بوجود المعنى أو عدمه "[1] فالألفاظ دالة على المعنى لاشك ، ولكن الحكم القطعي عقلياً بوجود المعاني التي تدل عليها الألفاظ .

ودلالة الألفاظ لديه مرتبطة فيما تفيد من معنى عند التركيب ومن هنا يتضح لنا أن دلالة الألفاظ بأصواتها هي التي تساعدنا إلى معرفة المعنى من خلال نظم الكلمات وتركيبها .

وتتواصل مع جهود علماء الفصاحة والبلاغة في إرساء الأسس الرصينة للدال والمدلول وعلاقته باللفظ والصوت ، أما القول بدلالة الألفاظ على الألفاظ أو هو من الألفاظ نفسها فلا توافق السديد من التنظير ، إلا من حيث جرس الألفاظ ، وقد بحث عبد القاهر الجرجاني في هذا كثيراً في كتابيه دلائل الإعجاز وأسرار البلاغة ، إذ يقول : " وأما رجوع الاستحسان إلى اللفظ من غير شرك المعنى فيه وكونه من أسبابه ودواعيه ، فلا يكاد يعد نمطاً واحداً وهو أن تكون اللفظة فيما يتعرفه الناس في استعمالهم ويتداولونه في زمانهم . [2]

ولا غرابة أن يربط عبد القاهر بين دلالة الألفاظ بأصواتها، وعلم النفس في جملة من أضافاته القيمة .

وقد لمح الجرجاني هذا المعنى وأن كان قد حشد لها فقال : فأذا وجب المعنى أن يكون أولاً في النفس ، وجب في اللفظ الدال عليه أن يكون مثله أولاً في النطق ... من أن اللفظ تبع للمعنى في النظم ، وأن الكلم تترتب في النطق بسبب ترتب معانيها في النفس ، وأنها أو خلت من معانيها حتى تتجرد أصواتا وأصداء حروف . [3]

لأن الألفاظ تكتسب دلالتها من جرس أصواتها ، فينشأ ما يسمى بالمناسبة الطبيعية بين الأصوات والدلالات فتكون عملية التحول بالصوت إلى دال قدرك عملية قصدته يشحنها الشاعر بالتوتر الذاتي حسب المقتضيات بحيث يجعل من الصوت صدى للمعنى " وقد تؤدي شدة التأثر بالباعث الصوتي على توليد الكلمات إلى ما يكاد يكون اعتقاداً غامضاً في وجود مطابقة بين الصوت والمعنى "[4] وهذا ما ذكره قدامة (337هـ) حين عرضت له مشكلة اللفظ والمعنى في

---

[1] دلائل الإعجاز : 234 ، ينظر : تطور البحث الدلالي : 43 ، 44 .

[2] نفسه : 4 ، 5 .

[3] دلائل الإعجاز : 43 .

[4] ينظر اثر اللسانيات في النقد الأدبي الحديث : 61 .

نظريته النقدية فأعوزته حيلة التعبير عن مستوى الدال بتميزه عن مستوى المدلول فقد لجأ إلى تحديد خاصية الكلام بأعتباره " حروفاً خارجة بالصوت متوطأ عليها " [1] وهذا ما تؤكد عليه الدلالة الصوتية في الانسجام بين دلالة اللفظ والمعنى .

ولم يختلف علماء البلاغة المتأخرون عن المتقدمين في جهودهم عما ذكره سلفهم في تحديد مفهوم الألفاظ ودلالتها الصوتية وتأثير هذه الكلمات على المعنى ، وهذا السكاكي (626هـ) المعروف بجهوده البلاغية في كتابه (مفتاح العلوم) يقول : " وإذا عرفت أن دلالة الكلمة على المعنى موقوفة على الوضع ، وأن الوضع تعيين الكلمة بأزاء معنى بنفسها ، وأن دلالة معنى على معنى غير ممتنعة ، عرفت صحة أن تستعمل الكلمة مطلوباً بها نفسها ، تارة معناها الذي هو موضوعة له ، ومطلوباً بها الأخرى . معنى معناها بمعونة قرنية "[2] وهذه الدلالة اللفظية نجدها عند عالم آخر عاصر السكاكي ولا يقل شأناً عنه في آرائه البلاغية هو ضياء الدين ابن الأثير (637هـ) وقد أخذ بهذا المبدأ في اختيار اللفظ ، فأستاد للفظ المزيد إذا كان المعنى يقتضيه ، وعده أدق في الدلالة على المعنى الكثير من اللفظ المجرد فقال : " ومما يجري هذا المجرى قولنا ، (فعل) و (افتعل) فأن لفظة (فعل) لها موضع تستعمل فيه ، ألا ترى انك تقول . اقتعدت غارب الجمل ، ولا تقول : قعدت على غارب الجمل ، وأن جاز ذلك لكن الأول أحسن ، وهذا لا يحكم فيه غير الذوق السليم ، فأنه لا يمكن أن يقام عليه دليل " [3]

وفي دلالة الألفاظ على معانيها مسبوكة ، ويشير ابن الأثير إلى موقع اللفظ من النظم والى أهمية النظم في تقويم دلالة اللفظ فيقول : " بل أريد أن تكون الألفاظ مسبوكة سبكاً غريباً ، يظن السامع انها غير ما في أيدي الناس وهي مما في أيدي الناس " [4] ويريد ما السبك الغريب هما كما هو واضح من دلالة اللفظ ، والسبك الظريف ، لا يعال الوحشي .

ثم يحكم ابن الأثير على الدلالة اللفظية من خلال تركيبها ، فيقول : " والمراد بها ان تكون على هيأة مخصوصة من الحسن ... ثم قال : فان كل عارف بأسرار الكلام فن أي لغة كانت ... يعلم أن إخراج المعاني في ألفاظ حسنة رائقة يلذها السمع ولا ينبو عنها الطبع ، خير من إخراجها في ألفاظ قبيحة مستكرهة ينبو عنها السمع " [5] وهذا حازم القرطاجني (684هـ) ،

---

[1] نقد الشعر : 20 .

[2] مفتاح العلوم : 358 .

[3] المثل السائر : 191/1 ، ينظر : النقد اللغوي عند العرب : 292 .

[4] نفسه : 122/1 ، ينظر : تطور البحث الدلالي : 50 .

[5] المثل السائر : 37/1 ، ينظر : الصناعتين : 13 .

نجده ، يؤكد الحقائق الدلالية السابقة لعصره ، وعنده إنها من المسلمات حتى أنه ليقارن بين دلالة المعاني والألفاظ ، ويعبر عنها بصورة ذهنية ، وهو إنمّا يحقق في ذلك من اجل ان يتفرغ لاتمام اللفظ بالمعنى واتمام المعنى باللفظ فيقول : " إن المعاني هي الصور الحاصلة في الأذهان عن الأشياء الموجودة في الأعيان ، فكل شيء له وجود خارج الذهن ، وأنه إذا أدرك حصلت له صورة في الذهن تطابق لما أدرك منه ، فإذا عبر عن تلك الصورة الذهنية الحاصلة عن الإدراك ، أقام اللفظ المعبر به هيأة تلك الصورة في إفهام السامعين وأذهانهم " [1] ثم يقول : " يكون النظر في صناعة البلاغة من جهة ما يكون عليه اللفظ الدال على الصورة الذهنية في نفسه ، ومن جهة ما يكون عليه بالنسبة إلى موقعه من النفس من جهة هيأته ودلالته ومن جهة ما تكون عليه الصور الذهنية في أنفسها ، ومن جهة موقعها من النفوس من جهة هيأتها ودلالتها" [2] وهذا يعني أن اللفظ المشارك مشاركة فعالة في تكوين النص الأدبي في دلالة الألفاظ وما تكسبه من ميزة صوتية في صلتها بالنفس الإنسانية التي تتفتح لأصوات لتلك الألفاظ بدلالته على الصور الذهنية أو في دلالتها الذاتية في معرفة المعنى من خلال معرفة مصادر الأصوات أثناء سماعها .

توافرت طائفة من الألفاظ الدقيقة عند إطلاقها ، وتتميز هذه الدقة يكون لفظ يدل على نفس الصوت ، والصوت يتجلى فيه ذات اللفظ ، بحيث يستخرج الصوت من الكلمة ، وتؤخذ الكلمة منه ، وهذا من باب مصاقبة الألفاظ للمعاني بما يشكل أصواتها فتكون أصوات الحروف على سمت الأحداث التي يراد التعبير عنها .

يقول ابن جني (392هـ) : " فأما مقابلة الألفاظ بما يشكل أصواتها من الأحداث فباب عظيم واسع ، ونهج متلئب عند عار فيه مأموم ، وذلك أنهم كثيراً ما يجعلون أصوات الحروف على سمت الأحداث ... ومن ذلك قولهم : " (خضم وقضم) ، فالخضم لأكل الرطب والقضم لآكل اليابس " [3] وعلى الرغم من توقف جملة من علمائنا الأوائل عن الخوض في حديث المداليل في القرآن الكريم ، فأن القرآن ، يبقى ذا دلالة أصلية ، وما معاملتهم له إلا دليل تورع وتحرج عن الفتوى بغير مراد الدلالة حتى وأن أدركوها إجمالا .

وإذا كانت عنايتهم بالدراسة الصوتية هي قرينة بقضايا الإعجاز القرآني حيث ذهب فريق إلى ان القرآن الكريم معجز بالمعاني ، وذهب فريق آخر إلى أنه معجز بالألفاظ ومن ثمة شرعوا في

---

[1] ينظر : منهاج البلغاء : 17 .

[2] نفسه : 18 .

[3] الخصائص : 65/1 .

التنقيب عن أسباب الجودة والتلاؤم أو التأخر والتنافر ، وإذا كانت تلك هي البدايات فسرعان ما امتد البحث إلى عالم الشعر والى عالم اللغة ، وصار الوعاء اللغوي هو الميدان .

لقد استشفوا أهمية العلاقة التي تربط اللفظ بدلالته الصوتية ، وما زال البحث عن ذات العلاقة هو حجر الزاوية [1]

وما قال به النحاة من الزيادة ، فأن عبد القاهر الجرجاني (471هـ) يتلقفه ليحيله إلى تحليلات إبداعية فلا يتصور ان تسلب الكلمة دلالتها وتقول زيادتها ثم لا تعطيها دلالة أخرى ، وأن تخليها من أن يراد بها شيء على وجه من الوجوه لأن وصف اللفظ بالزيادة يقيد إن لا يراد بها معنى وان يجعل كان لم يكن لها دلالة قط . [2] وهنا يؤكد الجرجاني على أهمية دلالة الصوت من خلال اللفظ وما تؤديه من معنى .

وقد تكون العبارة دلالة على امر مكروه خارج عما جيء بها الدلالة عليه أما باشتراك وقع في اللفظ ، أو بصرف واستعمال حدث فيه ولو للعاقة ، فيجب أن يحتفظ من ذلك حيث تتهيأ تلك العبارة بنفسها وفي دلالة أصواتها . [3]

وهي طائفة من الألفاظ أتحدث بنيتها وأصواتها ودلت على معنيين مختلفين أو أكثر ، ومن الأمثلة على ذلك لفظ (العين) فهو يتصرف إلى معان عدة من بينها عين الإنسان وعين البئر وعين القوم (سيدهم) والعين الجاسوس .

وقد درس اللغويون القدماء هذه الظاهرة في باب ما اتفق لفظه واختلف معناه ، وقد أنكر ابن درستويه ظاهرة المشترك اللفظي فقال : " فإذا اتفق البناءان في الكلمة والحرف ، ثم جاء المعنيين مختلفين لم يكن بد من رجوعها إلى معنى واحد يشتركان فيه فيصيران متفقي اللفظ والمعنى " [4] .

وقد وجد المحدثون أن كل لغة تسير في تطورها الدلالي على هدى خطوط عامة أطلقوا عليها قوانين المعنى ، وتناول المحدثون هذه الظاهرة بالبحث في جملة مصادر منها : دلالة الألفاظ ، فقه اللغة وخصائص العربية ، دلالة الألفاظ العربية وتطورها . وهذه الدراسات كلها تعتمد على دلالة الصوت من خلال الألفاظ .

إنّ كل الجهود التي بذلت تستهدف الوصول إلى الإدراك ، وكشف الدلالات هو غاية العناية باللغة ، أو بالدوارة التي تحقق الإنسان ، وليس بشرط أن تقبل ما قال به السابقون من ان اللغة

---

[1] اللغة بين العقل والفكرة : 55 ، ينظر : تطور البحث الدلالي : 26 .

[2] أسرار البلاغة : 362 .

[3] منهاج البلغاء : 150 .

[4] تصحيح الفصيح : 240/1 ، ينظر : لهجة أسد – الدكتور على ناصر : 222 ، اللغة بين العقل والمغامرة : 151 .

ظاهرة اجتماعية ، أنها ابعد من ذلك ، تستوعب الممكن الاجتماعي وتتجاوزه ، ولقد نشطت مناهج مختلفة تدرس الدلالة والامساك ببعض قوانينها . [1]

وقد اطرد لديهم الإلحاح على سمة العرضية في حصول الألفاظ دوال على المعاني ، ولذلك تسنى الجزم بطواعية الألفاظ في عبور المجالات الدلالية واحد بعد آخر وبطواعية المدلولات في ارتداء الألفاظ بعضها مكان بعض ، كما تسنى الميت بحكم علاقة الإنسان باللغة وموقفه الفاعل منها في أمر استحداث المركبات الدلالية ، أصلاً بابتكار المدلول الذي كان منعدماً ، ثم صناعة دال له فيلحان فيكون منهما ومن التحامها مثلث دلالي جديد ، ويتبين لنا من استقراءات الجرجاني ان التحول الدلالي إنما هو تقدير نسبي بسلطة المتكلم على اللغة وعلى سامعه فيدرك السامع أنه فعلاً تسلط من المتكلم على جهاز اللغة ،[2] التي هي ألفاظ وأصوات ومعان بمدلولاتها تدلنا على المعنى المراد معرفته من خلا لتشخيص دلالة الصوت .

وقوله تعالى : ﴿ **فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعاً وَأَنَابَ** ﴾ [3]

فأن هذا اللفظ وقد جاء بصيغة واحدة في عدة استعمالات ، وهذا الصوت هو الخرير ، وهو صوت الماء ، أو صوت الريح ، أو صوتهما معاً ، فالحدث على هذا مستل من جنس الصوت , ووجه الدلالة فيما يبدو أن الخر يأتي بمعنى السقوط من شاهق ، وأن الخير إنما يستعمل لصوت الماء او الريح أو الصدى محاكياً لهذا اللفظ في ترديده ، فلم يرد مجرد السقوط من (خر)[4] وإنما أراد الصوت مضافاً إليه الوقوع والوجيه في أحداث هذا الصوت ، وكانت هذه الإضافة الدلالية صوتية سواء أكانت في صوت الماء ، أم بالوقوع والسقوط . [5]

وان التفكير اللغوي عند العرب الذي انطلق من النظر في صحة متن القرآن الكريم وتفهم أحكامه ودراسة علل إعرابه ، وأقوى دليل على ذلك ان جل النحاة العرب الأوائل كانوا من القراء ، وإن هؤلاء قد مهدوا السبيل لظهور علم الأصوات بفضل ما أثاره من مشكلات في النطق بأن القرآن الكريم نتيجة لاختلاف اللهجات العربية . [6]

---

[1] اللغة بين العقل والمغامرة : 30 ، ينظر : التطور الدلالي عند العرب : 26 دلالة الألفاظ : 62 اخصام ونقد : 102 ، التفكير اللساني عند العرب : 194 .

[2] التفكير اللساني عند العرب : 185 ، 186 .

[3] ص : 24 .

[4] المفردات في عريب القرآن : 144 .

[5] الصوت اللغوي في القرآن الكريم : 185 ، 186 .

[6] الثورة التكنولوجية واللغة : 8 .

دلالة النغم الصارم :

ولنأخذ مثلاً على ذلك أصوات الصفير في وضوحها ، وأصداؤها في أزيرها ، جعل لها وقعاً متميزاً ما بين الأصوات الصوامت ، وكان ذلك فيما يبدو ، نتيجة التصاقها في مخرج الصوت ، واصطكاكها في جهاز السمع ، ووقعها الحاصل ما بين هذا الالتصاق ، وذلك الاصطكاك ، لهذه الأصوات ذات الجرس الصارخ هي : (الزاي) ، (السين) ، (الصاد) ، يلحظ لدى استعراضها إنها تؤدي مهمة الإعلان الصريح عن المراد في تأكيد الحقيقة من خلال دلالتها الصوتية ، وهي بذلك تعبر عن الشدة حيناً ، وعن العناية بالأمر حيناً آخر ، مما يشكل نغماً صارماً في الصوت ، وأزيزاً مشدداً لدى السميع ، يخلصان إلى دلالة اللفظ .

وسأقف عند ثلاث صيغ قرآنية ختمت بحروف الصفير ، لرصد دلالتها الصوتية ، هي : (رجز) و (رجس) و (حصحص) والرجز في مثل قوله تعالى : ﴿**أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ رِجْزٍ أَلِيمٌ**﴾[1] وقوله تعالى : ﴿ **فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزاً مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ**﴾ [2] وحينما تقارن لفظة (الرجز) بمثيله معنى ومبنى (رجس) وهي مكونة كتكوينها في الراء والجيم ، والسين كالزاي من حروف الصفير شديدة الاحتكاك في مخرج الصوت ، ولها ذات الإيقاع على الأذن ، حينما نقارن صوتياً ودلالياً بين الصوتين نجد المقاطع واحدة عند الانطلاق من أجهزة الصوت ، ونجد المعاني متقاربة في الإفادة ، فقد قيل للصوت الشديد رجس ورجز ويعبر رجاس شديد الهدير ، فالصوت في المعاني كلها الصوت نفسه ، والصدى ذات الصدى ، ومن هنا أورد الراغب الأصفهاني (502هـ) أن الرجس يقع على أربعة أوجه ، أما من حيث الطبع وأما من حيث العقل ، وأما من جهة الشرع ، وأما من كل ذلك [3] ومن خلال المعاني تأتي دلالة الصوت لتوكيد المعنى .

وهناك مقاطع صوتية مغرقة في الطول والمد والتشديد وعلى الرغم من ندرة صيغة هذه المركبات الصوتية في اللغة العربية حتى أنها لتعد بالأصابع ، فأننا نجد القرآن الكريم يستعمل أفخمها لفظاً وأعظمها وقعاً ، فتستوحي من دلالتها الصوتية مدى شدتها وهدئها ، ومن تلك الألفاظ الصوتية الموحية بدلالتها ، الحاقة ، الطامة ، الصاخة وهذه الكلمات تستدعي نسبة عالية من الضغط الصوتي ، ولأداء الجهور لسماع رنتها مما يتوافق نسبياً مع أرادتها في جلجلة الصوت

---

[1] سبأ : 5 .

[2] الأعراف : 162 .

[3] المفردات في غريب القرآن : 188 .

وشدة الإيقاع وبمصاقبة الشدة الصوتية للشدة الدلالية بين الصوت والمعنى الحقيقي ، فقوله تعالى : ﴿**الْحَاقَّةُ * مَا الْحَاقَّةُ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ**﴾[1] قال الغراء (207هـ) : " والحاقة : القيامة ، سميت بذلك لأنها فيها الثواب والجزاء" [2] وهذه الدلالة الصوتية التي توحي لكل من يسمعها الى يوم القيامة ويقال : حقت القيامة : أحاطت بالخلائق فهي حاقة " [3] .

إن موافقة أصوات الحاقة والصاخة والطامة لمعانيها في الدلالة على يوم القيامة ، من أعظم الدلالات الصوتية في الشدة والوقع والتلاؤم البنيوي والمعنوي لمثل هذه الصيغ الحافلة .

قال تعالى : ﴿**فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا**﴾[4] ، فنجد استطالة هذين الحرفين في كلا الموضعين ، لا يعدها شيء صوتياً بتراوحات دلالياً في ألفاظ يحتكم الشدة واللين .

قال تعالى : ﴿**هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفاً وَطَمَعاً**﴾[5] ، أن لدلالة الأصوات من المظاهر الجوية وما ينزل من السماء من صواعق وشهب وما يحدث في الجو من أصوات مرعبة ومخيفة من الرعد والبرق والسحاب وحتى أصوات العواصف والرياح ، فأنها تتعلق السامع وتدهشه عندما يرق السماء ويلمع البرق فيها مدوياً بأصوات وانفجارات تسمعها تدلل على قدرة الخالق سبحانه .

وحينما تقف عند (الصاد) في قوله تعالى: ﴿**قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَق**﴾[6] فأننا نستمع الى دلالة الصوت المدوي ، إذ كانت الصاد واضحة الصدور من المخرج الصوتي بين حرفين هما ، الحاء ، والصاد تكراراً في البناء الصوتي مرتين فكونا لفظة (حصحص) واضحة الظهور بالكشاف الأمر ، وهنا قد يمتلك العجب لدى اختيار هذا اللفظ في أزيزه ، ووضوح امره وظهور دلالته ، فإذا شددت (الصاد) كانت دلالتها الصوتية ، وأرادتها المعنوية ، أوضح لزوماً ، واشد استظهاراً ، وأكثر معاناً كما في قوله تعالى : ﴿**أَفَلا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ * وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ**﴾ [7] فالصوت في صيغة الإرعاب وفي سياق الوعيد بدلالته التخيلية ، قد نلمس فيه نزع ما في القلوب من أسرار أو استخراج ما فيها من خفايا .

---

[1] الحاقة : 1 -3 .

[2] معاني القرآن : 179/3 ، ينظر : : الكشاف : 41/1 .

[3] ينظر : مجمع البحرين : الطريحي : 147/5 .

[4] الشمس : 13 .

[5] الرعد : 102 .

[6] يوسف : 51 .

[7] العاديات 9 ، 10 .

قال تعالى : ﴿**فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ**﴾ [1] ، فمقتدرها هنا أقوى من قادر ، وإنما عدل إليه للدلالة على التضخيم للأمر وشدة الأخذ الذي لا يصدر الا عن قوة الغضب ، أو للدلالة الصوتية على بسطة القدرة وذاك أن (مقتدر) أسم فاعل من (أقتدر) وقادر أسم فاعل من (قدر) ولاشك أن (افتعل) أبلغ من (فعل) .[2] فالدلالة بين الصوت والمعنى ، لرسم صورتيه هي بمثابة الموسيقى التصويرية المصاحبة للمشهد ، هذا فيما يلائم التركيب البنائي والدلالة البلاغية ، بينما نجد قسماً آخر من البلغاء قد ربطوا كل ذلك من وجهة أخرى ن بما يلائم حواس الإنسان ، لا سيما السمع في تشوقها للصوت الخفيف الساكن ، وثقل الجهير الهائل عليها وقعاً ، لأنها تتقبل ما يتصل بها مما طبعت عليه اذا كان وروده باعتدال لا جور فيه من خلال شعورنا بدلالته الصوتية [3] .

ومن الصيغ العربية التي تدل على الحدث الصوتي هما . (فعال) و (فعلله) ففعال ، تستعمل في جزء كبير منها للدلالة على الأصوات والضوضاء مثل (صراخ) وفعلله ، فأنها تستعمل في العربية في جزء كبير منها للدلالة على حكايات الأصوات مثل : (الغرغرة) فان صوتها من جنس تشكيل حروفها لفظياً ، وان معناها صدى من أصداء صوتها . [4] هذا نفسه هو ما ينسجم عن التوليد الصوتي للألفاظ عند الأوربيين ، كما في كلمة (قهقهة) والأصوات فيها دليل من دلائل المعنى ، وإذا أضفنا إلى (قهقهة) (تمايل) فإننا سنجد في الكلمة الأولى حدث تقليد صوت لصوت أخر ، وفي الثانية ترجمت الحركة ترجمة بيانية بوسائل صوتية .

والمصطلح الذي يغلب إطلاقه في حالة الكلمات التي من هذا النوع هو (محاكاة الاصوات onimatopeid) [5] ونجد في القرآن الكريم دلالات صوتية قوية بمدلولها اللغوي مثل قوله تعالى : ﴿**وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحاً**﴾ [6] مما يوحي بأن الصراخ قد بلغ ذروته ، والاضطراب قد تجاوز مداه ، والصوت العالي الفظيع يصطدم بعضه ببعض ، فالصراخ في شدة أطيافه ، وتراصف إيقاعه ، من توالي الصاد والطاء وتقاطر الراء والخاء ، والترنيم بالواو والنون يمثل لك رنة هذا الاصطراخ المدوي . والاصطراخ الصياح والنداء ، والاستغاثة بافتعال من

---

[1] القمر : 42 .

[2] المثل السائر : 279/2 ، 284 ، ينظر : الصوت اللغوي في القرآن الكريم : 181 .

[3] عيار الشعر : 14 .

[4] ينظر : الخصائص : 162 ، 163 ، ينظر : الصاحبي : 100 .

[5] دور الكلمة في اللغة : ستيفن أولمان : 73 ، 74 .

[6] فاطر : 37 .

الصراخ قليت التاء عطاء لأجل الصاد الساكنة قبلها ، وإنما نفعل ذلك لتعديل الحروف بحرف وسط بين حرفين يوافق الصاد في الاستعلاء والإطباق ويوافق التاء في المخرج .[1] وفي قوله تعالى : ﴿**وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ**﴾ [2] الطارق الصوت الذي يطرق ليلاً ، وفي القرآن الكريم النجم الثاقب الذي يثقب الظلام بضوئه ، وهناك طائفة كبيرة من الأصوات اللغوية تعتمد في مخارجها على حركات غير مرئية تؤديها أعضاء غير ظاهرة ، تحركات الجوف والحلق والحنك واللسان ، فقد برهنت التجارب الجديدة على أن الإنسان حين بنطق لغته لا يتبع درجة صوتية واحدة في النطق بجميع الأصوات ، ومن اللغات ما يجعل لاختلاف درجة الصوت أهمية كبيرة إذ تختلف فيها معاني الكلمات لاختلاف درجة الصوت والنطق بها .[3]

ولا يسلم للفظة مدلولها الصوتي دائماً لا تحدد بالتعاريف التجريبية التي تحددها به المعجمات ، إذ يحيط المعنى المنطقي لكل كلمة جو عاطفي ينفذ فيها ويعطيها ألواناً مؤقتة على حسب استعمالها ، هي التي تكون قيمتها التعبيرية ، فقيمة اللفظة عندما ينقطع مدلولها ، بعينها السياق ، أن المعنى والصوت كلاهما مرتبط بمدلول الأخر .

هناك أمثلة كثيرة في القرآن الكريم على الدلالة الصوتية منها قوله تعالى : ﴿**فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَى**﴾ [4] والملاحظ في هذه الآية أن دلالة صوت (الطاء) فرض حضوراً ليعطي ويعبر عن المعنى ، حيث يوم القيامة بأهوالها ، وقد جاءت مشددة لتكون أقوى في التخويف واشد في الترهيب ومما زاد من رسوخ المعنى وجود صوت المد ليوحي بأن الطامة ، " غطت كل موجود على الكون " من سماء مرفوعة ، وأرض مبسوطة ، فهي تأتي على ذلك كله ، وهي تضم على كل هائلة "[5]

يتضح من هذا أن الدلالة الصوتية للحروف فاعلية عالية ، إذ تخضع في بعض الأحيان لانطباعات مبعثها أحياء الأصوات ، وبشكل الصوت في النسق اللغوي منطلقاً للوعي والتأثير ، فقد يكون هناك صوت بعينه أو مجموعة من الأصوات ، يكون لها مغزى أو تبعث شعوراً معبراً ، وعندها يفوق دلالته جرس الصوت على منطق اللغة فيخرج عن كونه صوتاً محضاً إلى دلالة تحرك المعنى وتقويه .

---

[1] مجمع البيان في تفسير القرآن : 410/4 .

[2] الطارق : 1 ، 2 .

[3] معاني النحو : 12/1 .

[4] النازعات : 34 .

[5] الكشاف : 697/4 ، ينظر : قواعد النقد الأدبي – كروجي : 39 .

وخلاصة الأمر أن الحرف بدلالته الصوتية يشير إلى المعنى ، أو يحاول أن يوحي به ، بحيث يمكننا القول : أن أصوات اللغة العربية تدل دلالة قوية وأكيدة على المعنى ، وعندها تثير في النفس جواً لقبول المعنى أو الإيحاء به ، لأن الدلالة الصوتية تلعب دوراً مهماً في توجيه معنى الكلمة ومشاركته الفاعلة في الدلالة ، بيد أن هناك بين الأصوات فروقاً في القدرة التعبيرية ، وهذا هو سر الكلمات التي تعبر بأصواتها على معناها فتكون لأصوات الكلمات قوة في التعبير عن مدلولاتها .[1]

إن الجرس الموسيقي للفظة يلعب دوراً خاصاً يثير انتباه المشاعر الداخلية للتلقي ، والنغم من أخص خصائص اللفظة بوصفها صوتاً يرمز إلى المعنى .

ومن نافلة القول أن علماء الدلالة القدماء والمحدثين قد أفردوا للدلالة الصوتية وموسيقى اللفظة وأثرها في النص الأدبي حيزاً واسعاً على صفحات بحوثهم ، ولا غرور في تخير الأديب للنغم الوادع والوقع الحالم الذي تحدثه أصوات اللفظة ، ما يطرب الأذن ويلذه السمع .

والجهود التي بذلها العلماء العرب في الدلالة الصوتية في البحث اللغوي قديمة راسخة اطراها ابن جني (392هـ) واقر صلاحها ، عندما قال : " وذهب بعضهم إلى أن أصل اللغات كلها إنما هو من الأصوات المسموعات ... "[2]

ولعل ما ذهب إليه ابن جني في الخصائص ، قد هيأ لأبن الأثير (637هـ) الأساس الذي أقام عليه المفاضلة بين الألفاظ باعتبارها داخلة في حيز الأصوات ، ووضع لها مقايسات الحسن والقبح من خلال ما يستحب ويستقبح من الأصوات — ولكن الذي جلب انتباه الباحث بخصوص الدلالة الصوتية انعدام الدلالة الطبيعية بين اللفظ ومعناه في كثير من الألفاظ ولم نلحظ أحداً من علمائنا قد نبه إلى ذلك ما عدا الإشارة التي ذكرها ابن جني : " نعم ، قد يمكن أن تكون أسباب التسمية تخفي علينا لبعدها في الزمان عنا إلا ترى أن قول سيبويه : أو لعل الأول وصل إليه علم لم يصل إلى الأخر ، يعني أن يكون الأول الحاضر شاهد الحال ، فعرف السبب الذي له ومن أجله ما وقعت عليه التسمية ، والأخذ — لبعده عن الحال — لم يعرف السبب التسمية ، إلا ترى

---

[1] الصورة الفنية في المثل القرآني : 238 ، ينظر : فلسفة المعنى – رسالة ماجستير ، لواء عبد الله الفواز – جامعة الكوفة – 2001 ص44 .

[2] ينظر : الخصائص : 46/1 ، 47 ، الشفاء ، لابن سينا : ق 9/3 ، أسباب حدوث الحروف : 24 ، 25 .

أن قولهم للإنسان إذا رفع صوته : قد رفع عقيرته* ، فلو ذهبت تشتق هذا بأن تجمع بين معنى الصوت ، وبين معنى (عقر) لبعد عنك وتعسفت " [1]

وتقر الدراسات الحديثة ما ذهب إليه ابن جني ، فقد ذكر (هورتيك) أن هناك مئات الأمثلة التي تستبقها من أحدث شعرائنا ، كلها تنهض دليلاً على ان الكلمة الملفوظة لم تقطع صلتها بأصلها بل استبقت حقيقتها الصوتية ، على أن قيمتها التعبيرية تمت وترعرعت خارج المجال الصوتي ، فأصبحت وسيلة من من وسائل الشرح والتعليل .[2] ويتضح لنا عمق الدلالة الصوتية ومحاولة تأصيلها منذ القدم .

* عقيرته : (واصلة أن رجلاً قطعت إحدى رجليه ، فرفعها ووضعها على الأخرى ثم صرخ بأرفع صوته فقال الناس : رفع عقبرته) الخصائص : 66/1 .

[1] الخصائص :1 /66 ، ينظر : جرس الألفاظ : 290 .

[2] الفن والأدب : 13 .

المبحث الثالث : الدلالة النفسية :

إن العين ترتاح للمرأي الحسن وتتأذى بالمنظر القبيح والأذن تطرب للأصوات العذبة حتى يصير فعلها في النفس عجيباً وتنضر من الخشن الحابس ، وصار مما يعاب به الشعر وتستهجنه البلاغة خشونة حروف الكلمة ، وسمى قدامة بن جعفر (337هـ) فألف حروف الكلمة (سماحة) وعرف سماحة اللفظ بأن يكون سهل مخارج الحروف من مواضعها : [1] " كما تنبه الجاحظ من قبل إلى الدلالة النفسية وأثر خفة الألفاظ في شيوعها على السنة الناس ، وأن كان غيرها أحق منها واستشهد لذلك بتفضيلهم لفظ (الجوع) على (السغب) و (المطر) على (الغيث) إذ أدركوا أن خفة اللفظ وجمال جرسه يسرع به إلى الأذن لتستلذ به قبل أن تقفه (القلوب) معناه فكأنما في سياق ، وهذه هي بلاغة الكلام ودلالته النفسية الذي : لا يستحق اسم البلاغة حتى يسابق معناه لفظة : [2]

وما جاء في القرآن الكريم من دلالات نفسية كقوله تعالى: ﴿**وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاء**﴾[3] وقوله تعالى : ﴿ **وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلّ**﴾ [4] ، وقوله تعالى : ﴿**تَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ**﴾ [5] وقوله تعالى : ﴿**وَالنَّازِعَاتِ غَرْقاً**﴾ [6] فجاءت الدلالة النفسية لا تساق صوت (النون) مع صوت (العين) دور بالغ ومؤثر في تجسيم الحدث فبوجود (العين) التي تدل على الأحداث القوية وصوت (النون) التي تضفي على الفعل دلالة قدسية وعظمة ووقاراً ، فالنزع هنا : نزع الشيء وجذبه من مقره بهدؤ ، وفي أحيان أخرى يكون النزع بقوة . [7]

---

[1] نقد الشعر : 21 ، ينظر : النقد البلاغي عند العرب : 95 .

[2] البيان والتبيين : 95/1 ، ينظر موسيقى الشعر : 11 ، 14 .

[3] آل عمران : 26 .

[4] الأعراف : 43 .

[5] القمر : 20 .

[6] النازعات : 1 .

[7] المفردات في غريب القرآن : 485 ، 486 .

والملاحظ من الآيات السابقة ان لصوت النون مزيه نفسية صوتية ظاهرة في الغنة ، والتمكن في التطريب لتناسب قداسة القرآن وقوة تأثيره وعمقه وعظمته في النفوس والملاحظ أيضاً أن الدلالة النفسية بين انتشار صوت (النون) في حشو الآيات والفواصل بالنون الساكنة التي يعلو معها الرنين ويبرز ، وبطول زمنه مما هو بالحشو .[1] وكأنها تبعث بأصواتها جواً من الوقار والجلال يناسب الإيقاع الصوتي الذي عليه . فالدلالة النفسية ملازمة لانطلاق الصوت وتأثيره النفسي لدى المتلقي سواء أكان الصوت مؤثراً أو غير مؤثر .

قال الرماني (386هـ) في البيات : هو لإحضار المعنى للنفس بسرعة أدراك وقيل ذلك لئلا يلتبس بالدلالة ، لأنها إحضار المعنى للنفس وان كان بإبطاء وقال : الكشف عن المعنى حتى تدركه النفس من غير عقله ، وإنما قيل ذلك لأنه قد يأتي التعقيد في الكلام الذي يدل .[2]

وان الألفاظ التي يستخدمها أبو هلال العسكري (395هـ) حسية لعبت فيها الحواس دوراً ملموساً والألفاظ ، العذبة ، الجزلة ، السهولة ، الرصانة ، السلاسة ، لصناعة ، الرونق الطلاوة.[3] التي يستخدمها العسكري في وصف الكلام ، أن الألفاظ التي يستخدمها إبن الأثير (637هـ) : (حلوة ، حادة طنانة ، رنانة غثة باردة)[4] وقد ترتبط هذه الخبرة بحالة نفسية خاصة تجهل لهذه الألفاظ مفهوماً نفسياً وتقلق من الجاس البشع .

ومن دلالة الصفات الفطرية للنفس الإنسانية المفكرة الناطقة " إذ النفوس قد جبلت على التنبه لأنحاء المحاكاة واستعمالها والالتذاذ بها منذ الصبا . [5] من هذه الدلالة النفسية يقترب من رأي البلاغيين والنقاد الذين سبقوه ، ألا أنه لا يفصل كما صنع غيره من البلاغيين ، بين هذه القوى النفسية.

ولهذا فقد أوجبوا على الكتاب أو الشاعر أن يراعي الجوانب النفسية مراعاة تامة فلا يكون كلامه بلغياً ومؤثراً في النفوس ، ما لم يكن كذلك ، وهذا ما ينسجم مع الواقع النفسي ، إذ من الطبيعي أن يراعي في الكلام نفسية المخاطب ومستوى إدراكه ، وظروف الخطاب حتى يستطيع الكلام أن يؤدي دوره المطلوب في التأثير وإثارة الانفعال اللازم . ومن هنا أكدوا في الألفاظ لكي تكون قادرة على التأثير في السامع أن تكون ملاءمة منسجمة مع المعنى المراد نقله وقد بلغ من

---

[1] ينظر : من صور الأعجاز الصوتي في القرآن الكريم : 92 .

[2] ثلاث رسائل في أعجاز القرآن : الرماني 106 ، ينظر : العمدة : 254/1 .

[3] الصناعتين : 41 .

[4] المثل السائر : 116/1 .

[5] منهاج البلغاء : 116 .

إحساسهم بهذه الظاهرة أن اعتبروا من أهم صفات البليغ أن تكون : " الألفاظ قوالب لمعانية " [1] ومن العوامل التي تزيد من القيمة الجمالية والفنية للفظة ومن قدرتها على التأثير في نفس المتلقي من حيث أحداث التخييل المناسب الذي يتماشى وتنغيم إيقاع صيغتها .

يقول حازم القرطاجني (684هـ) : " يكون النظر في صناعة البلاغة من جهة ما يكون عليه اللفظ الدال على الصورة الذهنية في نفسه ، ومن جهة ما يكون عليه بالنسبة إلى موقعه من النفس من جهة هيأته ودلالته ، ومن جهة ما تكون عليه الصور الذهنية في أنفسها ، ومن جهة مواقعها من النفوس من جهة هيأتها ودلالاتها ... ومن جهة ما تكون عليه في أنفسها الأشياء التي تكون تلك المعاني الذهنية صوراً لها وأمثلة دالة عليها ، ومن جهة مواقع تلك الأشياء في النفوس " [2]

وهذا يعني ان اللفظ مشارك مشاركة فعالة في تكوين النص الأدبي بدلالته على الصور الذهنية حيث ينقل اللفظ تلك الصور من جانبين مهمين ، في دلالتها الذاتية وفي صلتها بالنفس الإنسانية . "وعلى هذا الأساس تدرس الألفاظ التي هي أصوات دالة على معانٍ معينة ، باعتبارها أبنية لغوية مستقلة من ناحية بوصفها ترجمة لفظية لصور ذهنية من ناحية أخرى "[3]

فالألفاظ أذن بصيغتها الانفرادية تنقل الصورة الذهنية للشيء من خارجه ويضمها إلى غيرها تشكل النص الأدبي ، ويطبقها في الدلالة تمثل حديث النفس في الرفض أو الاستجابة بحسب التأثر بموقعها في الأعماق .

ولهذا نجد إبن سينا ، ينظر إلى هذا المعنى بتقسيمه لطبيعة اللفظ في دلالته على الرضا والغضب في إرادة الانفعال بأحدهما ، والاستفادة ترغيباً او تزهيداً بهما فيقول : " وقد ينتفع بالألفاظ الانفعالية والخلقية انتفاعاً شديداً وذلك حين يراد أن يثار انفعال فتكون الألفاظ المثيرة للآنفة الفاضحة ، صالحة لإثارة الغضب ، وإما الألفاظ المستقيمة للفواحش والأثام ، فإنما ينتفع بها حين يزهد في القبائح " [4] ومعنى هذا أن اللفظ أداة نفسية يمكن تسخيرها بحسب الإرادة لإثارة التعبير الداخلي الخاص بالإنسان ، بتعبير خارجي خاص بالألفاظ ودلالتها النفسية .

وفي حكم البلاغة أن لا ينطق المحذوف ولا يظهر الى اللفظ فليس يخفى أنك لو رجعت فيه إلى ما هو أصله فقلت ، كما قال البحتري :

لو شئت لم تفسد سماحة حاتم كوماً ، ولم تهدم ماثر خالد

---

[1] العمدة : 173/1 ، ينظر الأسس النفسية للبلاغة العربية : 76 .

[2] منهاج البلغاء : 17 .

[3] الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي : 70 .

[4] الخطابة من كتاب الشفاء : 219 ، ينظر : الصورة الفنية في المثل القرآني : 229 .

الأصل لا محالة : لو شئت أن لا تفسد سماحة حاتم لم تفسدها ، حذف ذلك من الأول استغناء بدلالته في الثاني عليه ، ثم هو على ما تراه وتصلحه من الحسن والغرابة وهو على ما ذكرت لك من أن الواجب في حكم البلاغة ، أن لا ينطق بالمحذوف ولا يظهر إلى فليس يخفى أنك لو رجعت فيه إلى ما هو أصله فقلت ، لو شئت أن لا تفسد سماحة حاتم لم تفسدها صرت إلى كلام غث والى شيء يمجه السمع وتعافه النفس . [1]

وذهب البلاغيون في تفسير ميل العرب إلى الإيقاع القولي المتوازن ، لأن الدلالة النفسية بطبيعتها تميل اليه وأنه يقع منها موقع الاستحسان والتسوق إليه ، يقول إبن الأثير (637هـ) : "وإذا كانت مقاطع الكلام معتدلة وقعت في النفس موقع الاستحسان " [2]

وجهود العلماء العرب معروفة ومنذ وقت مبكر في معرفة الحالة النفسية ومعالجتها بما يناسبها من أدوات موسيقية تخفق بعض الحالات التي تواجه بعض الأشخاص ، فقد درس الكندي الصلة بين الموسيقى وأنغامها وبين تحريك النفس وما يناسب أحوالها ولهذا قال : " هناك موسيقى تبعث السرور ، وثانية تحرك المرح والطرب ، وثالثة تحرك الحنين والمحبة ، واستطرد يقول : " في مقدورنا نعالج بعض الأمراض النفسية بنغمات الموسيقى المناسبة التي تهيجه وتهدئه " [3]

ويبدو أن الكندي كان من أوائل فلاسفة العرب الذين عالجوا بعض مرضاهم بالموسيقى وكان على براعته في اختيار العلاج بالموسيقى المناسب لبعض الأمراض ، وكانت جهود الفارابي بارزة في الموسيقى علماً وفناً ، وهذه دلالة نفسية جيدة في تخفيف بعض هموم الأشخاص ، ومثل الفارابي إبن سينا ، كان من المشتغلين بالموسيقى مع اشتغاله بالطب والدواء وأود أن أذكر هذه الحالة النفسية الطريفة .

كان أقرب أصدقاء الرازي صيدلاني يعمل في مستشفى المدينة ، وكانا يتبادلان الزيارات للعزف والغناء معاً ، وكانت زيارة الرازي لصديقه في مستشفاه ، وكانت الزيارة تنتهي عادة بالفرق والغناء ، مما كان يغري بعض المرضى بسماع الموسيقى والغناء ، ولاحظ الرازي أن بعض المرضى ينسون آلامهم المبرحة ، إذا كانت الإلحان والأنغام الجميلة تشدهم وتنسيهم آلامهم الشديدة الدائجة ، وأخذ الرازي بدرس هذا الموضوع ، وإنتهى به الأمر إلى أن الموسيقى تصلح

---

[1] دلائل الأعجاز : 163 ، 365 .

[2] المثل السائر : 378/1 ، ينظر : العمدة : 274/1 ، أعجاز القرآن والبلاغة النبوية : 45 .

[3] فضل العلماء المسلمين على الحضارة العربية : 67 .

لبعض الأمراض ولا تصلح لإمراض أخرى . [1] وبما أن للدلالة النفسية الأثر الكبير في سلوك الإنسان فقد أشار عبد القاهر الجرجاني (471هـ) في حديثه عن النظم .

فقال : " إن هذا النظم الذي تتواصفه البلغاء وتتفاصل مراتب البلاغة من أجله صنعة يستعان عليها بالفكرة ... فلو كان القصد بالنظم الى اللفظ نفسه دون أن يكون الغرض ترتيب المعاني في النفس ثم النطق بالألفاظ على خدوها لكن ينبغي ألا يختلف حال أثنين في العلم يحسن النظم أو غير الحسن فيه لأنهما يحسان بتوالي الألفاظ في النطق إحساساً واحداً " [2]

قال تعالى : ﴿**أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزّاً**﴾ [3] في الآية الكريمة دلالة نفسية بينة ، أي تزعجهم ، فهذا في معنى تهزهم هزا ، وصوت الهمزة أخت صوت الهاء ، فتقارب اللفظان التقارب المعنين ، وكأنهم خصوا هذا المعنى بالهمزة لأنها أقوى من الهاء وهذا المعنى أعظم في النفوس من الهز ، ومنه (العسف) و (الأسف) والعين أخت الهمزة ، كما أن ، (الأسف) بدلالته يعسف النفس وينال منها والهمزة أقوى من العين ، كما أن أسف النفس اغلظ من التردد بالعسف فقد ترى تصاقب اللفظتين لتصاقب المعينين . [4]

وحينما نسمع قوله تعالى : ﴿**هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ**﴾ [5] توصي دلالة هذه الأصوات التي تصك أسماعنا بلغة الوعيد فتخشع القلوب وتتحسس الأفئدة ، أما في مجال الخشية والرهبة ، قال تعالى : ﴿**يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لا عِوَجَ لَهُ وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْساً**﴾[6] ثم يستعمله في موضع أخر لغرض الاحترام والتسجيل فيقول : ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِي**﴾[7] فقد نبهة هذه الآية الكريمة وبدلالتها النفسية المسلمين ، أن لا يرفعوا أصواتهم فوق صوت النبي (صلى الله عليه وسلم) يقول المحدثون في شأن هذه الآية ، أن الصحابة بعد أن سمعوها كانوا يتهامسون في حضرة النبي حتى أنه كان يسمعهم بصعوبة "

---

[1] الأسس النفسية : 163 .

[2] دلائل الأعجاز : 30 ، 40 .

[3] مريم : 83 .

[4] الخصائص : 146/2 .

[5] المؤمنون : 36 ، ينظر : الصوت اللغوي في القرآن الكريم : 161 .

[6] طه : 108 .

[7] الحجرات : 2 .

[1] وهذا متأتي من الحالة النفسية التي يشعر بدلالتها المسلمون بعد نزول هذه الآية وهي تخاطبهم بهذه الأصوات الموحية التي أخجلتهم عند سماعها وما تركته من أثر نفسي عندهم .

قال تعالى : ﴿**وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ**﴾[2] إن دلالة أصوات الحروف والألفاظ التي نسمعها من خلال قراءة القرآن ، في هذه الأصوات من الخشوع والقدسية والراحة النفسية التي تهدأ لها النفس وتطمئن لسماعها ، فأصوات كلمات القرآن تدخل إلى الأعماق الإنسان لتهتز مشاعره وقواه ولا تمل ولو أعيدت مرات عدة ، بخلاف الأصوات الأخرى التي تملها الأذن عند تكرارها أكثر من مرة . [3]

والذي يهمنا من خلال ما تقدم من دراسة وتحليل وربط الدلالة النفسية بالإنسان هو محاولة الربط بين حركة الصوت والحالة النفسية ، لإيجاد نقاط النقاء بين القيم التعبيرية ، وقيم التعبير النفسي الذي تضيفه الإيحاءات الداخلية على دلالة النص ، وهي محاولات تتطلع إلى الربط بين المعطيات الموسيقية لتوافق التشكيل الصوتي ودلالته النفسية والأخذ بزمام القوانين الجمالية التي هي غاية الأسلوب في تأثيرها على النفس البشرية بدلالة الألفاظ والكلمات في صدورها الصوتية التي تتطلع مباشرة في ذهن السامع : وهو بعبارة أخرى الإدراك النفسي للكلمة الصوتية .

وأما المدلول فهو الفكرة التي تقترن بالدال بين اللغة والفكر ، يقول بعض الدارسين العرب : لا تقتصر دلالة الكلمة على مدلولها فقط ، وإنما تحتوي على كل المعاني التي قد تتخذها ضمن السياق اللغوي ، وذلك لأن الكلمات في الواقع لا تتضمن دلالة مطلقة بل تحقق دلالتها في السياق الذي ترد فيه وترتبط دلالة الجملة بدلالة مفرداتها ، يوصف الألفاظ أصواتاً تنطلق بها الأوتار الصوتية من داخل الجهاز الصوتي ابتداء من أقصى الحلق وانتهاء بانطباق الشفتين لتتصل بالأسماء وتصل إلى الأذن وهذا ينسحب إلى الكائنات الحية فقد ورد في العقد الفريد : قال أفلاطون : " لا ينبغي أن تمنع النفس من معاشقة بعضها بعضاً ، إلا ترى أن أهل الصناعات كلها إذا خافوا الملالة والفتور على أبدانهم ترنموا بالألحان فاستراحت لها أنفسهم ، وليس من أحد كائناً من كان إلا وهو يطرب من صوت نفسه ، ويعجبه طنين رأسه ولو لم يكن من فضل الصوت [4] ، وحتى أن البهائم لتحن الى الصوت الحسن وتعرف فضله ،وكان صاحب الفلاحات

---

[1] لغة الهمس :

[2] الأعراف : 204 .

[3] الصورة الفنية في آيات النور : 66 .

[4] العقد الفريد : 4/6 ، ينظر : تطور البحث الدلالي : 18 ، 19 / التنغيم اللغوي في القرآن الكريم : 87 .

يقول:"بان النحل اطرب الحيوان كله الى الغناء ، وأن أفراخها لا تستنزل بمثل الزجل والصوت الحسن ".[1]

قال الراجز :

والطيـــــر قـــــد يســـــوقه للمـــــوت إصـــــغاؤه إلـــــى حنـــــين الصـــــوت

وهكذا للصوت ميزة جمالية ترتاح لها النفس وتحن اليها القلوب ، بدلالتها النفسية المعبرة عن مضمون الصور الذهنية .

---

[1] العقد الفريد : 5/6 ، ينظر : أسرار البلاغة 72 .

المبحث الرابع : الدلالة الإيحائية وأثرها في الصوت :-

أكدت الدراسات الصوتية والبلاغية على المربط بين إيقاع اللفظ ومدلوله وصورة الإيحائية ، وأن البلاغيين فقد عبروا عن إحساسهم بالدلالة الإيحائية للجرس اللفظي ، بأن ربطوا بينها وبين شخوص حية فقد تخيلوا الصور الإيحائية التي يحدثها في نفوسهم إيقاع جرس اللفظة بما يناسب والطبيعة النغمية له من الأشخاص ما دامت الألفاظ تجري من مجرى الصور من البصر .

وقد ذهب ابن جني (392هـ) إلى ابعد من ذلك حينما يرى : " إن الكلمات وان اختلفت في أصولها من حيث كون بعضها ثلاثية والأخرى رباعية فان مجرد اشتراكها في الحروف الثلاثية الأولى منها يؤدي إلى الاشتراك في الدلالة " [1] وكان ابن فارس (395هـ) من المعاصرين لأبن جني فقد تأثر به معالجته للصلات بين الألفاظ من حيث جرسها المركب من أصوات حروفها وبين دلالتها المعنوية الخاصة . [2]

وتبرز ملامح الدلالة الإيحائية في استيعاب صيغ ألفاظ معينة وكلمات مؤثرة ، توحي في دلالتها بأكثر من مدلولها الظاهري وتنطوي على جملة من المعاني الأخرى ، فهي المقياس الفني لتقدير قيمة اللفظ تتأثر بهذه الإيحائية ونوعيتها قوة وضعفاً ، فكلما كانت إيحائية الكلمة عالية ، كانت قيمة تلك الكلمة قتياً عالية أيضاً والعكس بالعكس ففي قوله تعالى : ﴿**وَتَثْبِيتاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ**﴾[3] فيها من الدلالة الإيحائية الانتقال بمشاعر الإنسان في الغيضة والسرور إلى عالم روحي محض يحمل بين يرديه جميع مقومات الرضا من الله ، والعناية بالنفس التي لا تأمل إلا التثبيت والاستقامة ، بهذا الصوت الدافئ أو حث الآية الكريمة إلى تطمئن النفس البشرية [4] فالدلالة الإيحائية إذن هي شعور داخلي توحي به النفس الإنسانية بما تتأثر به من أصوات تحيط بها .

والدلالة الإيحائية النفسية الإيقاع الموسيقي للألفاظ بوصفها صوراً ذهنية سمعية ، وفضلاً عن دلالتها المعنوية الخاصة بكل لفظة ، ذات دلالة إيحائية تشيع في النفس مناخاً تخبيلياً خاصاً يتمشى وحركة النفس وذبذباتها الشعورية ، وينسجم مع إيقاعات موسيقاها الداخلية وإيقاعها .

---

[1] الخصائص : 135/2 .

[2] مقاييس اللغة : 401/2 ، 440 ، 371 .

[3] البقرة : 265 .

[4] الصورة الفنية في المثل القرآني : 251 ، ينظر : الاسس النفسية للبلاغة العربية : 54 ، 55 .

ولم تقتصر جهود اللغويين لهذه الظاهرة على الربط بين إيقاع اللفظة من حيث مادة حروفها وبين دلالتها المعنوية والإيحائية ، بل تعدته إلى الربط بين الصيغة وحالها من دلالة إيحائية معنوية ، بصرف النظر عن طبيعة الأصوات التي تركبت منها فقد التفتوا إلى أن لكل صيغة من صيغ الزيادة ودلالة معنوية إيحائية عامة تختلف عما عند الأخر .[1]

والدلالة التي يوحي بها اللفظ بالأصداء والمؤثرات في النفس فيكون له وقع خاص يسيطر على النفس ، لا يوصيه لفظ يوازيه لغة ، فهو فجال الانفصاليات النفسية والتأثير الداخلي للإنسان ، وقد ادرك النقاد القدماء حقيقة اللفظ الإيحائي . [2] وان انتقاء الألفاظ والإحساس العالي بأثرها الخفية وما تنطوي عليه من معان متعددة إحدى أهم الأسباب التي تميز العقلية الأدبية ، فبعض الكلمات توحي بأكثر من مدلولها الظاهري ، ويتحد المقياس الفني في تقدير قيمة الألفاظ باعتبارها أصوات ومدى قدرتها على خلق إيحائية خاصة بها .

فالدلالة الإيحائية في اللفظ تفصح عن شاعرية الأداء والفهم الواعي لسلوك اللغة وما تلقيه الكلمة من معان خبيئة ، هي صدى تراكم الخبرات الفردية والجماعية التي صاغت نسيج التجربة النفسية والاجتماعية للجماعة المتداولة للغة واحدة .[3]

إن الاضطرابات التي تطرأ على الصوت ، أنواع أهمها ، استعمال درجة صوتية شديدة الارتفاع او بالغة الانخفاض بالنسبة إلى عمر المتكلم الجسمي واتسام الصوت بقوة شديدة أو نعومة مفرطة ورنين غير طبيعي ناتج عن عدم غلق التجويف الأنفي عند النطق بالأصوات غير الخشومية بدلالته الإيحائية .

وربما كان عبد القاهر الجرجاني (471هـ) والسكاكي (626هـ) من أكثر البلاغيين أفادة في بيان الأصول الدلالية في مباحث البلاغة العربية على اختلافها وما يوهم به السكاكي ومن تبعه ، ومنها تقسيم الألفاظ في دلالتها على المعنى إلى خمس مراتب والألفاظ ، المتواطئة ، والألفاظ المتباينة ، والألفاظ المترادفة والألفاظ المشتركة والألفاظ المستغرقة ،[4] وحاول البلاغيون جاهدين وضع مصطلحاتهم الخاصة وتقسيماتهم لعلوم البلاغية في مدى القرون المتقدمة وفي عصر الجرجاني وما بعده الى عصر السكاكي والقزويني ومن تبعها من تبعهما من الشراح ، وكانوا في ذلك يهدفون إلى استقلالية البلاغة العربية .

---

[1] الخصائص : 152/2 ، ينظر : الأسس النفسية في البلاغة العربية : 55 .

[2] الصورة الفنية في المثل القرآني : 237 .

[3] فلسفة المعنى في النقد الحديث (رسالة ماجستير) 152 .

[4] الطراز : 150/2 ، 152 .

والدلالة الايحائية عند عبد القاهر الجرجاني وعلى ضربين : دلالة مباشرة ، ودلالة غير مباشرة ، وهو تقسيم يتفق مع تقسيم بعض النقاد المعاني إلى معان أول وثوان ، وجعل عبد القاهر مدار الدلالة الثانية الكفاية والاستعادة ، والكتابة هي أساليب الإفصاح عن المعنى الثواني.

ولا يعني عبد القاهر بتتالي الألفاظ وإيحاءها أن ترصف بعضها إلى بعض ، بل يعني به التناسق الدلالي بين هذه الألفاظ المرصوفة . قال : " إن ليس الغرض ينظم الكلم أن توالت ألفاظها في النطق ، بل أن تناسقت دلالتها وتلاقت معانيها على الوجه الذي اقتضاه العقل " [1] وقد توحي الدلالة برموزها التي تناسب اللفظ أو المعنى إلى معرفة الدال والمدلول ومنذ وقت مبكر سجلوا بذلك سبق علمي على كل من أدعى أنه مبتدع هذا العلم والمعنى الإيحائي هو أحد المقاييس التي يرجع اليها في تقدير قيمة اللفظ وهو المسؤول عن روعتها وحودتها ، أو قبحها وردأتها ، كما أن علماء البلاغة يسعون دائماً جاهدين إلى الكشف عن ذلك المعنى الإيحائي ، وبمقدار ما يكتشفون فيه يتفاوتون في القدرة والمهارة ، فأذكاهم وأشدهم فطنة ، هو الذي يستوعب ما توحيه اللفظة وبتنبه لما تثيره حولها من الدلالات والمعنى .[2]

ومن الجهود المتميزة والتي لها الحضور في هذا المضمار جهود الزمخشري (538هـ) فقد وقف عند كلمة (يصفون) في قوله تعالى : ﴿**لبئس ما كانوا يصفون**﴾ [3] .

وعلى هذا فكلمة (يصفون) أبلغ من (يعملون) لما توحيه من دلالة الارتكاس في الإثم ، فكان الإثم صناعة وحرفه ، بما توحيه هذه الدلالة بصوتها المؤثر من خلال ما أصاب مرتكبي هذا الإثم من عذاب .

وكل لفظ يدل على العموم بل هو من أدوات العموم ليتساوى المعنى العام مع اللفظ العام ، وما أراد به الإيحاء الخاص الكامن وراء دلالة اللفظ ، فأنه يختار لتلك الدلالة بذلك الإيحاء .

وكان إبن الأثير (637هـ) قد أهتم بالإيحاء وجعله مسؤولاً عن روعة الكلمة وجودتها ،

يتضح ذلك من تعليقه على لفظتي ، (كل حاجة) في قول الشاعر :

ولمـــا قضـــينا مـــن منـــى كـــل حاجـــة ومســـح بالأركـــان مـــن هـــو ماســـح

---

[1] دلائل الأعجاز : 173 ، ينظر : عيار الشعر : 14 ، تحرير التحبير : 194 .

[2] النقد اللغوي عند العرب : 232 .

[3] الأعراف : 72 .

قال إبن الأثير : " إن في قول هذا الشاعر : (كل حاجة) مما يستفيد من أهل النسيب والرقة والاهواء والمقلة ما لا يستفيده ، غيرهم ، ولا يشاركهم فيه من ليس منهم .

لقد قاس إبن الأثير الألفاظ بمدى إيحائها ، ورأى أن الإيحاء بتحقيق الفظ الحقيقي ، لما يتحقق اللفظ المجازي ،[1] إلا أن استعمال الالفاظ في معان مجازية هو الذي يكسبها في الغالب تلك الإيحاءات والظلال ، كما أنه هو الذي يمنحها القدرة على تحريك خيال السامع وبما توحيه تلك الأصوات ، وواضح أن إبن الأثير قد أدرك ما يقول به المحدثون من أن اللفظة قد تثير في بعض النفوس ما لا تثيره في نفوس أخرى من ظلال وإيحاءات وذلك بحسب ما للفرد أو الأفراد من التجارب مع ما توحيه تلك اللفظة .

وقد أعرب إبن الأثير عن أثر الألفاظ الموحية بأصواتها في نفسه فقال : " وكنت إذا مررت بنظري في ديوان من الدواوين ، ويلوح لي فيه مثل هذه الألفاظ أجدلها نشوة كنشوة الخمر ، وطرباً كطرب الألحان "[2] .

ومن خلال ما تقدم اتضح لنا أهمية الدلالة الإيحائية وتأثيراتها النفسية على المتلقي وبأصواتها الموحية .

وفي ختام هذه الدراسة نكون بعون الله قد دونا جهود علماءنا الصوتية التي جاءت في كتبهم أو ما حملته لنا المصادر . ومن الله العون والتوفيق ...

---

[1] المثل السائر : 49/1 .

[2] نفسه : 50/1 .

الخاتمة والنتائج

خاتمة البحث والنتائج

وبعد هذا الجهد الذي بذلناه من خلال هذه المرحلة الشاقة والممتعة التي عاشها الباحث مع نغمات الاصوات , من دراسة واستقصاء برزت من خلالها بعض الافكار اود ان اذكرها في نهاية هذا المبحث ملخصا" بأهم النتائج التي توصلت اليها .

- في مدخل هذه الدراسة , توضح لنا ان الصوت في بدايته كان رمزا" , ثم اصبح فيما بعد علما" قائما" بذاته , تتغذى منه بقية العلوم الاخرى .
- ان الصوت الحسن يثير مشاعر الانسان وترتاح له النفس لسماعه , فضلا" عن بقية الكائنات الحية , فيسرها سماع الاصوات التي تحيط بها .
- وان الله سبحانه وتعالى خلق حاسة السمع قبل الحواس الاخرى .
- اتضح للباحث ان العلماء العرب كان لهم السبق العلمي في معرفة مخارج الحروف وانواعها وترددات اصواتها , وترشيح اعضائها , وهذا ما اكدت عليه الدراسات الحديثة ومن خلال الأجهزة المتطورة , وقد اعترف بذلك علماء الاصوات من الاوربيين.
- عالج العلماء العرب القدماء ومنذ وقت مبكر , عيوب النطق , وذكروا ذلك في كتبهم موضحين اسبابه ومسبباته وما يرافقه من احراجات لبعض الاشخاص , واضعين بعض الحلول لهذه العيوب , منها استبدال هذه الحروف بحروف اخرى : تخلصا من بعض الاحراجات .
- بذل علماء البلاغة ,جهودا حثيثة في اثبات الجذور العميقة لفصاحة الكلمة وبلاغتها وشروط تلاؤم حروفها , منتقدين بذلك بعض النصوص والابيات الشعرية التي تتأخر حروفها وما تسببه من ثقل على اللسان عند النطق بها .
- ومن خلال استقراء جهود علماء البلاغة وتباين بعض الاراء حول مشكلة اللفظ والمعنى فقد توضح للباحث ان مسألة اللفظ والمعنى ظهرت أوّل مرة على شكل ملاحظات عابرة عند علماء النقد والبلاغة القدماء في بعض الكتب مثل الشعر والشعراء لأبن قتيبة , وكتب البلاغة مختلطة بالنقد , مثل البرهان في وجوه البيان لأبن وهب وكتاب الصناعتين لأبي هلال العسكري .
- وسرعان ما انتقل الموضوع الى المناقشات البلاغية واصبح من اختصاص كتب البلاغة الخاصة فقد بني كتاب ابن سنان على دراسة اللفظ ثم المعنى , ومنهم من وقف

وسط مثل ابن رشيق القيرواني , نرى ان هذه الظاهرة لم تحسم من علماء البلاغة القدماء ,والباحث يتفق مع الراي الذي يرجح اللفظ على المعنى , معتمدا" بذلك على أن المعاني تابعة للألفاظ المنطوقة الدالة على المعنى .

- عني علماء البلاغة كثيرا" بالتلاؤم الصوتي واعطوه اهمية على الموضوعات الاخرى من حيث تناسق الحروف وتلائمها في الكلمة وعدم تنافرها , وهذا نجده من الذوق البلاغي الذي عرفه علماء البلاغة ودونوه في كتبهم .
- ومما يراه الباحث ان هناك اختلاف في الاراء والاداء بين علماء الاعجاز القراني والبلاغيين , حول مسألة الفاصلة والسجع عندما ذكروا , أن الفواصل بلاغة والاسجاع عيب , ولا نعلم ما هو الدليل القاطع الذي استندوا اليه , فضلا" عن اختلاف الاراء بين الرّماني وابن سنان الخفاجي الذي خطأ الرماني في ذلك وكلاهما عالمان بلاغيان معروفان .
- أما المحسنات الصوتية البديعية , فلها مساحة واسعة في كتب البلاغة , منها ما يدرس الكلمة من حيث هي عنصر لغوي , ويدرس حسنها من حيث جرسها الصوتي , ومن حيث اداؤها لمعناها , وتناسب الصوت والمعنى والجزالة والرقة على انهما اثر لهذا التماسك , وزيادة حسن اداء الكلمة لمعناها بتأثير الرنين الصوتي في الجناس والسجع والترصيع والرد العجزي على الصدري ولزوم ما لايلزم .
- ولاتقف المطابقة في اللفظ عند مطابقة اللفظ لمعناه ,بل ينبغي ان يطابق اللفظ ما يجاوره , وينسق مع الالفاظ التي تحيط به من حيث الجرس الموسيقي , ومن حيث مطابقة معناه لمعنى ما حوله من الالفاظ , حتى يكون العمل الادبي بناءً سليما" ينسق الاجزاء متراصا" للبنات , تحقق فيه الوحدة الفنية بين اجزاء العمل الادبي , وهذا ما تنبه اليه النقاد والبلاغيين العرب فقد احسوا بجاحة الاديب الى ادراك المطابقة بين المعاني والموضوعات , وضرورة رعاية هذه المطابقة التي لاتستغن عنها البلاغة , التي اجمع على انها بلوغ الغاية من الاعمال الادبية ومطابقة الكلام لمقتضى الحال .
- اما في ما يتعلق بدلالة الالفاظ, فكل دلالة لها ايحاء خاص بها وان استقلال اللفظ بحروف معينة يكسبها ذائقة سمعية مؤثرة في النفس , منها ما يطلق عليه بالدلالات

اللفظية ومنها الدلالة الصوتية او المحاكاة الصوتية , وان لكل لفظ هو صوت دال على معنى معين .

- والدلالة التي لفتت انظارنا هي الدلالة النفسية , واظن أن اغلب الدلالات لها تأثير نفسي وهذا ما فعله العلماء العرب عندما عالجوا بعض المرضى بالموسيقى فلاحظوا نتائج ايجابية بتحسن صحة هؤلاء المرضى عند سماعهم لأنغام الموسيقى .
- اقترح أن تدرس مادة الصوت في الكليات وحصرا" في اقسام اللغة العربية وتخصيص مختبر للصوت , لضبط مخارج الحروف , اسوة باللغات الأجنبية الاخرى هذه اهم النتائج التي توصلت اليها .

المصادر والمراجع

المصادر والمراجع

خير ما نبدأ به , القرآن الكريم

*- أبحاث ونصوص في فقه اللغة العربية , الدكتور رشيد عبد الرحمن العبيدي , دار الكتب للطباعة والنشر بغداد /1988 م .

*- أبحاث في أصوات العربية الدكتور حسام سعيد النعيمي , دار الشؤون الثقافية العامة بغداد /1988 م .

*- ابن جني عالم العربية , الدكتور حسام سعيد النعيمي دار الشؤون الثقافية العامة بغداد /1990 .

*- أبو هلال العسكري , الدكتور بدوي احمد طبانة القاهرة / 1952 م.

*-الاتباع والمزاوجة, لأبن فارس(0395هـ) تح , كمال مصطفى مطبعة السعادة /د.ت .

*- الإتقان في علوم القران , للسيوطي (911هـ) تح , محمد أبي الفضل إبراهيم مطبعة المشهد الحسيني القاهرة /1967 .

*- إحياء علوم الدين لأبي حامد الغزالي (606 هـ) دار الفكر /1975م .

*- الاختلاج اللساني , الدكتور نعيم علوية ,بيروت 1992 م .

*-الأدب الجاهلي بين لهجات القبائل واللغة الموحدة , الدكتور هاشم الطعان , منشورات وزارة الثقافة والإعلام بغداد /1978 م.

*- الأدب وروح العصر , الدكتور عبدة بدوي والدكتور محمد حسن عبد الله , ذات السلاسل , الكويت /1985 م .

*- أساليب الطلب عند النحويين والبلاغيين , الدكتور قيس إسماعيل الاوسي , المكتبة الوطنية بغداد/1988 م.

*- أساس البلاغة الزمخشري (538 هـ) , / د .ت .

*-أساليب بلاغية , الدكتور احمد مطلوب , بغداد 1987 م .

*- أسباب حدوث الحروف , لأبن سينا (428هـ) طه عبد الرزاق اسعد , مكتبة المكتبات الأزهرية / د.ت .

*- أسرار البلاغة , عبد القاهر الجرجاني (471هـ) , علق عليه رشيد محمد رضا , دار الكتب العامة الطبعة الأولى , بيروت لبنان / 1988 م .

*- الأسس الجمالية في النقد العربي ,الدكتور عز الدين اسماعيل , الفكر العربي /1974 .
*- الأسس النفسية لأساليب البلاغة العربية , الدكتور مجيد عبد الحميد ناجي , المؤسسة الجامعة للدراسات والنشر والتوزيع , بيروت /1984 م .
*- أصوات اللغة , الدكتور عبد الرحمن أيوب , مطبعة الكيلاني القاهرة /1968 م .
*- أصوات العربية بين التحول والثبات , الدكتور حسام سعيد النعيمي , المكتبة الوطنية بغداد /1986م.
*- أصول البيان العربي , الدكتور محمد حسين علي الصغير , بغداد /1986 م.
*- أصوات واشارات : تأليف , أ-كوندرانوف , نقله عن الإنكليزية , إدوارد يوحنا إصدار وزارة الثقافة والإعلام بغداد / د .ت .
*- الأصوات اللغوية , الدكتور إبراهيم أنيس , الطبعة الرابعة , مطبعة الانجلو المصرية /1971 م.
*- الأصول في النحو , لأبن بكر محمد سهل السراج (316هـ) , تج , عبد الحسين الفتلي مؤسسة الرسالة الطبعة الرابعة /1987 م .
*-إعجاز القران , عبد الكريم الخطيب , دار الفكر العربي بمصر /1964 م
*- إعجاز القران والبلاغة النبوية , مصطفى صادق الرافعي , دار للطباعة القاهرة /1958 م
*- الإعلام , خبرالدين الزركلي , الطبعة الثانية الجزء الخامس / د . ت .
*- الإمتاع والمؤانسة لأبي حيان التوحيدي (387هـ) , صححه وضبطه وشرح غريبه احمد
*- أمين واحمد الزين , منشورات دار مكتبة الحياة , بيروت لبنان / د. ت.
*-الإيضاح , للخطيب القزويني (739هـ) تح , لجنة من الجامع الأزهر مطبعة المحمودية القاهرة / د.ت .
*- البحث اللغوي عند العرب , الدكتور احمد مختار عمر , الطبعة السادسة عالم الكتب القاهرة /1988 م .
*- البديع في البديع , أسامة بن منقذ (584هـ) تح , عبد على مهنا , دار الباز بيروت لبنان / 1987 م.

*- بديع القرآن , لأبن ابي الاصبع (654هـ) , تح , حفني محمد شرف مطبعة القاهرة بمصر /1957 م .

*- البرهان في وجوه البيان إبراهيم بن سليمان بن وهب الكاتب ,تح , خديجة الحديثي , واحمد مطلوب , بغداد /1967 م .

*- البرهان في علوم القران , بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي (794هـ) تح , محمد ابي الفضل إبراهيم , دار إحياء الكتب العربية القاهرة /1957 م.

*- بلاغة القرآن , محمد الخضر حسين , اشرف على طبعة ونشره , علي الرضا التونسي /1971 م .

*- بلاغة أرسطو بين العرب واليونان , الدكتور إبراهيم سلامه , الطبعة الثانية /1952م.

*- البلاغة تطور وتاريخ , الدكتور شوقي ضيف , دار المعارف الاسكندرية /1965 م.

*- بلاغة الكلمة والجملة والجمل , الدكتور منير سلطان , دار المعارف الاسكندرية /1977م.

*-البلاغة العربية , الدكتور احمد مطلوب , مطبعة وزارة التعليم العالي , المكتبة الوطنية بغداد 1980 م .

*-البناء الصوتي في البيان القراني , الدكتور محمد حسن شرشر , دار الطباعة المحمودية القاهرة / 1988 م .

*- البيان والتبيين , لأبي عثمان عمر بن بحر الجاحظ (255هـ) تح,عبد السلام هارون الطبعة الرابعة /1975م .

*- البيان العربية , الدكتور بدوي طبانة ,دار العودة الطبعة الخامسة بيروت / 1972 .

*- تأويل مشكل القرآن , عبد الله بن مسلم بن قتيبة (276هـ) ,تح , احمد صقر , مطبعة عيسى البابي الجلبي القاهرة /1373 هـ .

*- تحرير التحبير , لأبن الإصبع (654هـ) ,تح, حفني محمد شرف مطابع شركة الإعلان الشرقية القاهرة /1963 م.

*- التشكيل الصوتي في اللغة العربية الدكتور سلمان العاني , تر , ياسر الملاح منشورات المنتدى الأدبي جده /1983م.

*- تصحيح الفصيح ,لأبن درستويه (347هـ) , تح , عبد الله الجبوري مطبعة الإرشاد

بغداد /1975 م .
*- التصوير الفني في القران , سيد قطب , دار الشروق القاهرة /1979 م .
*- تطورالبحث الدلالي , الدكتورمحمد حسين على الصغير, مطبعة العاني بغداد / 1988 م .
*- التعبير البياني , الدكتور شفيع السيد , مطبعة الاستقلال القاهرة /1973 م .
*- التعبير القرآني , الدكتور فاضل صالح السامرائي , مطبعة وزارة التعليم العالي جامعة بغداد /1987 م .
*- التنغيم اللغوي في القران الكريم , الدكتور سمير وحيد العزاوي دار الضياء , عمان الأردن / 2000 م.
*- التفكير اللساني في الحضارة العربية , الدكتور عبد السلام المسدّي , الدار العربية للكتاب ليبيا - تونس /1981 م .
*- التلخيص في علوم البلاغة , الخطيب القزويني (739هـ) شرح عبد الرحمن البرقوقي المكتبة التجارية الكبرى القاهرة /1934م .
*- تهذيب اللغة للازهري ، الدار القرمية للطباعة /1964 .
*- ثلاث رسائل في إعجاز القران , الرمّاني , الخطابي , عبد القادر الجرجاني , تح, محمد خلف الله والدكتور محمد زغلول سلام , الطبعة الثانية , دار المعارف بمصر /1968 م .
*- الثورة التكنولوجية واللغة العربية , الدكتور محمد صالح بن عمر , دار الشؤون الثقافية العامة بغداد / 1986 م .
*- جرس الألفاظ , الدكتور ماهر مهدي هلال , دار الحرية للطباعة بغداد / 1980 م .
*- جني الجناس , السيوطي (911 هـ) ,تح , محمد علي رزق الخفاجي , الدار الوطنية للطباعة والنشر / د.ت .
*- جواهر الألفاظ , لقدامه بن جعفر (337هـ) , مطبعة الخاتمة / 1932 م .
*- الحيوان , عمر بن بحر أبوعثمان الجاحظ (255هـ) تح , عبد السلام هارون مطبعة مصطفى البابي الجلبي وأولاده القاهرة /1969 م.
*- خصام ونقد , الدكتور طه حسين (1973م) دارالملايين بيروت /1978 م .

*- الخليل أبن احمد الفراهيدي , الدكتور مهدي المخزومي دار الرائد العربي بيروت /1960م .
*- دراسة الصوت , اللغوي الدكتور احمد مختار عمر , عالم الكتب القاهرة / 1976م.
*- الدراسات اللهجية والصوتية عند ابن جني , الدكتور حسام سعيد النعيمي العراق / 1980 م .
*- دراسات في البلاغة , الدكتور محمد بركات حمدي ابو علي , دار الفطر والنشر عمان / 1984 م .
*- الدراسات اللغوية في العراق , الدكتور عبد الجبار جعفر القزاز , جمهورية العراق / 1981 م.
*- دراسات في علم أصوات العربية , داود عبده , دار الصباح , الكويت / د .ت.
*- دلائل الإعجاز , عبد القادر الجرجاني (471هـ) قراه وعلق عليه , محمود محمد شاكر , مطبعة المدني القاهرة / 1984 م .
*- دور الكلمة في اللغة , استيفن اولمان , تر قدم وعلق الدكتور كمال محمد بشر مكتبة الشباب / 1975 م .
*- ديوان أبي تمام , شرح التبريزي , تح ,محمد عبده عزام ,دار المعارف بمصر /1972م
*- ديوان المعاني ديوان البحتري , دار صادر , بيروت / د . ت .
*- ديوان الخنساء , مكتبة الفرزدق للطباعة والنشر للطباعة والنشر والتوزيع, بغداد / د,ت .
*- ديوان شعرذوالرمة ,تح , كارليل هسن مكاتني , كنبريج /1919 م .
*- ديوان الفرزدق , تح , اكرم البستاني , دار صادر , بيروت , /1966 م.
*- ديوان الهذليين , القسم الثاني , دار القومية للطباعة والنشر /1960م .
*- رسائل إخوان الصفا , بيروت /1957م.
*- سر صناعة الاعراب , ابن جني (392هـ) ,تح, لجنة من الاستاذة , مطبعة مصطفى البابي الجلبي واولاده بمصر /1954 م .
*- سر الفصاحة -لأبن سنان الخفاجي (466هـ) شرح وتصحيح عبد المتعال الصعيدي , مطبعة محمد علي صبيح واولاده /1969 م .
*- سنن النسائي , بشرح السيوطي , دار إحياء التراث العربي , بيروت / د .ت .

*- السيرة النبوية لأبن هشام ,تح, مصطفى السقا وابراهيم الابياري وعبد الحفيظ شبلي / د-ط , د-ت .

*- شرح ديوان, امرئ القيس , منشورات دارالفكر بيروت /1968 م .

*- الشعر والشعراء لأبن قتيبة (276هـ) ,دار الثقافة لبنان / 1969 م .

*- شرح ديوان حسان بن ثابت الانصاري , ضبط الديوان وصححه , عبد الرحمن البرقوقي , دار الاندلس , بيروت /1980 م .

*- شرح شعر زهير بن ابي سلمى , صنعه ابي العباس تعلب , تح , الدكتور فخر الدين قبادة , دار الآفاق الجديدة , بيروت /1981 م.

*- شرح ديوان الأعشى , تح, كامل سليمان , دار الكتاب اللبناني / د-ت .

*- الشفاء - العبارة -لأبن سينا (428هـ) ,تح, محمد الخضري , دار الكتب العربي للطباعة والنشر القاهرة / د.ت .

*- شرح ديوان كعب بن زهير , ابن الحسين ابن عبد الله للطباعة والنشر /1950 م.

*- شرح ديوان المتنبي ,تح, عبد الرحمن البرقوقي , دار الكتاب العربي بيروت / د,ت.

*- الصاحبي في فقه اللغة لأبن فارس (395هـ) , مطبعة المؤيد القاهرة /1960 م .

*- صحيح البخاري , دار إحياء التراث العربي بيروت لبنان / د.ت .

*- صحيح مسلم , بشرح النووي , دار إحياء التراث العربي / د.ت .

*- الصوت الكسندر افرون , تر, محمد عزالدين فؤاد , راجعه الدكتور علي شعيب الكرنده /1962م.

*- الصوت اللغوي في القران الكريم , الدكتور محمد حسين على الصغير , دار المؤرخ العربي بيروت /2000 م .

*- الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي , الدكتور جابر عصفور , دار الثقافة للطباعة والنشر , القاهرة /1917 م .

*- الصورة الفنية في المثل القراني , الدكتور محمد حسين على الصغير , الدار الوطنية للتوزيع والإعلان بغداد /1981 م .

*- الطراز , بن حمزة العلوي (749هـ) , مطبعة المقتطف , القاهرة /1964 م .

*- طبقات فحول الشعراء محمد بن سلام الجمحي (231هـ) شرح محمود محمد شاكر, دار العارف للطباعة والنشر / د,ت.

*- العقد الفريد , ابن عبد ربه الاندلسي , تح , احمد امين , واحمد الزين وابراهيم الابياري , دار الكتب , بيروت لبنان / 1956 م,

*- العمدة ابن رشيق القيرواني (456هـ) تح , محمد محيي عبد الحميد دار الجيل الطبعة الرابعة / 1972 م .

*- علم الجمال , دني هويسمان ,منشورات عويدات ,الطبعة الثانية بيروت لبنان / 1975 م.

*-علم اللغة العام - الأصوات - الدكتور كمال بشر , دار المعارف مصر /1980م .

*- علم الدلالة , كلود جرمان وريمون لوبلان , تح , نور الهدى لوشن , دمشق /1994 م.

*-عيار الشعر ,محمد بن احمد بن طباطبا العلوي (322هـ) ,تح, الدكتور طه الجابري والدكتور , محمد زغلول سلام , القاهرة / 1956 م .

*- فخر الدين الرازي بلاغيا , الدكتور ماهر مهدي هلال , منشورات وزارة الثقافة والأعلام , دار الحرية للطباعة بغداد /1977 م.

*- الفراهيدي عبقري من البصرة , الدكتور مهدي المخزومي , دار الشؤون الثقافية , الطبعة الثانية بغداد/1986 م.

*- فضل علماء المسلمين على الحضارة الأوربية , الدكتور عز الدين , دار الفكر العربي بمصر / 1978 م .

*- فقه اللغة وخصائص العربية , محمد مبارك ,دار الفكر الطبعة الثالثة بيروت 1968م.

*- فن القول , أمين الخولي , مطبعة مصطفى البابي / 1947 .

*- فن الجناس , علي الجندي, مطبعة الاعتماد , مصر /1954 م .

*- في البحث الصوتي عن العرب , الدكتور خليل ابراهيم العطية , منشورات الجاحظ بغداد /1983 م.

*- في علم الكلام , الدكتور احمد محمود صبحي , دار النهضة العربية , الطبعة الخامسة , بيروت /1985 م.

*–في علم اللغة العام ,عبد الصبور شاهين مؤسسة الرسالة الطبعة الثانية, بيروت /1985م.
*– في علم الأصوات اللغوية , دراسة في أصوات المد العربية ,الدكتور غالب فاضل المطلبي , منشورات وزارة الثقافة والأعلام , العراق /1984 م .
*– القاموس المحيط , للفيروز أبادي , مطبعة البابي الجلبي , بيروت لبنان /د.ت .
*– القراءات القرآنية , الدكتورة مي فاضل الجبوري , دار الشؤون الثقافية العامة بغداد /2000م .
*– قطف الأزهار في كشف الأزهار ,جلال الدين السيوطي (911هـ) , تح, الدكتور احمد بن محمد الحمادي وزارة الأوقاف والشؤون الدينية قطر /1991 م .
*– قواعد النقد الأدبي , لاسك كرومبي , تح , الدكتور محمد عوض محمد مطبعة الترجمة والنشر الطبعة الثالثة/1954م .

*– القيم الفنية المستخدمة في الشعر العباسي , الدكتور توفيق الفيل , جامعة الكويت 1984 م
*– الكامل في اللغة والأدب لأبي العباس المبرد(285) تح , محمد أبي الفضل ابراهيم مطبعة نهضة مصر /د.ت .
*– الكتاب لأبي بشر عمرو بن عثمان بن قنبر سيبويه , تح : وشرح عبد السلام محمد
*– هارون الهيأة المصرية لعامة لكتاب /1975 م .
*– كتاب الصناعتين , ابو الهلال العسكري (395هـ) تح , علي محمد البجاري واخرين /1971 م .
*– كتاب الحروف . لأبي نصر الفارابي , قدم له وعلق عليه , محسن مهدي , دار المشرق بيروت /1986 .
*– كتاب البديع , لعبد الله بن المعتز (296هت) اعتنى بنشره , اغناطيوس كراتشتوفسكي , مكتبة المتنبي ,بغداد /1967 .
*– كتاب العين ,الخليل بن احمد الفراهيدي (175هـ) ,تح, مهدي المخزومي والدكتور إبراهيم السامرائي الجزء الأول , دار الشؤون الثقافية بغداد /1986 م .

*–الكشاف , جار الله محمود بن عمر الخوارزمي الزمشخري (538هـ) دار المعرفة لبنان /د–ت ,

*– لسان العرب , للعلامة ابن منظور (711هـ) قدم له العلامة عبد الله العلايلي , إعداد وتصنيف يوسف خياط , بيروت /د.ت .

*– اللغات السامية , تيودور نولدكه , تح, الدكتور رمضان عبد التواب دار النهضة العربية القاهرة /1975 م .

*–لغتنا الجميلة , فاروق شوشه , دار العودة بيروت / د,ت .

*– اللغة الشاعرة , عباس محمود العقاد , مكتبة الانجلو المصرية /1960 م .

*–اللغة الشعرية في الخطاب النقدي العربي , الدكتور محمد رضا مبارك , دار الشؤون الثقافية بغداد /1993م .

*–لغة الهمس , الدكتور مصطفى احمد شحاته , الهياة العمة المصرية العامة للكتاب / 1972 م.

*– اللغة بين العقل والمغامرة , الدكتور مصطفى مندور , مطبعة اطلس القاهرة /1974 م .

*– لهجة قبيلة أسد , الدكتور علي ناصر غالب , وزارة الثقافة والإعلام بغداد / 1989 م .

*– اللهجات العربية الغربية القديمة تأليف chaimmipn , تر , عبد الرحمن ايوب , مطبعة ذات السلاسل ,الكويت / 1986 م .

*–مبادئ اللسانيات , احمد قدورة , دار الفكر , سورية لبنان /1996 م.

*–مباحث في علم اللغة واللسانيات , الدكتور رشيد عبد الرحمن العبيدي, بغداد/2002م.

*– المثل لسائر لضياء الدين ابن الاثير (637هـ) احمد الحوفي والدكتور بدوى طباعة بمصر /1960 م .

*–مجاز القران معمر بن المثنى أبي عبيده (210هت) تح , محمد فؤاد شزكين المطبعة العامة القاهرة /1970م .

*– المحتسب في تبين وجوه الشواذ القراءات لأبن جني (392 هـ) تح, علي الجندي ناصف , القاهرة /1384 م.

*- المدخل إلى علم اللغة ومناهج البحث اللغوي , الدكتور رمضان عبد التواب مكتبة الخانجي الطبعة الثالثة القاهرة /1985 م .

*- المدخل إلى على اللغة , الدكتور محمد فهمي حجازي , دار الثقافة للطباعة والنشر القاهرة /1976 م.

*- المزهر في علوم اللغة وأنوعها , للسيوطي (911هـ) تح, محمد ابي الفضل ابراهيم مطبعة عيسى البابي الجلبي /1985 م .

*-مصطلحات بلاغية , الدكتور احمد مطلوب ,بغداد /1972 م.

*- المصطلح الصوتي عند علماء العربية القدماء في ضوء علم اللغة المعاصر الدكتور عبد القادر مرعي جامعة مؤته /1993م .

*-معاني القران للأخفش , دراسة وتحقيق , الدكتور عبد الامير محمد امين الورد ,علام الكتب الجزء الاول , بيروت /1985 م .

*- معاني القران , للفراء (207 هـ) ,تح, احمد يوسف ومحمد على البخار , مطبعة دار الكتب المصرية , الطبعة الاولى القاهرة /1955 م.

*- معاني النحو الدكتور فاضل السامرائي ,مطبعة وزارة التعليم العالي , 1989 .1991 م .

*- المعجزة الكبرى – القران أبو زهرة , دار الفكر العربي القاهرة /1970 م .

المفردات في غريب القران للراغب الأصفهاني . (502هت) , محمد سيد كيلاني , مطبعة مصطفى البابي القاهرة /1961م .

*- مفتاح العلوم ,لأبي بكر محمد بن علي السكاكي (626هـ) , ضبطه وشرحه الأستاذ نعيم زرزور دار الكتب بيروت /1983 م .

*- مقالات في الشعر الجاهلي , يوسف اليوسف دار الحقائق للطباعة والنشر , بيروت لبنان د.ت .

*- المقتضب للمبرد (285هـ) ,تح , محمد عبد الخالق عضيمة , مطابع شركة الاعلام الشرقية , لجنة احياء التراث الاسلامي , د,ت .

*- مقدمة ابن خلدون , اللغة العربية , الدكتور احمد نصيف الجنابي . دار الرشد / 1981 م .

*- من بلاغة القران , احمد بدوي , حلوان مصر /1950 م .
*-من بلاغة النظم العربي , الدكتور عبد العزيز عبد المعطي عرفه . عالم الكتب الطبعة الثانية بيروت /1984 م .
*- مناهج تجديد في النحو والبلاغة , امين الخولي , مطابع العانئي القاهرة / 1961 م .
*- منهاج البلغاء وسراج الادباء , حازم القرطاجني (684 هـ) تح , محمد الحبيب بن خوخة الطبعة الرسمية تونس /1966 م.
*-منهج البحث اللغوي بين التراث وعلم اللغة الحديث , الدكتور على زوين , دار الشؤون الثقافية العامة بغداد / 1986 م .
*- موسيقى الشعر , الدكتور إبراهيم انيس , مكتبة الانجلو المصرية / 1978 م .
*- موسيقى الشعر العربي , الدكتور شكري محمد عياد , دار المعرفة القاهرة / 1968 م.
*- الموازنات الصوتية في الرؤية البلاغية ,الدكتور محمد عمري ,مطبعة النجاح /1991 م .
*- النشر في القراءات العشر , لأبن الجزري تصحيح علي محمد الضبّاع ,دارالفكر/ د.ت.
*- نشأة حروف المعاني , الدكتور هادي عطية مطر , دار الشؤون الثقافية بغداد ة /1985م
*- النص القرني من الجملة الى العالم , وليد منير , المعهد العالمي للفكر الاسلامي القاهرة /1997 م .
*- النظرية اللغوية العربية الحديثة ,الدكتور جعفر دك الباب , منشورات اتحاد الكتاب العرب دمشق /1996 .
*- النقد المنهجي عند الحاجظ , الدكتور داود سلام , مطبعة المعارف بغداد /1960م .
*-نقد الشعر , قدامه بن جعفر (337هـ) , تح , كمال الدين مصطفى , مكتبة الخانجي بمصر /1963 م .
*- النقد اللغوي عند العرب حتى نهاية القرن السابع الهجري , الدكتور نعمة العزاوي , دار الحرية للطباعة بغداد / 1978 م .

*- النكت في إعجاز القران , علي بن عسى الرماني (386هـ) ضمن ثلاث رسائل في
*- إعجاز القرآن , تح , محمد خلف الله , محمد زغلول سلام , دار المعارف , مصر / د.ت
*- نهاية الإيجاز في دراسة الإعجاز , فخر الدين الرازي (606هـ) ,تح وتقديم إبراهيم السامرائي , والدكتور محمد بركات حمدي أبو علي , دار الفكر والنشر عمان /1985 م .
*- الوجيز في فقه اللغة , الدكتور محمد الانطاكي , الطبعة الثالثة مكتبة دار الشرق بيروت /1969 م.
*- وحدة القصيدة في الشعر العربي حتى نهاية العصر العباسي , الدكتورة حياة جاسم , دار الحرية للطباعة بغداد /1972 م .
*- الوساطة بين المتنبي وخصومه , القاضي عبد العزيز الجرجاني (366هـ) ,تح, وشرح محمد ابي الفضل ابراهيم وعلي محمد البجاري , دار إحياء الكتب العربية /1945م.

الأطاريح والرسائل الجامعية :

- اثر القران في النثر الفني عند الجاحظ , منال طه عبد الرزاق , رسالة ماجستير الجامعة المستنصرية /1986 م.
- الايقاع انماطه ودلالاته في لغة القران , عبد الواحد زباره رسالة ماجستير , كلية الاداب جامعة البصرة /1995 م .
- حركة تجديد البلاغة العربية في العصر الحديث , وليد عبد الله الخفاجي , اطروحة دكتوراه , كلية الاداب جامعة بغداد /1997 م .
- الصوت والمعنى في الصوت اللغوي عند العرب في ضوء علم اللغة الحديث الدكتور تحسين عبد الرضا كريم الوزان , اطروحة دكتوراه , كلية التربية , ابن رشد بغداد /2001م .
- الصورة الفنية في ايات النور في القران الكريم , حسن احمد مهاوش , رسالة ماجستير مطبوعة على الة الكاتبة – جامعة الكوفة كلية التربية للبنات /1999 م.
- الصورة السمعية ودلالتها البلاغية في القران الكريم , الدكتور عباس حميد السامرائي , اطروحة دكتوراه , كلية الاداب , جامعة بغداد /2001 م.
- فلسفة المعنى في النقد العربي المعاصر , المشرق العربي , من 1945 -1990 م لواء عبد الله مسعود الفواز , رسالة ماجستير كلية التربية للبنات جامعة الكوفة /2001 م .
- اللغة في الدرس البلاغي , الدكتور عدنان عبد الكريم جمعة , اطروحة دكتوراه جامعة البصرة /1995 م .
- المحاكاة الصوتية في القران الكريم , الدكتور كريم مزعل احمد اللامي , اطروحة دكتوراه , كلية الاداب الجامعة المستنصرية / 1997م .

الدوريات

- افاق عربية , الاسلوبية الصوتية في النظرية والتطبيق , بحث للدكتور ماهر مهدي هلال , العدد السابعة عشر .
- الاستاذ مجلة كلية التربية , جامعة بغداد العدد الاول /1978 م.
- بحوث المؤتمر الاول للاعجاز القارني , بحث للدكتور جازم سليمان الحلي ,/ بغداد /1991م.
- مجلة الرافدين , العدد التاسع , الجرس والايقاع في التعبير القراني , الدكتور كاصد ياسر الزيدي , جامعة الموصل ,ايلول /1978م .
- مجلة المورد المجلد السابع عشر , العدد الرابع , عدد خاص في الدراسات القرآنية , 1988
- مجلة الضاد , بحث للدكتور احمد مطلوب سنة 1989م.
- مجلة الضاد , الجزء الرابع , الدكتور على جاسم سلمان , تموز /1990.
- مجلة الاقلام العدد الحادي عشر والثاني عشر , اوجه البلاغة الثلاث , الدكتور ناصر حلاوي , كانون الاول/ 1992 م.
- مجلة كلية الاداب العدد السادس عشر , الدكتور خليل ابراهيم حماش / 1973 .
- مجلة الاقلام , الاعداد السادس والسابع والثامن , الرؤية والاسلوبية في البلاغة العربية , الدكتور ماهر مهدي هلال /1994 .

University of Baghdad
College Of Education – Ibn Rushd
Arabic Department

The Phonetic Efforts in books of Arabic Literature From the third Chatty of Migration to the Seventh A thesis

Submitted to the Council of College of Education / Ibn Rushd University Baghdad in Partial Fulfillment of Requirements fd ph.D degree in Arabic Language and its arts.

By:
Hassan Ahmed Mhawish AL- Azawe

Supervised By:
Dr. Ahmed Shakir Gudhaib

Aug – 2003

Abstract

In the long history of the phonetics of Arabic language , there is an important feature if we compare it with what happens to the phonetics of other international languages .

This reason forced the researcher to choose this subject following the scientific steps in this work and getting advantage from other references .

This research is divided into three parts , the first one is general introduction studying phonetics and its effort in the lessons of Arabic literature , studying the Holy Quran and the efforts of Arab scientists and their efforts in phonetic lessons .

The first chapter named the phonetic language in Arabic literature containing for subtitles related to this point , the first one studying the phonetic language and the efforts of Arab scientists , the second studies the sound of letters , the third studies the single sounds in standard language and Arabic literature , the fourth one studies the phonetic points in sentences and the effects of phonetics in it .

The second chapter is divided into three main subdivisions , the first one deals with the description of sounds and the importance of phonetics by speaking , the second emphasizes the whole phonetic description , the third the tune and rhythm of sounds .

The second part of this research containing three chapters, the harmony of phonetic sounds , the second about the beauty of phonetics and the third deals with the phonetic syllable , the repetition of sounds and the phonetic issue in poetry .

The second chapter is concerned with the phonetic merits containing three subtitles , the first one studies the balance in sounds and the second deals with the opposite sounds and the third studies the harmony of sounds .

The third chapter deals with the guide to pronunciation containing subdivisions , the first one is about the pronunciation of sounds that leads to phonetics , the second studies the guide to pronunciation and the value of Arabic literature , he third is about the psychological guide and its psychological efforts , the fourth point is about signs of phonetics and its effect on literature .

At the end of this research , the study reached a conclusion and the important results , then the references used in this work and an abstract in English language .

Hassan Ahmed Mhawish
2003